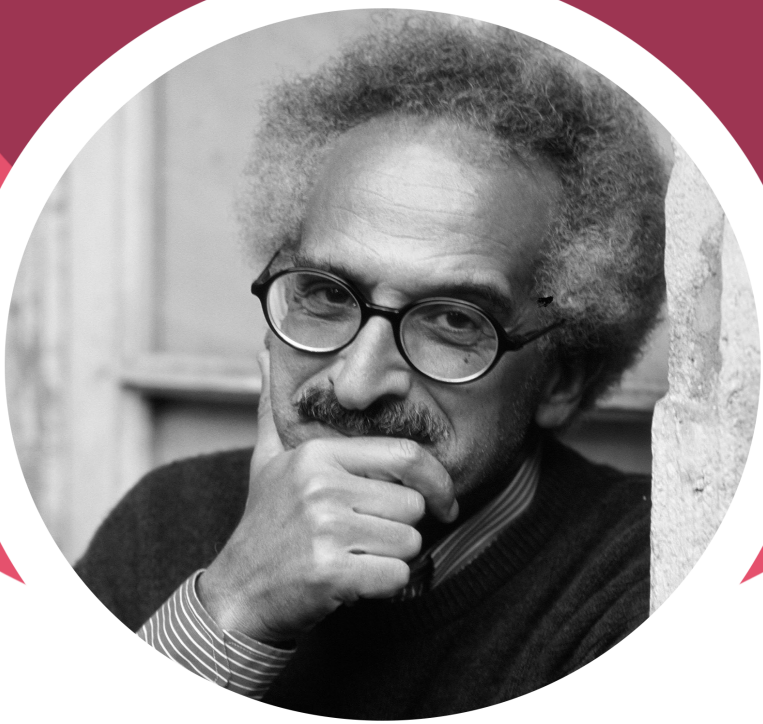

نجمة أغسطس

صنع الله إبراهيم

نجمة أغسطس

تأليف
صنع الله إبراهيم

هنـــداوي

نجمة أغسطس

صنع الله إبراهيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٦٦٣ ٦

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٤.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ صنع الله إبراهيم.

المحتويات

قبل أن تقرأ	٧
نجمة أغسطس	٩
القسم الأول	١١
الفصل الأول	١٣
الفصل الثاني	٣٥
الفصل الثالث	٥٥
الفصل الرابع	٩٧
القسم الثاني	١٣١
القسم الثالث	١٤٧
الفصل الرابع	١٤٩
الفصل الثالث	١٧٩
الفصل الثاني	٢٠١
الفصل الأول	٢٢١

قبل أن تقرأ

واكبَت سنواتُ مُراهَقتي نهايةَ العهد الملكي في مصر. كانت البلاد تَموج بدعوات التحرُّر الوطني من الوجود الإنجليزي العسكري، والتحرُّر الاجتماعي من سيطرة الإقطاع، ومن الأُمية والمرض والحَفاء! ... وشكَّلت هذه البيئة وجداني، وخاصةً الحديثَ عن أن المعرفة هي كالماء والهواء يجب أن تكون للجميع وبالمجَّان.

وفي مغربِ يومٍ من سنة ١٩٥١م، كنا أنا وأبي عائِدَين من زيارةٍ لأحد أقاربنا في شرق القاهرة. توقفنا في ميدان العتبة لنأخذ «الباص» إلى غربها حيث نقطن. اتخذنا أماكننا في مقاعد الدرجة الثانية. نعم! كانت مقاعد «الباص» آنذاك — والترام أيضًا — مُقسَّمة إلى درجتَين بثمنَين مُتفاوتَين للتذاكر التي يُوزِّعها «كمساري» بِرداءٍ أصفر مميز أثناء مروره على الرُّكاب.

جلسنا أنا وأبي خلف الحاجز الزجاجي الذي يَفصل الدرجتَين، وتابَعتُ في حسدٍ رُكابَ الدرجة الأولى، بينما كان أبي غارقًا في أفكاره التي تُثيرها دائمًا أمثال هذه الزيارات.

قلتُ بحماسٍ طفولي: «سيأتي اليوم الذي يزول فيه هذا الحاجز، بل ويصبح الركوب بالمجَّان.»

تَذكرتُ الروايات التي أعشق قراءتَها فأضفتُ: «والكتب أيضًا!»

تَطلَّع إليَّ باستياءٍ من سذاجتي: نعَم! الكتب بالمجَّان؟ يا لها من سذاجة!

ولم أتصوَّر وقتَها أن يأتي اليومُ الذي تُصبح فيه كتبي أنا متاحةً للقراءة بالمجَّان! وذلك بفضلِ مُبادَرةٍ جريئة من مؤسسةٍ مصريةٍ طَموحة، فشكرًا لها!

صنع الله إبراهيم

نجمة أغسطس

لا تخطر فكرةٌ للفنان مهما كانت عظمته. وليس لها وجود في قشرة الصخر، وكل ما تستطيعه اليد التي تخدم العقل هو أن تفك سحر الرخام.

ميكل أنجلو

إلى ذكرى «شهدي عطية الشافعي»

القسم الأول

الفصل الأول

وضعت حقيبتي فوق الرفِّ ووقفت أتأمَّل الديوان الخالي. وخلفي في الممر الضيِّق كان الرُّكَّاب يُهرعون إلى أماكنهم. وفي الخارج كان الناس يتزاحمون أمام نوافذ القطار.

تقدَّمت من النافذة فألفيت مِصراعها الزجاجي محكم الإغلاق. ورأيت من خلاله زحام المودِّعين أمام نافذة الديوان التالي. كانت شفاههم تتحرَّك بسرعة وقد مالت رءوسهم إلى الأمام وانتفخت رقابهم. ولا بد أنهم كانوا يصيحون حتى يسمعهم المسافرون من أقاربَ وأصدقاء، لكن الزجاج كان سميكًا لا يَنفذ منه الصوت؛ فقد كان القطار واحدًا من تلك القطارات الحديثة المُكيَّفة الهواء، وهي لذلك محكمة الإغلاق.

جلست إلى جوار النافذة. وبعد لحظة شعرت بوطأة الحر. وتجمَّع العرق على وجهي ففككت أزرار قميصي. وعندئذٍ تحرَّك القطار دون أن ينضم أحدٌ إلى قُمرتي. وبدأ جهاز التكييف يعمل فتسلَّلت إلى الديوان برودة خفيفة.

مددت ساقَي أمامي مستسلمًا للمقعد. وكنا قد خلَّفنا شوارع القاهرة. ومرَّ القطار بمجموعة من المساكن الشعبية بلونها الأصفر الباهت وزواياها البارزة المتجاورة، وزحام الغسيل في شرفاتها، وأكوام القاذورات أسفلها. وجاءت بعدها العشش، ثم ظهرت بعض الحقول فجأة. ومِلت على النافذة لأرى محطة الجيزة. ومررنا بها في لمحة، ثم انطلقنا وسط خضرة كاملة على الجانبَين.

أحسست بحركة على باب الديوان فالتفت لأرى رجلًا في سترة صفراء. نهضت واقفًا. اقترب الرجل مني، ثم انحنى على المقعد دون أن يفوه بكلمة. وفي ثانية تحوَّل إلى فِراش من طابقَين.

قال مشيرًا إلى باب صغير في الحائط: الغطاء هنا.

واعتدل باسطًا قامته، ثم قال: لو عزت حاجة اندهلي.

قلت: حاضر يا فندم.

تطلَّع إليَّ مندهشًا قبل أن يغادر الديوان ويغلق الباب من خلفه.

اقتربت من الباب وأدرت مقبضه المعدِني، ولدهشتي دار في يدي وتحرَّك مِصراع الباب نحوي. أعدت إغلاقه وثبَّته بالسلسلة المعدِنية المدلاة منه. وعدت إلى مكاني بجوار النافذة.

كان هناك رفٌّ صغير إلى جوارها فوقه كوب وتحته صنبور مياه ولوحة معدِنية جذبتها نحوي فتحوَّلت إلى حوض. ملأت الكوب ورفعته إلى فمي. كانت المياه ساخنةً فاكتفيت برشفة واحدة. وتركت ماء الصنبور يتجمَّع في الحوض حتى امتلأ فدفعته إلى مكانه. وسمعت صوت المياه وهي تنصرف إلى الخارج.

أعدت الكوب إلى مكانه وجلست على حافَّة الفراش. أشعلت سيجارة وأنا أتطلَّع من النافذة دون أن أتبيَّن شيئًا مُحدَّدًا؛ ربما لأن القطار كان يسير بسرعة فائقة.

نهضت واقفًا وغادرت الديوان. كان الممر هادئًا يُضيئه نور الغروب في النوافذ. مررت بدواوين مغلقة وأخرى مفتوحة تنطلق منها ثرثرة رتيبة، وأمام إحداها جلس شاب على مقعد صغير من القماش يتحدَّث إلى الجالسين في الداخل. اختلست النظر إلى السيدة التي كان يتحدَّث معها فرمقني بنظرة عدائية وأنا أمُر من خلفه.

انتقلت إلى العربة التالية التي تناثر رُكَّابها أمام نوافذ ممرها. كان بينهم عددٌ من الأجانب. اصطدمت وأنا أمُر بفتاة أوروبية شقراء ترتدي سروالًا أسود. أحسست على ساقي بملمس جسمها اللين، وظَلِلت أُحِس به وأنا أتقدَّم إلى نهاية العربة وأعبرها إلى عربة الطعام.

اخترت مائدةً إلى جوار النافذة، وطلبت من الجرسون النوبي زجاجة بيرة. احتسيتها وأنا أتأمَّل الحقول الخضراء الخالية من أي إنسان. أُضيء نور العربة، وأصبحت النافذة مرآةً سوداء لا تعكس غير وجهي.

احتلَّ المائدةَ المجاورة لي عجوز من أوروبا وزوجته المزوَّقة في رصانة، وولدان أحدهما بلحية طويلة. ثم دخلت فتاة البنطلون الأسود الشقراء في حركة مندفعة وتوقَّفت برهةً تتلفَّت حولها. كان وجهها ضاحكًا. نظرت أنا إلى المقعد الخالي في مواجهتي ولكنها أعطتني ظهرها، وانضمَّت إلى مجموعة أوروبية أخرى تتألَّف من شابَّين وفتاة.

طلب شاب أسمر في الركن زجاجة بيرة جديدة. كان يبدو أنه من العاملين في السد العالي. وأوحت ملابسه بأنه عامل ترقَّى إلى مرتبة ملاحظ.

طلبت زجاجةً أخرى بدوري، لكن الجرسون اعتذر بأن البيرة نفدت، فغادرت العربة عائدًا إلى قُمرتي. كان القطار يهتز بشدة فاعتمدت بيدي على جدران الممر دون أن أرفع

عينَي عن أبواب الدواوين، لكني لم أرَ غير جانب من فخذ امرأة كانت تُغيِّر من وضع ساقَيها.

أضأت نور قُمرتي، وأخرجت منامةً ومنشفة، وأحسست بثِقل مفاجئ في معدتي، فغادرت الديوان إلى التواليت.

أنزلت قاعدة الحمام الخشبية وجلست فوقها بعد أن رفعت ملابسي. وعندما انتهيت ضغطت رافعةً معدِنيةً صغيرةً إلى جوار يدي اليمنى، فتسلَّلت المياه تغسلني برفق. واعتدلت واقفًا أُرتِّب ملابسي، ثم استدرت أتأمَّل ما فعلت.

تذكَّرت شقة مصر الجديدة الرطبة التي أقمت فيها عدة شهور. لم تكن الشمس تدخلها إلا لِمامًا، وكان حَمَّامها معطوبًا تعجز مياهه عن إزالة الإفرازات مهما جُذب السيفون. وكانت إفرازاتي تظل في مكانها ساعات طويلةً تُطالعني كلما احتجت إلى الحوض المجاور.

ضغطت رافعةً معدِنيةً بجوار المقعد فانفصل قاعه وسالت المياه على جوانبه، واختفت إفرازاتي بثانية، ثم عاد القاع إلى وضعه نظيفًا لامعًا.

تحوَّلت إلى الحوض ففتحت الصنبور، ورأيت كرةً معدِنيةً بجواره لها طرف دقيق بارز في أسفلها. تحسَّسته بطرف أصبعي فانسابت منه دفقة خفيفة من الصابون السائل.

عدت إلى ديواني فاستبدلت ملابسي بالمنامة، وشعرت بالبرد فأخرجت الغطاء، وأخذت من حقيبتي كتابًا مُصوَّرًا عن «ميكل أنجلو»، ثم تمدَّدت على الفراش.

أحسست بجفافٍ في حلقي، وتُقت إلى زجاجة كوكا كولا فضغطت الزر المخصَّص لاستدعاء الفراش. انتظرت مدةً ولكن أحدًا لم يأتِ، فضغطت الغطاء حول أطرافي وأطفأت النور، ثم أشعلت سيجارةً جذبت أنفاسها بلذة في الظلام الذي رطَّبه جهاز التكييف.

كان الظلام شاملًا يقتحمه أحيانًا نور مصباح وحيد على الخط الحديدي، أو أنوار بلدة صغيرة نمر بها بسرعة. وتخيَّلت أني أمُر من جديد في الممر، وأن الزحام شديد. وعندما أصبحت خلف الشقراء ذات السروال الأسود لم أتمكَّن من الحركة، وانحنت هي إلى الأمام تتأمَّل شيئًا في الطريق، فانحنيت فوقها لأرى ما جذب اهتمامها.

أشعلت سيجارةً ثانيةً وأنا أحدِّق إلى النافذة، ومررت بيدي على ساقي، وفجأةً انغمر الديوان بالضوء، وألفيتني أُحدِّق إلى رَجُل يتأمَّلني من النافذة، فجذبت يدي بسرعة من فوق ساقي، وأدركت بعد لحظة أن قطارنا توقَّف بجوار قطار آخر.

تحرَّك الرجل مبتعدًا، وتبيَّنت أن الحركة من قطارنا الذي استأنف سيره، فالتففت بالغطاء جيدًا وتكوَّمت على نفسي.

* * *

أيقظتني أشعة الشمس في الصباح، وظَلِلت ممدِّدًا أتطلَّع إلى فضاء موحش تلوَّن بلون الرمال. غادرت الديوان إلى قاعة الطعام، وبحثت بعينَي عن فتاة الأمس الشقراء فلم أجدها، ولم أرَ أيضًا العجوز الأوروبي وامرأته والولدَين، ولا بد أن يكونوا قد غادروا القطار في الأقصر.

شربت الشاي وأنا أتطلَّع من النافذة، وبدأَت المرتفعات المجاورة تصطبغ باللون الأحمر بتأثير مناجم الحديد ولا شك، ومن ملامح المسافرين وحركاتهم أدركت أننا أشرفنا على أسوان.

ذهبت إلى ديواني وحملت حقيبتي إلى باب العربة. كان القطار قد توقَّف في المحطة وفُتحت أبوابه. وعند الباب شعرت لأول مرة منذ أربع عشرة ساعةً بحرارة الصيف والجو الخانق المترَّب.

ساعدني شيَّال في إنزال حقيبتي وحمْلها إلى خارج المحطة حيث اصطفَّ طابورٌ من سيارات التاكسي يرتدي سائقوها الجلاليب. أعطيته أجره وحملت الحقيبة وعبرت الميدان الذي تجمَّعت في أنحائه سيارات رُكَّاب كبيرة.

مشيت ببطء أنوء بحمل الحقيبة، وأجبرتني أشعة الشمس القوية على أن أُطبق من جفوني بعض الشيء.

انحرفت إلى اليسار في طريق ضُيِّق محاذٍ للنيل ومزدحم بحركة المرور. بحثت عن تليفون حتى وجدت واحدًا في دُكَّانٍ على الشارع تبيَّن أنه مكتب محامٍ. أعطاني المحامي رقم هيئة السد العالي، لكنهم قالوا لي إن لمعمل الأبحاث الجيولوجية رقمًا منفصلًا.

طلبت الرقم الجديد فجاءني صوت صبري، وعندما اكتشف أني أُكلِّمه من أسوان لم يصدِّق، وطلب مني أن أركب الأوتوبيس على الفور إلى منطقة تُدعى «صحارى» وأسأل عن مسكنه إلى جوار الجامع.

تركت حقيبتي في مكتب المحامي ومضيت إلى ميدان المحطة. أرشدني الناظر إلى سيارة «صحارى» التي تحرَّكت بعد نصف ساعة. سرنا بمحاذاة النيل الذي برزت في منتصفه صخور سوداء ضخمة. وبعد قليل عبرنا خزَّان أسوان القديم. بعدها امتدَّت الصحراء أمامنا تعترضها بين الحين والآخر سيارات مُثقلة بأحمالٍ من الصخور والرمال.

أشرفنا فجأةً على مجموعة من المجمَّعات السكنية الحديثة المتوازية، تشقُّها شوارع فسيحة مرصوفة. ووقفَت السيارة فغادرها الرُّكَّاب، وتبعتُهم عندما أبصرت الجامع.

بحثت عن عنوان المنزل الذي وصفه لي صبري فوجدته في آخِر صفٍّ من المجمَّعات. وفتح لي الباب نوبي قصير القامة عريضها، باسِم الوجه، تنحَّى عن الباب بحركة عسكرية قائلًا: تفضَّل.

ولجت صالةً صغيرةً بها مائدة معدِنية وعدة مقاعد تفتح عليها حجرتان إحداهما مغلقة استقرَّ جهاز تكييفٍ في حائطها فوق الباب. أمَّا الثانية فكانت مفتوحةً وقد بدا مكانُ جهاز التكييف فارغًا احتلَّه لوحٌ من الكرتون.

قال لي النوبي إنه يُدعى «البرديسي»، وإن «الباشمهندس» يريد مني الذهاب إلى النادي الروسي ومقابلة شخص يُدعى سليم.

دلفت إلى الحجرة المفتوحة ووقفت أتأمَّل وجهي في المرآة. وناديت على البرديسي قائلًا إني أُريد أن أحلق ذقني. ثم تحوَّلت أتأمَّل الحجرة، ورأيت أعدادًا من مجلة «الكواكب» مصفوفةً بعناية على طاولةٍ إلى جوار الفِراش. وفوق الفراش استقرَّت إحداها مفتوحةً على صورة لسعاد حسني كشفت عن جانب كبير من ثديَيها.

أحضر لي البرديسي ماكينة حلاقة وموسى وأنبوبة معجون. وضعت المعجون على وجهي فأحسست بلسعة غريبة. تأمَّلت الأنبوبة فاكتشفت أنها تحتوي على معجون أسنان، وناديت على البرديسي فأحضر لي واحدةً أخرى ألفيتها للأسنان أيضًا.

ذهبت إلى الحمام ودعكت الفرشاة في صابونة الحوض وحلقت، ثم خلعت ملابسي ووقفت تحت الدش، واستحممت بماء يقرب من درجة الغليان، ثم وقفت حائرًا لا أدري كيف أُجفِّف جسمي. وأخيرًا أخرجت منديلًا من ملابسي مسحت به جسمي. وبقيت برهةً وسط الحمام وما لبث جسدي أن جفَّ تمامًا. فارتديت ملابسي وخرجت إلى الصالة. شربت كوب الشاي الذي أعَده لي البرديسي، ثم غادرت المنزل.

بحثت عن النادي الروسي كما وصفه لي البرديسي، فألفيته مبنًى أنيقًا أُقيمَ في مدخله كشك امتلأ بالكتب والمجلات الروسية. كان المطعم في الجزء الخلفي من المبنى. وكان واسعًا نظيفًا امتلأ بالآكلين وجُلهم من المصريين. وتبيَّن أن سليم هو مدير المطعم، وقال لي إن صبري حجز لي طعام الغداء.

جلست إلى مائدة، وسرعان ما جاءني الطعام، وكان يتألَّف من ربع دجاجة بالخضار والأرز، تبعتها شريحة من البطيخ المثلَّج.

أتيت على محتويات المائدة وغادرت المطعم إلى مسكن صبري. فتح لي البرديسي بحركته العسكرية، وألفيت صبري في الصالة يتناول الطعام مع شخص آخر قدَّمه لي على أنه مهندس كبير وزميله في المسكن.

جلست في حجرة صبري أنتظره حتى جاء بجسمه المترهِّل وشعره الذي امتلأ بالبياض.

قال: لم أتوقَّع أبدًا أن تفعلها وتأتي.

قلت: ظننتَ أني أمزح.

قال وهو يجلس بجانبي على الفراش: لكن أين ستقيم؟

أشعلت سيجارةً وأجبت: لم أُقرِّر بعد. أنا في انتظار نصيحتك.

قال إنه لا يستطيع أن يأخذني إلى مسكنه لأن لزميله طباعًا صعبةً، ممَّا جعله يدعوني إلى المطعم، كما أنه من الممنوع استضافة أحدٌ في مساكن الهيئة.

قلت إني سأجد طريقةً ما.

مال عليَّ وهمس: أكل شيء على ما يرام؟

قلت: أجل. لماذا؟

قال: لا شيء. فقط هنا مكان حساس، وأنا الآن في الخمسين ولا أريد متاعب. لست أدري ما تريده بالضبط.

قلت: لا أكثر من الفرجة.

قال: وماذا تنوي الآن؟

قلت: معي بعض النقود وعنوان شخص آخر ربما تمكَّنت من الإقامة معه.

قال: وإن لم تتمكَّن؟

قلت: بحثت عن فندق رخيص.

قال: إن أسعار الفنادق الآن رخيصة؛ فلا أحد يَفِد إلى أسوان في أغسطس.

وأخرج علبة سجائره وقدَّم لي واحدة، فاعتذرت بأني لا أشرب السجائر ذات الفلتر.

شعرت بحرارة الغرفة وجوِّها الخانق. وقال صبري إنه رفع جهاز التكييف لأنه لا يحتمل برودته.

قلت: آن لك أن تتزوَّج يا صبري. ماذا تفعل؟

تنهَّد: كما يفعل الجميع.

وأشار إلى صورة سعاد حسني.

– والروسيات؟

– هذا آخر ما يجب أن تفكِّر فيه وإلا وجدت نفسك في القاهرة ووُضعت هي على الطائرة الذاهبة إلى موسكو.

أحضر البرديسي أكواب الشاي. ورويت لصبري قصة المعجون فضحك قائلًا إنه بالرغم من ذلك يتميَّز بالأمانة الشديدة ككل النوبيين. وروى لي كيف عمل مرةً في منزلِ كبير الخبراء السوفيات، وعندما كسر هذا لوحًا من الزجاج في المنزل ذهب البرديسي إلى الهيئة وقدَّم بلاغًا ضده.

استفسرت منه عن أسعار الطعام في النادي الروسي، فقال إن سعر الوجبة الممتازة لا يتجاوز ثلاثة قروش. وقال إن المطعم مُخصَّص للمهندسين فقط، ولكنه يستطيع أن يدبِّر لي الأمر بحيث أتناول فيه بعض وجباتي، أمَّا في أسوان نفسها فليس أمامي غير نادي التجديف.

فرغنا من الشاي فعرض عليَّ أن أصحبه إلى مكتبه. واستقبلنا الهواء قويًّا ولطيفًا في ظلِّ المبنى، لكن الحرارة ما لبثت أن حاصرتنا عندما تحوَّلنا إلى اليسار وعبرنا الطريق.

سألني ونحن نقف أمام شجرةٍ في انتظار السيارة التي تُقلُّه عادة: كيف حال الناس في القاهرة؟

أجبت: كما هي.

ثم ضحكت وأردفت أني ذهبت أول أمس لزيارة الرحماني في منزله. وجدته بمفرده وأمامه طبق به سمكة، وعندما أخبرته بسفري قال إن الأمور ستتحسَّن عند عودتي.

– وبماذا أجبته؟

قلت إني لا أعتقد.

– وحسنين؟

– لا يجد اللقمة؟

– وسامي؟

– يكتب في الصحف.

– لا أقرأ مقالاته.

قلت: ولا أنا.

لمحت عددًا من النوبيين بالجلاليب والعمائم بينهم صعيدي في «أفرول» الميكانيكيين الأزرق أسفل الشجرة التالية حيث محطة السيارات. كان أمامهم أوتوبيس أنيق فارغ. قال

صبري إنه مُخصَّص للروس، وإنهم في البداية كانوا يركبون مع المصريين، ثم طلبوا أن تُخصَّص لهم سيارات مستقلة.

سألته عن السبب فقال: ألَا تعرف أبناء بلدنا؟ الواحد منهم يفقد السيطرة على نفسه إذا ما اصطدم باللحم الأبيض في الزحام.

راقبتُ سيدةً روسيةً ممتلئةً تقترب من الأوتوبيس، ثم ترفع قدمها وتضعها على درَجه فينبعج ردفها. وأقبلَت علينا سيارة رُكَّاب مسرعة خلت بعض نوافذها من الزجاج. تمهَّلَت أمامنا فجرى نحوها المنتظرون الذين تضاعف عددهم، لكن السائق تجاوزهم مواصلًا السير، ثم توقَّف ودار بسيارته عائدًا إلى المحطة، فتدافعوا خلفه من جديد وتزاحموا على بابَي العربة.

توقَّفت أمامنا جيب روسية تُقِل عددًا من المصريين، فركبنا إلى جوار السائق، وانطلقنا في طريق مرصوف حتى بلغنا شاطئ النيل. غادرنا العربة أمام مبنًى قديمٍ أبيض اللون تُحيط به الخضرة من كل جانب. وقال صبري إن السائق سينزل أسوان بعد ساعة، ويمكن أن يأخذني معه. فاتفقت معه على أن ينتظرني.

قادني صبري إلى مكتبٍ يُطِل على النيل. ووقفت في النافذة أتأمَّل المياه التي بدت ساكنة. أشار إلى خطٍّ من التراب ناحية اليمين تنتهي عنده المياه، وقال: هذا هو السد.

كان التراب تتخلَّله قِطع من الصخور الرمادية والزرقاء المختلفة الأحجام، وكان يرتفع إلى مستوًى منبسط من الرمال تعمل فوقه عدة آلات متحرِّكة، وينتهي بخطٍّ من البراميل المتجاورة يبدأ خلفها مستوًى جديد مرتفع من الصخور.

لحظ صبري دهشتي فقال: السد ليس أكثر من قطاعات من الصخور والرمال المختلفة الأحجام المرتبة بنظام خاص. والناحية التي نراها الآن هي الجزء الخلفي الذي يواجه القاهرة.

لم تكن ثمة حركة أمامي فوق السد فيما عدا الآلات المعدودة التي كانت تتحرَّك ببطء شديد فوق الرمال.

قلت: كنتُ أتصوَّر أني سأجد السد يموج بآلاف العُمَّال والمكن.

قال: هذا كان في المرحلة الأولى، أمَّا الآن فالعمل كله مُركَّز في قلب السد.

تحوَّلنا عن النافذة وبدأنا جولةً في أنحاء المعمل. ورأيت جهاز الجس الصوتي الذي يقيس أعماق النيل بالموجات الصوتية. ثم وقفنا أمام رفٍّ من الخشب صُفَّت فوقه قِطَع من الصخور المختلفة الألوان تُمثِّل عيِّنات من صخور المنطقة ومعادنها.

سألتُه عن أنواع الصخور فقال: إنها جميعًا من الجرانيت الذي يتكوَّن دائمًا من عِدَة معادن مختلفة الألوان ويتأثَّر لونه باختلاف نِسبها. وقادني إلى ميكرسكوب على مائدة مجاورة وقال وهو يضع شريحةً رمادية اللون من الصخر أسفله: يمكنك أن ترى بنفسك.

انحنيت على المنظار فرأيت عددًا لا يُحصى من المساحات الدقيقة المتداخلة المتباينة اللون. كان بعضها أسود اللون وبعضها الآخر ورديًّا، وكان لأغلبها شكل هندسي مُحدَّد، وبدت شريحة الصخر أشبه بلوحة تجريدية.

انتقلنا إلى عددٍ من الصناديق الصغيرة صُفَّت بجوار الحائط. كانت تضم أحجامًا مختلفةً من الرمال تبدأ من الزلط والحصى، وتتدرَّج منتهيةً بالتراب. وقال صبري إن قطاعات كاملةً من الرمال الخشنة تستخدم في بناء السد، وتُستخدَم الرمال الناعمة في تلبيس الصخور، أمَّا التراب أو الطَّمْي فيُصنع منه قلبُ السد الذي يُطلق عليه اسم النواة الصماء.

قلت ونحن نعود إلى مكتبه: يبدو أنك وجدت أخيرًا عملًا مهمًّا.

قال: أنت تمزح لكن هذه هي الحقيقة؛ فأعمال الحفر والتفجير تجري في غابة من المكوِّنات المتباينة، وأي خطأ في التكوين قد يُؤدِّي إلى كارثة.

وضرب مثلًا بمستشفى شرق أسوان الذي أُقيم خطأً فوق نوع خطير من الطين يمتص الماء بشراهة وينتفخ حجمه. ولم يلبث المبنى أن تشقَّق وانهار بعد أشهر قليلة من بنائه.

حان موعدي مع السائق فودَّعت صبري واعدًا بالاتصال فيما بعد. نزلت إلى حيث كان السائق في انتظاري، فركبت إلى جواره. سألني وهو يُدير المحرِّك عمَّا إذا كنتُ قد رأيت السد، فأجبت بالنفي. قال إني سأراه الآن لأنه سيذهب إلى أسوان عن طريقه.

انطلقنا في طريق مرصوف بين صفَّين من التلال الترابية والسفوح الجبلية. وبدأ الطريق يضيق، ثم كشف عن انحناءة إلى اليسار. أدار السائق مِقود السيارة في اتجاهها، وظهر أمامنا بغتةً أحد جنود البوليس الحربي يُشير لنا بالوقوف.

صاح فينا عندما توقَّفت السيارة أن المرور ممنوع الآن بسبب إجراء تفجير في المنطقة، فتحوَّل السائق إلى جانب مبتعدًا عن الطريق الرئيسي الذي كانت شاحنات الصخور والرمال لا تكف عن عبوره، وأوقف محرِّك السيارة.

قدَّمتُ إليه سيجارةً وأشعلت واحدة، ومضيت أرقب عددًا من العُمَّال أحاطوا بحامل فوق عجلات تعلوها بَكَرة. كانت هناك ماسورة عمودية تتدلَّى من البَكَرة وتنتهي بعمود

يعمل في حركة متتالية صعودًا وهبوطًا وهو يتقدَّم إلى أسفل ينطلق منه صوت أشبه بالحشرجة. وما لبثَت أن سرَت في الآلة كلِّها عِدة اهتزازات سريعة، ثم ارتعش العمود وتوقَّف عن الحركة تمامًا، وظهر شيء من البلل عند نقطة التقاء العمود بالماسورة.

سألت السائق عن الآلة، فقال إنها من آلات التخريم التي تصنع خُرومًا عميقةً في الصخور توضع فيها أصابع الديناميت.

أخرج العُمَّال العمود، ورأيته ينتهي بقضيب كبير مُدبَّب الطرف، واستبدلوا العمود بآخر أكثر سمكًا تنتهي فُوَّهته السفلى بِكُرة، وأدَلُّوا العمود الجديد في الحفرة. وما لبثت الآلة أن استأنفت العمل، ثم توقَّفت. وارتفع العمود من باطن الأرض، وما إن وصل إلى السطح حتى ابتعد سريعًا عن الحفرة والمياه المشبَّعة بالطين تسيل من الكرة المثبَّتة في نهايته.

لحظت بين العُمَّال وجهًا أجنبيًّا أدركت أنه لا بد وأن يكون روسيًّا. كان ضخم الجثة مثل الصورة المعهودة في السينما، ويبدو أنه كان يرأس المصريين. ورأيت هؤلاء يستعدون للانصراف. وسمعت أحدهم يطلب منهم البقاء، فردَّ الآخرون بأن موعد ورديتهم قد انتهى. وانصرف الجميع فيما عدا الروسي الذي واصل العمل بمفرده.

ألقى السائق بعقب سيجارته من النافذة وأدار المحرِّك قائلًا إنه لا يطيق الانتظار أكثر من ذلك، وسيذهب من الطريق الآخر عبر الخزَّان القديم. وتراجع بالسيارة مستديرًا بمؤخِّرتها ناحية اليمين حتى أصبحنا على الطريق الرئيسي، فانطلقنا من حيث جئنا.

سألت السائق عمَّا إذا كان يُقيم في الموقع، فأجاب بالإيجاب.

قلت: ومستريح هناك؟

هزَّ كتفه: أهو أحسن من حتت تانية كتير، بس لو ما كنش الحر ... تصوَّر يا بيه بنرش المراتب بالمية عشان نرطب الجو.

سألته كم يدفع إيجارًا لمسكنه فقال إنهم يقيمون في عنابر مجانية.

وصلْنا الخزَّان فعبرناه إلى الضفة الشرقية، وبعد قليلٍ أصبحنا في أسوان. كانت المدينة ما زالت تستمتع بقيلولة الظهر رغم أن الساعة أشرفت على السادسة. ولحظت لأول مرة الفنادق الفخمة الجديدة في كل مكان، وكانت كلها مغلقةً بسبب الصيف.

انطلقنا في الشارع الذي يمتد موازيًا للنيل حتى ظهر صفٌّ من المباني الحديثة تفصل بينه وبين النهر. وأنزلني السائق في ميدان المحطة، فوقفت أتأمَّل الميدان الواسع ومدخل المحطة الهادئ الذي تجمَّعت أمامه سيارات الأجرة وعربات الحنطور. وتقدَّمت من كشك

صغير فاشتريت علبة سجائر، ثم اتجهت إلى مقهًى بجوار المحطة فجلست خارجه وطلبت من الجرسون فنجانًا من القهوة.

أشعلت سيجارةً وبدأت أرتشف قهوتي عندما التقَت عيناي بعينَي رجل طويل القامة يجلس على مقربة. كان يرتدي قميصًا داكن اللون وبنطلونًا رماديًّا. وخُيِّل إلي أنه يحدِّق إليَّ بدِقة. تطلَّعت إليه بعد برهة فالتقت عينانا مرةً أخرى.

تناولت رشفةً من قهوتي وأنا أتطلَّع إلى السماء، ولمحته من ركن عيني يُغادر مقعده ويقترب من مكاني. اهتزَّ فنجان القهوة في يدي، وطارت منه نقطة استقرَّت على قميصي، ووضعت الفنجان على المائدة.

أصبح الرجل بجانبي وتجاوزني وواصل السير على الإفريز. جذبت نفسًا عميقًا من سيجارتي، ثم أنهيت قهوتي ودفعت حسابي، ثم سرت على مهل في اتجاه شارع النيل.

لمحت ممرًّا وسط صفٍّ من المباني الحديثة فاتجهت إليه. توقَّفت في مدخله لحظةً ريثما تطلَّعت خلفي، لكني لم أرَ أثرًا لرفيق المقهى.

اجتزت الممر إلى الشارع المطل على النيل، وجلست على مقعد في مواجهة النهر.

كانت الشمس قد غربت لكن الضوء كان ما يزال منتشرًا. وتطلَّعت إلى فندق حديث يجري بناؤه فوق جزيرة وسط النهر، ظهرت إلى جواره مجموعة من الصخور السوداء الضخمة تتخلَّلها فجوات واسعة.

اقترب مني شاب وفتاة أجنبيان حافيا القدمَين. تهالكا بجواري، وجلسا بصمت يتطلَّعان إلى النهر.

نهضت واقفًا وعُدت إلى الميدان، وفي هذه المرة التزمت الجانب الآخر البعيد عن المقهى حتى بلغت كشك السيارات. سألت الناظر عن مكان بيت الشباب، وإذا به في نهاية شارع صغير إلى جوار المحطة مباشرة.

ألفيت البيت منزلًا صغيرًا. قرعت جرس الباب عدة مرات قبل أن يفتح لي صبيٌّ صغير. ودون أن يوجِّه إليَّ أية كلمة قادني إلى صالة خافتة الضوء جلس بها رجل ذو عُوينات أمام مائدة.

قدَّمت للرجل سيجارةً وقلت إني أُريد الاشتراك. فطلب مني أن أدفع جنيهًا. قلت: والمبيت؟

قال: عشرة قروش في الليلة، على ألَّا تزيد على ثلاث ليال.

قلت: ثلاث فقط؟ هل يمكن أن أبيت الليلة؟

مال إلى الأمام محدِّقًا إليَّ: هذا ليس فندقًا.

قلت: أعرف، وأنا دائمًا كنتُ أُريد أن أشترك، لكن الظروف لم تسنح لي.

سألني عن عملي فقلت إني أشتغل بالصحافة.

قال: لا يمكن أن تبيت قبل أن أُعد لك بطاقة الاشتراك، وهذا يستغرق وقتًا.

قلت إني أُريد أن أبيت الليلة.

سألني: هل معك صورة؟

قلت: كلا. بوسعي أن أحصل عليها غدًا.

هزَّ رأسه وتأمَّلني برهة، ثم قال: بيوت الشباب لها رسالة وليست فندقًا.

تجاوزته ببصري إلى باب بدت منه أَسِرة خالية متجاورة.

قلت: أعرف وأنا أطلب منك خدمة.

قال: أعطِني قيمة الاشتراك الآن واترك لي بطاقتك ويمكنك أن تبيت.

وقام إلى خزانة خشبية فأحضَر منها مجموعةً من النشرات وبدأ يحدِّثني عن رسالة بيوت الشباب. وأخرجت جنيهًا وبطاقتي وأعطيتهما له.

تأمَّل صورتي بدِقة وقارن بينها وبين وجهي، ثم قرأ البيانات المدوَّنة في البطاقة. وتوقَّف عند خانة المهنة الخالية: أنت قلت إنك تعمل؟

قلت: صحفي. لم أكن أعمل عند إخراج هذه البطاقة.

سألني عن المجلة التي أعمل بها فذكرت له اسم واحدة، فهزَّ رأسه ببطء وهو يتأمَّلني من جديد بنظرة فاحصة.

نهضت واقفًا وأنا أقول: اتفقنا إذن. سأذهب لإحضار حقيبتي.

– أين هي؟

قلت: تركتها في دكان.

سألني عن السبب فقلت إنها كبيرة الحجم، ومددت إليه يدي مصافحًا وأنا أطلب منه بطاقتي.

قال: اتركها معي، ألست عائدًا؟ ونظر إليَّ نظرةً غريبة.

قلت: أجل. وانطلقت إلى الخارج.

كان الظلام قد حلَّ أخيرًا. سرت بضع خطوات، ثم توقَّفت واستدرت عائدًا، ثم توقَّفت مرةً أخرى، وبعد لحظة تقدَّمت من باب المنزل وطرقته ففتح لي بنفسه.

قلت: لقد غيَّرت رأيي، سأبيت في مكان آخر عند أصدقاء، وسأشترك فيما بعد.

قال: ولماذا لم تذهب إلى أصدقائك منذ البداية؟ ما الذي جعلك تُغيِّر رأيك؟

قلت: لم أكن أُريد أن أُثقل عليهم.

أعطاني الجنيه والبطاقة وهو يضحك، ثم أغلق الباب. وقطعت الطريق المظلم بخطوات سريعة وأنا أتطلَّع خلفي، وعندما بلغت الميدان اتجهت إلى الطريق الذي قدمت منه متحاشيًا المقهى. كان حلقي جافًّا والعرق مُتجمِّدًا على وجهي. وشعرت برغبة جارفة في حمام بارد وكوب من الشاي.

بحثت عن مكتب المحامي الذي تركت به حقيبتي فأخذتها، وسألته عن فندق رخيص فدلَّني على واحد يحمل اسم «ماجستيك».

تركت شارع النيل وانحرفت في شارع جانبي إلى اليسار، وتوقَّفت ريثما نقلت الحقيبة إلى يدي الأخرى، ثم استأنفت السير، وبعد خطوات ألفيت نفسي في سوق مزدحم.

تجاوزت سينما متواضعةً من دور الدرجة الثالثة. وعثرت على الفندق الذي وصفه لي المحامي. قال لي صاحبه إن السرير في الليلة بثلاثين قرشًا. وضعت حقيبتي على الأرض وقلت إني لن أدفع سوى عشرين. واتفقنا في النهاية على خمسة وعشرين.

نادى صاحب الفندق شخصًا يُدعى محمودًا، فأقبل علينا شاب أسمر يرتدي جلبابًا حمل حقيبتي. تبعته على درج متآكل عبر ثلاثة طوابق شبه خالية. وولجنا شقةً في الطابق الرابع كان بابها مفتوحًا على مصراعَيه.

عبرنا صالةً بها مائدة وكنبة إلى حجرة مفتوحة تضم سريرَين ومائدةً معدِنيةً ودولابًا صغيرًا بمرآة. كانت أغطية الفِراش قذرة، فطلبت من محمود تغييرها. وفتحت حقيبتي وأخرجت منها منامةً وملابس داخليةً نظيفةً ومنشفة، ثم ذهبت إلى الحمام. وعندما عُدت إلى الحجرة وجدت محمودًا يُغيِّر الملاءات، فطلبت منه أن يحضر لي شايًا.

جلست على حافة الفراش. كان جو الحجرة خانقًا، واكتشفت أن الدولاب وُضع في مدخل شرفة صغيرة، فقمت إليها وفتحت بابها بصعوبة.

جاء محمود بالشاي فارتشفته على مهل، وأشعلت سيجارة، ثم أطفأت النور واستلقيت على الفراش.

* * *

نهضت في الصباح ينتابني شعور قديم بعدم الرغبة في الاستيقاظ. اغتسلت وارتديت قميصًا وبنطلونًا، وانتعلت صندلًا، ثم وضعت قبعةً من القماش على رأسي، وغادرت الفندق حاملًا كتاب «ميكل أنجلو» في يدي.

سِرت في حذر بين أكوام التراب والقاذورات حتى بلغت شارع النيل. ابتعت الصحف واخترت مقهًى ظهر به ركن للساندوتشات فجلست في مدخله.

أحضر لي جرسون غاضب ساندوتشًا رديئًا من الفول وكوبًا من الشاي لا طعم له. أشعلت سيجارةً وطلبت فنجانًا من القهوة، وأخذت نفسًا عميقًا من سيجارتي أحسست بعده بشيء من الدُّوَار.

ناديت على الجرسون ليأخذ حسابه. أعطيته عشرة قروش فردَّ لي اثنَين. سألته عن السبب فقال إن ثمن القهوة ثلاثة قروش. أعطيته قرشًا هبةً فاحتفظ به في يده وهو يتطلَّع إليه في استهانة، ورفع بصره إليَّ وقد ازداد وجهه غضبًا. أعطيته قرشًا ثانيًا وغادرت المقهى.

مشيت بتثاقل أبحث عن تليفون في مكان غير مكتب المحامي، وأرشدني أحد الباعة إلى مكتب التلغراف. طلبت من الموظَّف أن يَصِلني بشركة المقاولات التي تشترك في المشروع. وسألت عن نبيل فردَّ عليَّ شخص قال إنه صديقه، وإن نبيلًا غير موجود الآن. قلت له إني أحمل إليه رسالةً من أمه، وأعطيته عنوان فندقي ليتصل بي.

حاولت عبثًا عبور الطريق إلى الرصيف الآخر المطل على النيل؛ فلم تكن حركة المرور تهدأ لحظةً واحدة. وتتابعت أمامي السيارات المختلفة من عربات الرُّكَّاب الضخمة إلى الشاحنات وسيارات الركوب الخاصة، وكانت جميعًا تحمل لافتات القطاع العام أو السد العالي.

تمكَّنت أخيرًا من العبور. وتمهَّلت بجوار فتاة أوروبية في بلوجين أزرق وبلوفر أخضر بلا أكمام أبرز استدارة كتفَيها وضغط على صدرها البارز القوي. كانت قدماها متسختَين في صندل أبيض تبرز منه أظافر مطلية في عناية بلون قرمزي لامع. وكانت تضع نظارةً سوداء كبيرةً أحاطت بها بَشرة خوخية. وإلى جوارها وقف رجل بدين ملتحٍ يرتدي شورتًا ويحمل كاميرا. وكانا مستغرقَين في تأمُّل الشاطئ المقابل الذي لم يكن يبدو منه سوى الجبال والرمال.

لمحت الفتاة طابورًا من الجِمال يتحرَّك بعيدًا بين هَضْبتَين فصاحت بالفرنسية: فوالا رينيه، شامو!

والتفت رينيه على الفور وقد استعدَّ بالكاميرا ليصوِّر المعجزة المصرية.

بحثت عن النادي الذي حدَّثني عنه صبري فوجدته بناءً دائريًّا من طابقَين يمتد داخل النهر. اجتزت معبرًا خشبيًّا أوصلني إلى مدخل الطابق الأول، وصعدت درجًا حلزونيًّا إلى الطابق الثاني الذي انتشرت به الموائد وأحاطت به أبواب زجاجية عريضة تؤدِّي إلى شُرفة دائرية.

وجدت جانبًا من الظل في الشرفة تهب عليه نسمة خفيفة من الهواء. وأحضر لي صبي ممشوق القوام زجاجة بيرة. ملأت كوبًا ارتشفته وأنا أتأمَّل قاربًا يتقدَّم على مهل فوق المياه وقد انتصب شراعه ناصع البياض معترضًا الهواء بقوة.

أعدت ملء كوبي وأنا أُتابع الصبي يتحرَّك بين الموائد الخالية يُسوِّي أغطيتها ومقاعدها. لم يكن يتجاوز الخامسة عشرة، وبدا وجهه شاحب البياض، تحمل عيناه نظرةً مُتعَبةً سأمانة.

استرخيت في مقعدي الواطئ الذي صُنِع من القش، وأسندت قدمَي إلى الحاجز الحديدي المُطل على النيل، وفتحت الكتاب الذي تجعَّد غلافه بتأثير العرق الناتج عن ضغط يدي.

* * *

الرغبة الملتهبة في رسم الجسم العاري. ألَا يكون القديسون عراةً عندما يُصلبون؟ وقالوا إن أجسادنا قبيحة مليئة بالبثور والإفرازات. وقال إنه يجب أن يجسِّدها بالصورة التي خلق بها الرب آدم.

* * *

لم يكن الجانب المواجه لي يضم شيئًا آخر غير المرتفعات الصخرية التي غطَّتها الرمال، ولكني تبيَّنت ما يُشبه دَرجًا ضيقًا يصعد في الجبل إلى فُوَّهةٍ مظلمة قرب القمة.

أشعلت سيجارةً وطلبت من الصبي زجاجةً أخرى من البيرة. واحتسيت كوبي وأنا أصعد بعينَي المرة بعد الأخرى فوق درجات السلَّم الرملي حتى الفُوَّهة المظلمة.

* * *

شقَّ بسكينة صدر الجثة التي التفَّت من رأسها إلى قدمها في ملاءة الدفن؛ فلا غنى عن معرفة جسم الإنسان من الداخل. والكائنات البشرية يجب ألَّا تخترع، وكل قطعة جديدة من النحت يجب أن تتخطَّى التقاليد القائمة. وأدرك أن الأمر سيكلِّفه حياته كلها.

* * *

تناولت طعام الغداء في الشرفة. وتلاشى الظل فانتقلت إلى الداخل. وأحضر لي الصبي مزيدًا من المياه المثلَّجة وفنجانًا من القهوة، ثم دفعت حسابي وغادرت النادي.

كانت أرض الطريق ملتهبةً تسلَّلَت حرارتها إلى قدمَي من خلال الصندل. ومشيت بجوار الشاطئ. كان الرصيف الآخر يمتد بحذاء مسجد حديث ارتفعَت شجرة في فنائه. وتطلَّع نحوي رجل في قميص وبنطلون وقف مرتكنًا إلى جدار المسجد. لم يكن هناك من إنسان غيره على مرمى البصر، وبدت المدينة هاجعة.

مررت بمربع صغير من العشب الأخضر ارتمى فوقه فتًى وفتاة أجنبيان وقد بسطا سواعدها على مداها. وانحرفت في أحد الشوارع الجانبية المؤدية إلى البلدة القديمة. تطلَّعت خلفي لكني لم أرَ أحدًا.

مضيت من أمام عشرات المحلات الصغيرة التي تبيع كل شيء سويةً من الورق إلى الملاءات والطعمية. لمحت مبنى جمعية تعاونية بواجهته الخضراء التقليدية المؤلَّفة من عدة أبواب فولجته، ودفعت عند المدخل ثمن أربع قطع من الصابون، وأخذت إيصالًا قدَّمته إلى أحد الباعة، فأحضر كيسًا رصَّ فيه الصابون. ورأيته يُسقط قطعةً منه على الأرض في الفراغ الفاصل بينه وبين طاولة البيع. ظننتها زائدة. وعندما وصلت الفندق اكتشفت أني عُدت بثلاث قطع فقط.

أخذت حمَّامًا ثم تمدَّدت على الفراش بملابسي الداخلية وأشعلت سيجارة. كان جو الحُجرة خانقًا رغم أني فتحت النافذة. ورحت في النوم، ثم استيقظت على صوت محمود يناديني. فتحت عينَي لأجد شابًّا طويلًا أسمر ذا شارب كثٍّ يقف في وسط الحجرة.

اعتدلت جالسًا. وقال الشاب إن اسمه عويس، وإنه صديق نبيل.

غادرت الفراش وأنا أشعر بدوار، وطلبت منه أن يجلس، فجلس على حافة الفراش دون أن يرفع بصره عن ساعدي وساقَي العاريتَين.

جذبت منشفتي وملابسي وانطلقت إلى الحمَّام، والتقيت بمحمود في الصالة فطلبت منه أن يُحضر لنا شايًا.

قال لي عويس عندما عُدت إلى الحجرة إنه حضر ليأخذني إلى نبيل. سألته عن الوسيلة التي سنذهب بها، فأجاب سيرًا على الأقدام.

قلت: إلى السد سيرًا على الأقدام؟

قال: كلا. لن نذهب إلى السد. المنزل قريب من هنا.

قلت: كنت أظن نبيلًا يسكن في موقع العمل.

قال: كان في الأول، ثم انتقل إلى أسوان من شهرَين.

شربنا الشاي، ثم غادرنا الفندق، ومضينا في حواري ضيقة قذرة، ثم ولجنا منزلًا حديث البناء أُقيم على طراز البيوت القديمة.

طرقنا بابًا في الطابق الثاني والأخير، وفتح لنا شاب ممتلئ وسيم أبيض البشرة قدَّرت أنه نبيل.

قادنا نبيل إلى صالون أنيق تُزيِّنه ديكورات خشبية وشِلت شرقية. واستأذن منا عويس وغادر المسكن. وقال نبيل وهو يجلس أمامي إن عويس يسكن في المنزل المجاور، وهو الذي أقنعه بالانتقال إلى هنا لأن المسكن من أملاك عمه.

أعطيته خطاب أمه وقلت له إني التقيت بها عند جيران لها من أقاربي. سألني إن كنت التقيتُ بزوج أمه، فأجبت بالنفي.

فضَّ الخطاب واستغرق في قراءته، ورحت أتأمَّل رفًّا مزدحمًا بالكتب يحمل معظمها اسم عويس بحروف ذهبية. علَّق نبيل بعد أن فرغ من الخطاب بأن عويس سيأخذ الليسانس بعد سنتَين، أمَّا هو فقد فشل في الحصول على التوجيهية، لكنه يذاكر الآن من جديد.

عاد عويس يحمل مروحةً كهربائية، ولمحت ثلاث قطط صغيرة بيضاء تحاول اقتحام ثلاجة وُضعت بجوار الباب. فتح عويس الثلاجة وأخرج إناءً من اللبن للقطط وهو يقول: عذَّبتنا هذه القطط؛ فهي لا تتركنا عندما نُريد أن ننام.

قال نبيل: في السد لا يمكن أن ترى قطةً واحدة. وقد كدت أُجن من الوحشة في البداية، وهذا ما جعلني أترك عنابر الموظَّفين إلى أسوان.

قال عويس إن السد ساعد الكثيرين على بناء حياتهم، وإن ابن عمه كان طالبًا في الكلية الحربية وفُصِل فجاء للعمل هنا.

لم تصنع المروحة شيئًا للحرارة الشديدة، فاقترح نبيل أن نخرج إلى مكان على النيل، واخترقنا الأزقة إلى الشارع الرئيسي.

رأيت امرأةً زنجيةً اقتعدت الأرض أمام كَوم من الفول السوداني في إناء من الصاج الأبيض. كانت تُحيط رأسها بطرحة بيضاء ويتدلَّى من أنفها حلق نحاسي. أعطيتها قرشًا فملأت كوزًا صغيرًا من الصفيح أفرغته في كفي، فاشتريت منها بقرشَين آخرَين لنبيل وعويس.

صادفنا واحدةً مثلها بعد خطوات وأمامها إناء الصاج الأبيض المليء بالفول. وقال نبيل إنهن يهجرن نيجيريا سيرًا على الأقدام ووجهتهن الكعبة، ثم يتساقطن في الطريق عاجزات عن الاستمرار.

مررنا بمحطة أوتوبيس تجمَّع عندها عدد كبير من السيدات الروسيات.

قلت: حتى الآن لم أرَ مصريةً واحدة.

قال نبيل: المصريات لا يظهرن إلا في الشتاء عندما تأتي المدرسات.

قال عويس: هناك بنت أو بنتان في المحلات الجديدة.

تحوَّلنا إلى اليسار في طريق صاعد، وولجنا مكانًا مؤلَّفًا من عِدة مدرَّجات من الخضرة. جلسنا إلى مائدة على حافة أحد هذه المدرَّجات، وأصبحنا نُشرف على المدينة، وكانت الشمس قد اختفت مُخلِّفةً غيمةً حمراء فوق الجبل.

أحضر لنا الجرسون زجاجات البيرة، وولج المحلَّ شابان انتحيا ركنًا بعيدًا. شممت رائحة الحشيش النفاذة تتصاعد من سيجارة في يد أحدهما. وقال عويس إن الشاب يعمل ملاحظًا بالشركة. وقال نبيل إنه رأى الحشيش لأول مرة في حياته هنا.

قلت: والبنات؟

قال: لا توجد لأحد منا فرصة. هناك كلام عن زوجات بعض السائقين في حيٍّ اسمه السيل، لكنه مجرَّد كلام.

قال عويس بفخر: نبيل ليس ممن يعبثون.

قال نبيل: الفراغ الآن مشكلة لم تكن موجودةً في المرحلة الأولى من العمل.

قلت: لكنك تستطيع النزول إلى القاهرة عندما تريد.

ظهرت في عينَيه نظرة قاسية لم ألمحها من قبل. وقال: في أول السنة نزلت إلى القاهرة ووصلت المنزل في الثانية صباحًا، ولم يفتح لي أحد، وفيما بعد قالت لي ماما إنهم جميعًا كانوا قد تناولوا حبوبًا مُنوِّمة. ولم أنزل من يومها.

قلت: كانت والدتك تظن أني أستطيع الإقامة معك.

ردَّ عويس على الفور: هذا صعب الآن؛ فالشقة ضيقة، وكان الأمر يختلف لو كان ما زال في الموقع.

قال نبيل: هناك استراحات في الموقع مُخصَّصة للزوار والصحفيين، فلماذا لا تُجرِّبها؟

قلت إني سأحاول.

غادرنا المحل في منتصف الليل، وكان طريق النيل هادئًا خاليًا من المارة، وفوق شريط من الخضرة يمتد بطوله في الوسط استلقى عشراتٌ من عُمَّال التراحيل الذين يعملون في بناء الكورنيش.

مشَينا على حافة الإفريز عند أقدامهم. كانت أجسادهم متلاصقةً تعرَّى بعضها فتبدَّت أجزاؤها الحميمة للعيان.

افترقنا بالقرب من فندقي، وصعدت إلى حجرتي فأخذت حمَّامًا، ثم أخرجت قلمًا وورقةً وكتبت قليلًا. قرأت ما كتبته، ثم مزَّقت الورقة.

* * *

مشى بين الصخور يطرقها بمطرقته بحثًا عن الشقوق والعيوب والفقَّاعات. كانت القطع الصلبة تُعطي صوتًا كرنين الأجراس، أمَّا المعيبة فكان رجعها باردًا. وكانت هناك صخرة تعرَّضت للجو فترةً طويلة، فتكوَّن لها جلد سميك. وبالمطرقة والإزميل أزال الغلافَ ليصل إلى المادة النقية من تحته.

* * *

شعرت بحركة عند باب الحُجرة والتفَتُّ فرأيت محمودًا يراقبني. سألني إن كنت أحتاج إلى شيء فأجبت بالنفي. قمت فأغلقت الباب وأطفأت النور، واستلقيت على الفراش أدخِّن في الظلام.

استيقظت متأخِّرًا في الصباح، ورأيت وجهي في المرآة ممتلئًا بالبثور من أثر البعوض. وعندما جاءني محمود بالشاي سألته عن وسيلةٍ لغسل ملابسي، فقال إن هناك غسالةً تأتي إلى الفندق كل يوم. جمعت ملابسي القذرة على الفراش وانطلقت إلى الخارج.

سرت إلى ميدان المحطة فلم أجد أوتوبيسًا واحدًا، وقال لي الناظر في تجهُّم إنه لا توجد سيارات الآن إلى الموقع. سألته عن سيارات الشركة، فقال إنه مسئول فقط عن التابعة للهيئة، أمَّا الشركة فسياراتها تقف عند الجمعية.

عبرت الميدان إلى شارع السوق وسرت حتى الجمعية. وجدت أمامها عددًا من السيارات الكبيرة الخالية بلا سائقين، وعثرت على أحدهم في مقهًى قريب، فقال لي إنهم لا يتحرَّكون قبل ثلاث ساعات. واقترح عليَّ أن أذهب إلى كشك الشركة في الناحية الأخرى من الميدان.

عُدت أدراجي وأنا أمسح العرق عن وجهي. عبرت ميدان المحطة مرةً أخرى. سِرت مسافةً بحذاء النيل حتى بلغت كشك الشركة المطلي باللون الأصفر. كان به موظَّف شاب

يقرأ في أحد كتب الجامعة، وقال لي إنه لا توجد أية سيارات ذاهبة إلى الموقع الآن، ونصحني بالعودة إلى موقف الميدان.

درت عائدًا بتثاقل والعرق يسيل من مرفقَي، وألفيت الميدان خاليًا من السيارات تمامًا، ومرَّت بي عربة حنطور اضطجعت فتاتان أوروبيتان في مقعدها الخلفي. كان وجهاهما شديدَي الاحمرار، أو هكذا خُيِّل لي؛ فقد كان كل شيء أمامي مصطبغًا بهذا اللون.

شعرت بدُوَار وجفاف في حلقي، ولجأت إلى بقعة من الظل تكوَّنت أمام محل حديث لبيع الملابس. ولمحت من الزجاج إحدى البائعات فولجت المحل. وقفتُ أمام فتاة سمراء ذات عينَين واسعتَين. تأمَّلت عينَيها فابتسمَت لي بحذر.

قالت: أي خدمة؟

تطلَّعت حولي فوجدتها تبيع قمصانًا. اشتريت واحدًا وغادرت المحل، ثم ابتعت عدة ساندوتشات من الجبن والبسطرمة، وعُدت إلى الفندق بصداع حاد.

صعدت الدرج بجهد، وبدأت أخلع قميصي على باب الحجرة، ورأيت فوق المائدة ورقةً مثبَّتةً بكوب زجاجي سُطر عليها بخط رديء: «الغسالة لم حضرَة اليوم».

تمدَّدت على الفراش بالبنطلون وعينَي على الشرفة.

* * *

«ضربة الإزميل العشواء في الصخر تُحطِّم بلوراته. والبلورة الميتة تدمِّر النحت. وتعلم كيف ينحت قطعًا ضخمةً دون أن يسحق البلورات؛ فالصخر هو السيد وليس الرجل. القوة والمتانة في المادة الصمَّاء لا في الذراعَين والأدوات. وإذا ما ضرب بعنف وجهل؛ فقدت المادة الغنية الدافئة توهُّجها وماتت. وأمام التعنيف والهرولة تلتف الصخرة بنقاب حجري صلب. من الممكن تحطيمها بالعنف، ولكن يستحيل إرغامها على أن تعطي؛ فهي تستسلم للحنان وتزداد تحت تأثيره إشعاعًا ولمعانًا.»

* * *

استيقظت على لدغات البعوض والعرق والصداع. تناولت الساندوتشات وبدأت آكل، وخلعت ساعتي التي بلَّلها العرق ولم تكن قد تجاوزت الخامسة.

قمتُ إلى الشُّرفة متلمِّسًا شيئًا من الهواء، لكن رائحةً خانقةً عَفِنةً كانت تهب من خارجها. انحنيت فوق السياج فرأيت فضلات المجاري تُغطِّي فناء المنزل الخلفي.

خرجت إلى بهو السلم وناديت على محمود ليُحضر لي الشاي، ودخلت الحمَّام ووقفت عاريًا تحت الدش عشر دقائق، ثم عدت إلى الحجرة وتناولت مفكرتي. كان العرق قد بلَّلها وأتلف بعض صفحاتها، فجلست في الصالة وبدأت أنقل ما تلف في صفحة نظيفة.

أحضر لي صبي القهوة والشاي، وشعرت بدوار من أثر الحر، فقمت أتمشَّى بين الصالة والغرفة، ثم عُدت إلى مقعدي وواصلت الكتابة، وطفق العرق يسيل على ساعدي فيبلِّل الورق. وأخيرًا قمت فاستحممت مرةً ثانية. وعندما عدت إلى الصالة وجدت محمودًا قد سكب كوبًا من الماء على الصفحة الجديدة التي انتهيت من نسخها، فقرَّرت الخروج.

انطلقت إلى نادي التجديف. كان به بعض الشبَّان الذين تمدَّدوا في خمولٍ على مقاعد الشرفة. اخترت مقعدًا في مواجهة الشاطئ المقابل واضطجعت فوقه مُسنِدًا قدمَي إلى قضبان السياج.

أحضر لي الصبي زجاجة بيرة، وملأت كوبًا ارتشفته وأنا أتأمَّل الفجوة المظلمة في الجبل والدرجات الضيقة المؤدية إليها وسط الرمال.

* * *

كانت محطة الجيزة قد أُخليت لنا تمامًا، وهبط عليها سكونٌ شامل لا يقطعه غير صليل السلسلة الوحيدة التي تُقيِّدنا جميعًا، وفحيح القاطرة التي تنتظرنا. وفي مدخل البناء الذي تُضيئه مصابيح باهتة كانت بضع رءوس تتطلَّع بفضول ولا تجسر على الاقتراب، وعندما حانت اللحظة أخذوا يدفعوننا بعنف والقيود تحز في أيدينا، وصعدنا العربة المظلمة بلا مصابيح أو مقاعد، وظَلِلنا وقوفًا طول الليل، إذا أراد أحدنا أن يجلس جرَّ الآخرين معه ووقعوا على وجوههم، وإذا أراد أن يتبوَّل سحبهم معه إلى الركن حيث يحفون به عن يمين وعن يسار، والقطار يترك القاهرة وينطلق إلى الصعيد في خط مستقيم، ومصر تمتد من أدناها إلى أقصاها من فتحات صغيرة تعترضها القضبان كما في عربات الكلاب، والشريط الأخضر يضيق باستمرار وتزحف عليه الرمال، وفي الفجر يرتفع قرص الشمس الأحمر كبيرًا فوق خضرة نائمة، والمنظر يتكرَّر دائمًا؛ المباني الطينية والأنوار الخافتة، ثم المحطة بمبانٍ متقاربة حولها، ومقهًى يحتسي الناس فيه الشاي بهدوء ودَعة، يتابعون في غير مبالاة القطار المظلم الذي لا يتوقَّف، ثم السجن في كل مدينة. كتلة صفراء من الظلام بعيون متقاربة صغيرة، يقوم في نفس الاتجاه دائمًا، وتدخله الشمس من نفس المكان في كل مدينة، وتقع على جدران الزنازين في نفس الموعد، دون أن تُفلح في تبديد البرد الجاثم.

* * *

الفصل الثاني

بدلًا من أن ينطلق الأوتوبيس في الطريق المؤدِّي إلى الخزان اتجه يسارًا. مررنا بمجموعة من المجمعات الصفراء في حي ذي طابع شعبي، ثم انطلقنا في الصحراء بين صفَّين من أعمدة النور والتليفون.

ظهرت مجموعة من المساكن الحديثة في الأُفق، وأبطأ السائق متسائلًا عمَّا إذا كان أحدٌ يريد النزول في «كيما»، وعندما لم يردَّ أحد ضاعف من سرعة السيارة. ومررنا بين عشراتٍ من المجمَّعات الأنيقة البنية اللون التي ظهرت أجهزة التكييف في واجهاتها. كانت مصفوفةً جميعًا بصورة متوازية في زاوية مائلة بالنسبة للطريق.

تلاشت هذه العمارات فجأةً كما ظهرت، وامتدَّت الصحراء أمامنا إلى ما لا نهاية، وتتابعت هياكل الصلب العالية لأبراج الكهرباء على مسافات متقاربة.

أشرفنا بعد ربع ساعة على أفنية مُسوَّرة تضم صفوفًا من الشاحنات الجديدة. كان لونها الأخضر يلمع بقوة في الشمس. ودرنا برابية صغيرة عليها لافتة تُعلن عن موقع للرمال الخشنة. كانت الرمال مكوَّمةً خلف اللافتة في تلال عالية.

برزت تِلال من الصخور على جانبَي الطريق. كانت متباعدةً في البداية، وما لبثت أن تقاربت وازدادت ارتفاعًا. وأصبحنا نسير فيما يُشبه الممر، وبدا أننا نجتاز منطقةً صلبةً صمدت لأعمال الحفر والتفجير.

أبطأت سيارتنا عندما انتهى الممر؛ فقد اعترضتنا شاحنة فارغة كانت تمضي ببطء، وانتقلت سيارتنا إلى يسار الطريق لتتجاوزها، وعندما مررنا بجوارها رأيت جانبها مُحطَّمًا ومقدِّمتها منزوعة الغطاء.

استوقفَنا رجال البوليس الحربي، ثم تُركنا نمر. وبرزت أمامنا مئذنة جامع وتحتها جموع من البشر لا حصر لها. وأبصرت باللوحة الشهيرة التي كانت تحدِّد يومًا بيوم ما

تبقَّى على التاريخ المحدَّد لانتهاء المرحلة الأولى. كانت اللوحة الآن تحمل عبارات الشكر للعاملين والدعاء لهم بالتوفيق في المرحلة الثانية، وكانت الكتابة باللغتَين العربية والروسية بتوقيع كلٍّ من عبد الناصر وخروشوف.

* * *

الصحف تصل خلسةً وتُقرأ خلسة، والصورة تخاطب بُناة السد، بقي ٣٧٥ يومًا على تحويل مجرى النيل، بقي ٣٠٠، بقي ٢٦٠، وخلف السور الحجري والأسلاك الشائكة كانت الصحراء محيطةً من كل الجهات، لكن قامته الفارغة كانت تتراءى عندها كل صباح، مادًّا البصر إلى أقصاه، كأنما بوسعه أن يرى، وقال إنه يتمنَّى أن يشهد ذلك اليوم، لكنه لم يتمكَّن.

* * *

جاوزَت سيارتنا مبنًى حديثًا من طابق واحد أشبه بمستشفى، وانحنت في شارع جانبي، وتقدَّمت بين صفَّين من الأبنية الحجرية أُقيمت على قاعدة من الصخور مرتفعة عن الأرض بمقدار قامة إنسان. كانت جميعها تتألَّف من طابق واحد يُغطِّيه سقف خشبي، فبدت أشبه بالثكنات.

أوقف السائق السيارة وغادرها فتبعه الرُّكَّاب. وضعت قبعتي على رأسي وانطلقت خلفهم.

عُدت أدراجي إلى الطريق الرئيسي الذي تراكم التراب على جانبَيه. سرت على اليمين، ومررت بمبنًى صغير من طابق واحد سُويت الأرض أمامه ورُشت بالمياه وزُينت ببضع أُصص من الزهور. كانت هناك لافتة تعلو المبني تُعلن عن مكتب المباحث العامة.

ابتعدت بقدمَي إلى وسط الطريق لأتجنَّب التراب المتراكم على الجانبَين، لكن سيارةً مسرعةً خلفي أجبرتني على العودة وسط الأتربة.

توقَّفت عن المسير وتطلَّعت خلفي. كان هناك طابور من الشاحنات يقترب مني تتقدَّمه واحدة برتقالية اللون ترتفع مدخنتها من أمامها كالعَلم، وعندما مرَّت بي ألفيت إطاراتها تتجاوز قامتي ارتفاعًا.

انتقلت إلى الجانب الأيسر من الطريق لأسير في مواجهة السيارات، وسِرت حِذاء فناء مُسوَّر ازدحم بصناديق خشبية كبيرة تحمل حروفًا باللغة الروسية. انتهى الفناء ببائع

طعمية وباذنجان اقتعد الأرض، ووقف بجانبه بائع آخر أمام إناء يتصاعد منه البخار لمحت به حبات البليلة.

شعرت بجفاف شديد في حلقي، ولمحت منصةً صغيرةً من الخشب على بُعد خطوات بها ألواح من الصفيح، وحولها تجمَّع عدد من العُمَّال الذين يرتدون القمصان والسراويل وآخرون من الصعايدة في الجلاليب والعمائم. وكان بعضهم يشرب الشاي الأسود من أكواب صغيرة، والآخرون يشدُّون أنفاس الجوزة وقد اتكئوا على ماسورة سوداء من الصلب.

انضممت إليهم، وأعطاني البائع كوبًا من الشاي حملته إلى الماسورة فاستندت إلى جدارها. كان قُطر الماسورة يرتفع إلى مستوى خصري، تصدر عنه خشخشة خافتة متصلة. واضطُررت بعد لحظة إلى الابتعاد عنها بسبب سخونتها.

انتهيت من كوب الشاي فأعدته إلى البائع وأعطيته قرشًا. أشعلت سيجارةً وجذبت منها أنفاسًا بلا مذاق لأنها كانت شديدة الجفاف. وتتبَّعت الماسورة بعينَي فرأيتها تمتد بعيدًا وتختفي أحيانًا وسط أكوام من التراب والصخور، ثم تظهر من جديد في مكان آخر.

نفضت صندلي من التراب واستأنفت السير مقتفيًا أثر الماسورة، وتوقَّفت لحظةً حتى مرَّت سيارة جيب ذات طلاء أصفر، ثم اتجهت إلى سياج حديدي تجمَّع عنده عدد من الناس يوحي شكلهم بأنهم زُوَّار. كانت بينهم سائحة أجنبية وضعت على رأسها غطاءً مضحكًا وأسندت الكاميرا إلى عينَيها، ومال عليها شاب نوبي يشرح لها شيئًا وهو يشير إلى أسفل.

اقتربت من السياج فوجدته يُطِل على مساحة واسعة على عُمق بعيد، وظهر في قاعها عددٌ من الهياكل الحديدية على شكل دوائر ترتفع منها سلالم حلزونية ضيقة إلى مستوانا. وحول الهياكل وفوق السلام كانت حبات كبيرة من الرمال دائبة الحركة، وإلى يمين هذه المساحة امتدَّت قناة هادئة المياه، وإلى اليسار كان هناك مبنًى مرتفع في قِمته هيكل أحمر اللون على شكل جواد مستقيم الخطوط.

انتبهت إلى شخص أنيق ذي ملابس كاملة وقف إلى جواري مباشرة. كان يغطِّي حذاءه بغطاء من الجلد يصعد إلى ركبتَيه فيحميه من التراب، وإلى جواره وقف شاب في قميص وبنطلون يتحدَّث مشيرًا إلى المعالم المختلفة حولنا وهو يردِّد كل برهة: «شوف سيادتك.» وفهمت من حديثه أننا نُطل على محطة الكهرباء، وأن الدوائر الحديدية ستحتوي التوربينات. وكانت القناة هي المجرى الجديد للنيل، أمَّا المبنى المرتفع فهو بوابات الأنفاق التي تعترضه.

أمسكت حافة السياج بيدي وانحنيت إلى أسفل. كان هناك طريق مرصوف يتلوَّى صاعدًا من قاع المحطة ويختفي وراء مرتفع على يميني، وتحت قدمي مباشرةً انحدر حائط من الأسمنت المستوي السطح إلى قاع المحطة بصورة شبه عمودية.

شعرت بشخص يدنو مني، والتفتُّ لأجد صعيديًّا باللفافة التقليدية حول رأسه يرفع طرف جلبابه الأبيض ويدسه في سرواله، ثم مرق من تحت السياج واستدار يواجهني وقد أصبحَت قدماه على حافة الهوة. تلمَّس بقدمَيه ماسورةً عمودية تمتد مع الحائط إلى القاع، ثم انحنى وأمسك بها بكلتا يدَيه، وبدأ يهبط وهو يتطلَّع إليَّ باسمًا.

تابعتُه ببصري وهو يبتعد ويتضاءل، ولم أعد أتبيَّن ملامح وجهه وإن كنتُ ما زلت أرى جسمه حتى صار نقطةً بيضاء نائية. واستقرَّت النقطة أخيرًا في القاع، وسرعان ما تلاشت بين مئات النقط الأخرى.

ابتعدتُ عن السياج وسرت بجواره حتى أصبحَت هُوة المحطة على يميني وبوابات الأنفاق على يساري. وأشرفت فجأةً على حافة مُنخفض امتلأ بالصخور المبعثرة، وتجمَّعت فيه عدة شاحنات فارغة. كانت هناك حفَّارة ضخمة احتمى بظِلِّها عدد من العُمَّال، وكانت ذراعها الطويلة مدلاة، واستقرَّت كباشتها الكبيرة على الأرض، وفوق الكباشة وقف أحد العُمَّال يُعالج شيئًا في طرف الذراع الذي ينتهي ببَكرة.

كانت الناحية المواجهة لي من المنخفض مفتوحةً تتجه إليها مقدِّمات الشاحنات، ووراءها امتدَّت سلسلة من التِّلال الصخرية التي لم يمسَّها أحدٌ بعد. أمَّا جوانب المنخفض الأخرى فكانت تحمل آثار المرحلة الأولى بوضوح.

بحثت عن الماسورة التي كنت أقتفي أثرها فوجدتها قد اختفت من جديد. تلفَّتُّ حولي أتأمَّل الأرض بعناية، وسمعت صوتًا يقول: ماذا ضاع منك؟

التفَتُّ خلفي فرأيت سعيدًا يُصوِّب إليَّ كاميرا ويضغط عليها بأُصبعه، ثم يُنحِّيها عن وجهه ويدير الفيلم. تقدَّم مني فاتحًا ذراعَيه لنتعانق، وكنت قد مددت يدي إليه فتصافحنا.

هزَّ يدي بقوة وهو يَعجب للمصادفة التي جمعتنا بعد سنوات طوال، وسألني عمَّا جاء بي فقلت: ما الذي جاء بك أنت؟

دفع صدره إلى الوراء قائلًا: أنا أمري مفهوم. السد العالي يستقبل الفيضان. تقرير مُصوَّر من مواقع العمل. قضى سعيد عبد الرحمن أيامًا طويلةً شارك فيها العاملين حرارة الصيف ومتاعبه. فهمتَ الآن؟

تطلَّع إليَّ فجأةً وقد بدا كأنه تذكَّر شيئًا، ثم صوَّب أصبعه إلى صدري قائلًا: أنت كنت ...

أومأت برأسي.

هزَّ رأسه في وجوم، ثم استعاد مرحه وقال: أمَّا أنا فقد أصبحت أصغر مدير تحرير في الصحافة المصرية، وتزوَّجت وأنجبت ولدَين، وصار عندي سيارة نصر ١٣٠٠ سأدفع آخر أقساطها الشهر القادم.

دقَّق النظر إليَّ مرةً أخرى، ثم قال: ما زلتَ كما أنت لم تتغيَّر.

قلت: أمَّا أنت فقد امتلأ وجهك وترهَّلت. وشبكت ساعدي في ساعده مضيفًا: تعالَ نبحث عن الماسورة.

– أي ماسورة؟

– ماسورة ضخمة هنا ممتدة في كل مكان لا أدري هل هي عدة مواسير أم ماسورة واحدة.

قال: آه هذه غالبًا مواسير التجريف التي تنقُل الرمال إلى السد، وهي عِدة مواسير متصلة ببعضها، ولا تنقُل سوى الرمال الناعمة.

سرنا ونحن نتبادل الذكريات، ومررنا بجندي بوليس حربي ذكَّرنا بحرس الجامعة.

قلت: هل تذكر الليلة التي قضيناها في قسم البوليس؟

انفجر ضاحكًا وقال: وجعلنا ندق الجدران ونصيح إننا محتجزون بلا قانون، وإننا نريد النيابة. تصوَّر!

تذكَّرنا أستاذ القانون الدستوري الذي كان مُصرًّا على الاحتفاظ بطربوشه رغم أن الثورة ألغت الطرابيش. وكان يُحاضر بلهجةٍ فخمة، ضاغطًا على مخارج الألفاظ ونهايات الجمل كأنه يتكلَّم في البرلمان.

قال سعيد: لقد رأيته أخيرًا بلا طربوش ثملًا مُهدَّمًا.

بلغنا مساحةً واسعةً من الأرض تتدرَّج في مستوياتٍ على الجانبَين، وكان بعضُ هذه المستويات يتألَّف من أكوام الصخور، وبعضها الآخر من الرمال، وفوقها انتشرت عشرات الشاحنات والآلات المتحرِّكة الأخرى.

توقَّف سعيد بعد قليل ودقَّ الأرض بقدمه قائلًا: نحن الآن فوق جسم السد. طوال آلاف السنين كان النيل يجري هنا.

سرنا مسافةً على جسم السد، وكانت السيارات المُحمَّلة بالرمال والأتربة تأتي في اتجاهنا، ثم تنحرف إلى اليسار وتهبط إلى أحد المستويات الجانبية. وأعلن سعيد بعد فترة من الوقت أننا أصبحنا على الشاطئ الغربي للنيل، وأشار إلى مبنًى بعيد من عدة طوابق قائلًا إنه مقر الهيئة حيث يوجد الوزير المصري وكبير الخبراء السوفيات.

كنا نُشرف على طريقٍ مرصوف يمتَد أُفقيًّا إلى مبنى الهيئة، وأدركت أننا نقف في نفس المكان الذي بلغته بالسيارة منذ يومَين وعاقني التفجير عن اجتيازه.

تحوَّلنا يسارًا وانطلقنا وسط الأتربة والصخور، وتكاثرت الأخيرة فجعلت المسير صعبًا. لمحت الماسورة السوداء الضخمة فاعتليتها واقتدى بي سعيد، ومشينا فوقها يأتينا صوت ارتطام الرمال بجدرانها.

بدأت أشعر بدوار من شدة الشمس، وتوقَّفت أجفِّف عرقي، ومرَّ بنا روسي يرتدي خوذةً معدِنيةً ويتدلَّى من كتفه ترموس كبير الحجم.

قلت: يا سلام لو كان لدينا الآن كوبٌ من الشاي أو زجاجة كازوزة.

قال سعيد: كل شيء سيأتي في وقته، لا تتعجَّل. وألقى نظرةً على ساعته، ثم أضاف: هناك تفجير بعد نصف ساعة، وسألتقط بعض الصور. هل تأتي معي؟

قلت: لا بأس، ما دمت سأشرب شيئًا.

قفزنا على الأرض عندما أوشكت الماسورة على الاختفاء خلف كوم من الأتربة، ومررنا بمجموعة من العُمَّال انحنَوا بأجهزة اللحام أمام شبكة من الأسلاك المعدِنية، ثم اتجهنا صوب كشك خشبي يعلو مرتفعًا قريبًا.

سألني سعيد عن المدة التي أُزمع قضاءها في المنطقة.

أجبت: إلى أن تنتهي نقودي.

قال إنه لا يتكلَّف شيئًا لأنه يُقيم في استراحة تابعة للشركة، ولكنه سيعود القاهرة فورًا بعد أن يسجِّل استقبال السد لمياه الفيضان.

رأينا عَلَمًا أحمر صغيرًا يرتفع عن الأرض بشبر وقد ثُبِّت إليها بعمود تسنده ثلاثة قضبان مائلة، ودائرة من الأحجار الصغيرة. كان العَلَم يحمل رسمًا يتألَّف من جمجمة وعظمتَين متقاطعتَين، وكان ثمة أعلام مماثلة حولنا تمتد منها خراطيم زاهية الألوان.

بلغنا المستوى الذي يعلوه الكشك، وكان يقف خارجه شاب أسمر مدكوك البنية كشف قميصه المفتوح عن صدر كثيف الشعر. كان يتطلَّع إلى منخفض هائل في الناحية الأخرى بدت في قاعه شاحنات وحفارة وعدد من العُمَّال.

أدار الشاب بصره فرآنا، وتأمَّلنا في غير اهتمام حتى لمح الكاميرا المعلَّقة في كتف سعيد.

ابتدرَنا عندما دنونا منه: الأساتذة صحفيون؟

أومأ سعيد بالإيجاب، فقال إن اسمه فوزي وإنه مهندس تفجير. ورآني أتطلَّع إلى داخل الكشك فدعانا إلى الدخول.

بدا داخل الكشك الذي كان بمنأًى عن الشمس مُشبعًا بالرطوبة المنعشة. جلسنا على مقعدَين يواجهان المكتب الذي استوى الشاب خلفه، وصاح مناديًا على شخص يُدعى حسين وهو يسألنا عمَّا نُحب أن نشرب.

نظر سعيد إليَّ وابتسم، وقلت إني أُفضِّل شيئًا مثلَّجًا.

جاءتنا الليمونادة على الفور. وقال فوزي ونحن نحتسيها: الصحافة لا تهتم بنا أبدًا رغم أن عملية التفجير هي الأساس الذي قام عليه السد.

قال سعيد: ولهذا جئنا. وخلع كاميرته عن كتفه وأخرجها من علبتها، ثم جعل يعبث بعدستها. وتابع فوزي باهتمامٍ حركة أصابعه، ثم ألقى نظرةً على ساعته ووقف قائلًا: حان الوقت.

تبعناه إلى خارج الكشك، واعتمدنا على حاجز حديدي يُطِل على المنخفض. وهناك كان العُمَّال ينزعون أعمدة النور بسرعة، بينما الشاحنات تقوم بمناورات مُعقَّدة لتغادر المكان، وتبعتها الحفارة.

دوَّت صفارة إنذار فجأة، وبدأ المنخفض يخلو من الناس، وجرى البعض وقفز غيرهم في سيارات مسرعة. دوَّت صفارة جديدة، واعتمد سعيد على الحاجز بمرفقَيه، ورفع الكاميرا إلى عينَيه، والْتقط صورة الرجل الوحيد الذي ظلَّ مكان التفجير. كان يُلوِّح بيدَيه للآخرين، ثم قفز في سيارةٍ كبيرة مرَّت من أمامه دون أن تتوقَّف. ولحقت السيارة بعدد من الرجال الذين كانوا يجرون، فقفزوا إليها وتعلَّقوا بجانبَيها. وما لبث الموقع أن خلا تمامًا ولم يعُد به رجل واحد أو آلة واحدة، ثم دوَّت ثلاثة انفجارات صغيرة متعاقبة، وأخيرًا انفجر الجبل.

ارتجَّت الأرض من حولنا، وأمسكت بالحاجز في قوة. طارت بضع صخور في الهواء، وتصاعد الغبار في سرعة فحجب المكان كله، وعندما طاولَت ألسنته السماء شرع يزحف نحونا منتشرًا في كل اتجاه.

الْتقط سعيد عدة صور متعاقبةً للغبار وسفح الجبل المتلئ بالشقوق والبروزات من أثر التفجيرات السابقة. وتابع فوزي حركة الكاميرا في يده. وعندما اتجهت نحوه اعتدل في مكانه وتحرَّكت عيناه بسرعة وابتسم ابتسامةً عريضة. ولكن سعيدًا تجاوزه بالكاميرا والْتقط صورة مبنى الهيئة الذي كان يبدو صندوقًا صغيرًا على مبعدة. وتابع فوزي الكاميرا ببصره ويده تُسوِّي حافة قميصه، واتجه إلى الكشك يتبعه فوزي.

كانت سحابة الغبار التي أثارها التفجير قد بدأت تخف، وانقسمت أولًا إلى عدة مساحات متفرِّقة، ثم جعلت تتعدَّد وكثافتها تخف نتيجةً لذلك حتى أوشكت أن تتلاشى. وتجلَّى الموقع من جديد وقد انتشرت في أرجائه فتات الصخور المختلفة الأحجام.

لمحتُ الحفَّارة تتقدَّم عائدةً إلى موقعها في قاع المنخفض، وخلفها جاء طابور من الشاحنات الفارغة وسيارة أخرى تحمل عددًا من العاملين.

رأيت شِبه طريق على يميني يهبط إلى أسفل، فانحدرت فوقه مسافةً حتى انتهى بلسان مُدبَّب من الصخر. جلست فوق اللسان فأصبحت أُشرِف مباشرةً على موقع التفجير.

راقبت الجنزير الحديدي للحفارة وهو ينزلق على الأرض في صعوبة حتى توقَّفتُ أمام سفح المنخفض الذي تناثرت فوقه الصخور، وأحاط بها عدد من العُمَّال بدت أحجامهم ضئيلةً أسفل ذراعها، واختفى أحدهم داخل صندوقها، وما لبث هذا أن دار على محوره فوق الجنازير، ودارت معه الذراع الطويلة التي تنتهي بكباشة كبيرة الحجم.

صدر عن الحفارة صوتٌ أشبه بالزمجرة. وصرَّت تُروسها، ثم توقَّف صندوقها عن الحركة، واحتكَّت الكباشة بالأرض فارتدَّت إلى الوراء واهتزَّت الآلة كلها تبعًا لذلك.

تراجعت الكباشة إلى الخلف حتى أوشك قاعها أن يلتصق بالصندوق، بينما اتجهت حافة أسنانها إلى الأرض، وهجمت الكباشة لكنها أخطأت الهدف، فارتدَّت إلى الوراء لتعاود الهجوم، وفي هذه المرة أصابت كوم الصخور وصعدت فيه، واستقرَّت فيها بعض قطعٍ من الصخور، بينما تدحرجت على جانبَيها قطع أخرى كبيرة الحجم.

دار صندوق الحفارة فجأةً إلى اليسار دورةً سريعةً حملت الكباشة في الهواء حتى صارت تُطل على مؤخِّرة شاحنة. وتبدَّت في الصندوق فتحةٌ جلس خلفها السائق يحرِّك المقابض، وتقدَّمت الشاحنة بمؤخِّرتها في حَذَر حتى أصبحت في متناول الكباشة.

تحرَّكت الكباشة حركةً بسيطةً حتى أصبحت فوق الشاحنة مباشرة، وتوقَّفت لحظة في الهواء تتأرجح قليلًا، ثم انفرج فكُّها السفلي وسقطت الصخور مرتطمةً بقاع السيارة في ضجة، واهتزَّت الشاحنة الروسية الضخمة في عنف.

* * *

«رفع «أفاريوس» لوحًا من الصخر انتُزع من جانب الجبل. بيت «أوفيد» الذي أثار انفعال «ميكل أنجلو». معركة السنتور. الكائنات الأسطورية التي نصفها إنسان ونصفها جواد. لكنه لم يكن يعبأ بالأساطير. كان الواقع هو الذي يجتذبه. أقصى ما يمكن إدراكه من الواقع. وعندما شرع ينحت كان قد ترك موضوع المعركة الأصلية، وأصبح الصخر هو موضوعه. لقد عاش الإنسان ومات بالحجر. وتحوَّل عشرون رجلًا وامرأة ورجل وسنتور

إلى جسم واحد يُعبِّر عن الطبيعة البشرية المتعدِّدة الجوانب، حيوانية وإنسانية، أنثوية وذكرية، وكل جزء يُحاول أن يدمِّر الأجزاء الأخرى.»

* * *

سمعت صوت سعيد يناديني. التفَتُّ فرأيته يدنو مني بحذر فوق الصخور، وجلس بجواري فوق اللسان الصخري وبدأ يلتقط بعض الصور.

كانت الكباشة رائحةً غاديةً بين كوم الصخور والشاحنات المتتابعة. كلما تمَّ تحميل إحداها صدرت زمارة قوية عن الحفارة. دار صندوقها على أثره حول نفسه، وعادت الكباشة خفيفةً سريعةً إلى مكانها وسط الصخور، بينما تنطلق السيارة بتثاقل إلى خارج المنخفض، وتأخذ شاحنة أخرى مكانها على الفور. كانت الكباشة تنفصل أحيانًا عن الجبل دون أن تمتلئ جيدًا أو بعد أن تسقط منها حمولتها، فتعود من جديد بإصرار، وأحيانًا أخرى كانت تعجز عن تفريغ حمولتها فوق السيارة، فتعود إلى الجبل وتُسقطها هناك لتُحمِّل غيرها.

توقَّفت الكباشة فجأةً عن الحركة، وتدلَّى فكُّها يروح ويجيء في حركة متتابعة. ولمحت السائق يرفع زجاجةً إلى شفتَيه، وشرع عددٌ من العُمَّال يُكوِّمون الصخور بفئوسهم المعدِنية أمام الحفَّارة.

هبَّ سعيد واقفًا مقترحًا الذهاب، فقمت وراءه، وسألني ونحن نشق طريقنا بين الصخور: أين ستذهب الآن؟

قلت: سأعود إلى فندقي.

– وتأتي هنا كل يوم؟ هذا مريع.

قلت: وما العمل؟

فكَّر قليلًا، ثم قال: ربما أمكنني أن آخذك معي في الاستراحة.

قلت: أين؟

– هنا في الموقع. غرفتي واسعة بها ثلاثة أَسِرة. اسمع ... سأنزل معك الآن إلى أسوان، وبالليل نرتِّب كل شيء.

جعلنا نتلفَّت حولنا بحثًا عن وسيلة ركوب، وأقبلنا عند منحنًى على أوتوبيس كبير خالٍ من الرُّكَّاب. كان محرِّكه دائرًا وقد وقف السائق بجواره، وعندما أردنا الركوب منعنا قائلًا إن السيارة مُخصَّصة لمهندسي الشركة.

لمح سعيد بوكسًا رمادي اللون من طِراز فورد تُغطِّيه خيمة من القماش كما هو شأن سيارات الشرطة. كانت السيارة تهم بالمسير، فهتف بي وجرينا إليها، وعندما أردنا أن نقفز إلى مؤخِّرتها منعنا رُكَّابها وصاحوا بالسائق أن ينطلق، لكن الأمر التبس على السائق فأوقف المحرك، ودار بيننا وبينه جدل طويل انتهى بأن وافق على أن يأخذنا معه.

قفزنا فوق حافة السيارة ولم نجد مكانًا شاغرًا على المقعدَين الطويلَين المتقابلَين اللذَين احتلَّهما عدد من العُمَّال فاقتعدنا الأرض.

* * *

أمرونا بأن نقتعد القرفصاء ونحني رءوسنا حتى لا يرانا أحدٌ في الطرقات، وفي بهيم الليل انطلق موكب اللوريات إلى قلب القاهرة القديم، وهواء يناير القارس يضرب آذاننا. وبدأ الطريق يصعد إلى أعلى. وفي الظلام ظهرت مباني القلعة شامخةً تُشرف علينا كما تُشرف على المدينة كلها. وقال أحد ذوي التجربة إن في القلعة معتقلًا أنشأه الإنجليز ولم يُستخدَم من أيامها، ودخلنا واحدًا بعد الآخر من فتحة صغيرة في بوابة خشبية ضخمة، ولأن المكان من مخلَّفات الاستعمار كانت فيه أَسِرة مريحة، وأنبأ الهواء بأننا على ارتفاع كبير، وقال حسين إنهم أخذوه من حفل زواجه، فقال آخر إنه كان سيتزوَّج الأسبوع القادم. ورقدنا في صفَّين متقابلَين نتطلَّع إلى الجدران العالية والكُوَّات المسوَّرة في أعلاها، ولعلها كانت القاعة التي شهدت مذبحة المماليك، عندما أتوا بالملابس الرسمية لشرب القهوة، وعندما استعدُّوا للخروج ليسيروا في موكب ابن السلطان أُغلقت الأبواب، وذُبحوا جميعًا عن بكرة أبيهم، وفوق ممشًى يُشرف على ميدان المذبحة جلس محمد علي يُدخِّن النارجيلة، وقبلها كان يتبادل الزيارات العائلية مع زعيمهم شاهين بك.

* * *

بلغنا أسوان فغادرنا السيارة أمام فندق «جراند أوتيل»، وافترقنا على أن نلتقي بالليل، فولج سعيد الفندق بينما مضيت أنا إلى السوق.

اشتريت عدة ساندوتشات واتجهت إلى فندقي، ونادى علي صاحبُه وأنا أصعد قائلًا إن شخصًا سأل عني.

توقَّفت عن الصعود متسائلًا: مين؟

قال: ما رضي يقول اسمه.

قلت: طب مقالش عاوز إيه؟

– هو سأل إمتى جيت ونازل في أي أودة، وهل معاك حد.

سألت: طيب شكله إيه؟

قال: أفندي بقميص وبنطلون وله شنب تخين.

استأنفت الصعود حتى بلغت حجرتي. استحممت وأكلت الساندوتشات دون شهية حقيقية، ونمت على الفور.

استيقظت في السادسة واستحممت مرةً أخرى. ناديت على محمود فأحضر لي الشاي. جمعت ملابسي المتناثرة ورتَّبتها في حقيبتي، ثم ارتديت القميص والبنطلون ومشَّطت شعري، ثم وضعت المشط في الحقيبة، وأصبحت جاهزًا للانتقال إلى الاستراحة فيما لو نجحَت مساعي سعيد.

* * *

«قال له أساتذة القصر إن موضوعه الأول يجب أن يكون إغريقيًّا من أساطير اليونان، لكنه كان يعرف عن يقين أن موضوعه الأول لا يمكن أن يأتي من أثينا أو مصر أو روما أو حتى بلدته فلورنسا، وإنما من داخله هو. شيئًا ما يعرفه ويشعر به ويفهمه، واختار المادونا والطفل. في كل اللوحات التي رآها من قبلُ كانت العذراء تُبدي الدهشة التامة عندما أبلغها جبريل بنبأ الحمل، فهل يُعقل أنها لم تكُن تعرف، وأنها لم تكُن تملك حرية الخيار لترفض؟ وقرَّر أن ينحتها وهي تُرضع طفلها مدركةً المصير الذي ينتظرهما.»

* * *

أشرفت الساعة على الثامنة عندما بلغتُ فندق «جراند أوتيل». دفعت بابه الدوَّار، وتجمَّدت في إحدى الفجوات الفاصلة بين مصاريعه حتى قذف بي إلى الداخل، ورأيت سعيدًا على الفور مضطجعًا على مقعد في صدر البهو بالقرب من مروحة كهربائية مُثبتة على عمود.

قال وأنا أستقر على مقعد بجواره: جاءك الفرج يا عم. يمكنك أن تنقُل حاجياتك الآن إلى قصري. فراش وغسيل وثلاث وجبات يوميًّا دون مقابل.

أحضر لي الجرسون زجاجة بيرة، وقال سعيد إنه الْتقى في الظُّهر بوكيل الوزارة وحدَّثه عني، فقام هذا إلى التليفون واتصل بالشركة، ورحَّبت هذه باستضافتي لأنها تُريد تحسين العلاقات مع الهيئة، كما أنها تهتم بالدعاية لنفسها أكثر من بقية الشركات الأخرى المشتركة في المشروع.

سألته عن السبب فقال إنها تدخل معركة حياتها ليستمر إعفاؤها من التأميم بعد انتهاء السد؛ ولذلك تقوم ببناء فيلات فخمة لكبار رجال الحكومة بأسعار بخسة لا يتصوَّرها عقل.

قلت إن الانتقال إلى الاستراحة مشكلة لأن سيارات التاكسي تتقاضى أكثر من جنيهَين في هذه الرحلة.

قال: صبرك، سنجد حلًّا.

تأمَّلت الجدران التي وشت بقِدم المبنى، وكانت هناك بضع مراوح كهربائية تتدلَّى من السقف، وأخرى فوق أعمدة من الصلب في الأركان.

قال سعيد: كان بودي أن أنزل في فندق كتاراكت الذي كان ينزل فيه الملك، لكنه للأسف مغلق الآن.

وتطلَّع حوله، ثم أضاف: الجو اليوم هادئ فلا أثر لبنت.

لم يكن عدانا في البهو سوى عجوز أوروبي جلس في الركن، وكانت هناك قاعة مجاورة مضاءة بدت خالية، ومع ذلك كان صوت التليفزيون يصدر عنها. وخُيِّل إليَّ أنه يدور على الفراغ، لكني ما لبثت أن سمعت صوت تصفيق، وظهر مهندس التفجير على بابها، وجعل يُنادي بغضب على الجرسون طالبًا زجاجة بيرة.

لمحنا فتطلَّع برهةً دون أن يبدو عليه أنه عرَفنا، ثم حيَّانا، وهمس لي سعيد: أخشى أن يكون قد رأى الكاميرا.

اختفى فوزي في القاعة الداخلية، ثم ظهر من جديد حاملًا زجاجة بيرة في يد وكوبًا في الأخرى، واقترب مِنَّا سائلًا إن كان يستطيع الجلوس معنا. قرَّبت مقعدًا تهالك فيه وهو يضع الزجاجة على مائدة مجاورة، وأدركت من حركاته أنها ليست أول زجاجة يشربها الليلة.

أفرغ كوب البيرة في فمه وقال: لقد ضقتُ ببرامج المحطة السخيفة. أتعرفان أن شخصًا واحدًا هو الذي يعمل فيها؟ ينزل من بيته كل ليلة بالقبقاب ليُدير الأشرطة التي تأتيه من القاهرة.

وملأ كوبًا جديدًا: ولكن ماذا نفعل؟ ليس هناك من وسيلة أخرى لقضاء الوقت.

سمعنا دقَّات متلاحقةً فوق الدرج فتحوَّلنا نرقب فتاةً أوروبيةً تهبط في رشاقة وفستانها الواسع القصير يُحلِّق حولها في كل درجة فيكشف عن فخذَيها. جعلت تنقُل بصرها بين وجوهنا ودرجات السلَّم وهي تبتسم لنفسها حتى بلغت نهايته، وتهادت أمامنا تتبعها عيوننا حتى اختفت بين مصاريع الباب الخارجي.

قال سعيد وعيناه حائرتان بين مدخل الفندق والدرج المؤدِّي إلى الطريق العليا: أروع شيء هو اكتشاف نفق جديد.

انفجر فوزي ضاحكًا، ثم سألَنا إن كانت هذه أول زيارة نقوم بها للسد. قال سعيد: إنها الرابعة. وقلت إنها الأولى.

– لم تشهد المرحلة الأولى إذن؟

هززت رأسي نفيًا.

* * *

الحارس الملول في سترته الصفراء يقرع القضبان الحديدية بمفتاحه، وننطلق في طابور ينوء بحمل جرادل البول لتفريغها، ثم نعود بجرادل المياه لملئها، والتفتيش الدقيق بحثًا عن ورقة أو قلم أو جريدة، ثم يتتابع صوت المفتاح وهو يدور في أقفال الزنازين، يحبس في كل زنزانة جانبًا من ضجة العنبر حتى يسود الهدوء التام، ونجلس على الأرض مستندين بظهورنا إلى الجدران المثلجة نُتابع من قضبان الكُوَّة الصغيرة ضوء الغروب وهو يتلاشى بسرعة، والليل طويل طويل، لكنه مهرب من نهار مليء بالمفاجآت.

* * *

سمعت فوزي يقول: ليس ما يحدث الآن شيئًا. السد كان في المرحلة الأولى.

مسح آثارًا من رغوة البيرة البيضاء ظهرت على فمه وقال: كنا نخرج في الصباح دون أن نعرف إذا ما كُنَّا سنعود في نهاية اليوم؛ فكثيرًا ما كان الجبل ينهار فجأةً ويدفن تحته العشرات، أمَّا الآن فقد أَلِفنا الجبل ولم تعد هناك أخطار المرحلة الأولى.

ظهرت فتاة الدرج عند الباب ودلفت إلى البهو ثم توقَّفت أمام طاولة قريبة، وجعلت تُقلِّب ما عليها من مجلات مُصوَّرة، ثم اتجهَت إلى البار.

مال عليَّ فوزي وهو يهز أصبعه في وجهي: لا تظن أننا لم نكن سعداء في المرحلة الأولى. لم نكن نملك وقتًا للتفكير لا في عائلاتنا أو في المستقبل أو النساء. كان لدينا عمل واضح محدَّد هو هدم الصخور ثم نقلها وإلقاؤها في النهر حتى تعترض مجراه. وكان هناك هدف محدَّد هو سد النيل وفتح القناة الجديدة في آنٍ واحد. كان النهر يعج بالحركة والحماسة طول الوقت. الجميع يتسابقون لِلَّحاق بيوم ١٤ مايو ١٩٦٤، وجميعهم على استعدادٍ للتضحية بحياتهم ببساطة.

* * *

ساعات الظلام الطويلة نلوك فيها حكايات معادة، ومحاولة ترداد نشيد قديم تُثير الضحك؛ لأن كل شيء تغيَّر، وفي الماضي كانت الجدران تهتز من الإيقاع، ويعتلي نزلاء الطوابق الأخرى أبواب زنازينهم ليوجِّهوا تحية المساء إلى زهرة شباب الحركة الوطنية، أمَّا اليوم فبلادنا أصبحت حُرة، وليس هناك غير صيحات استنجاد بالحارس من إحدى زنازين الطابق الأرضي التي حُشد بها صِغار النشَّالين واللصوص، ويأتي صوت الحارس من أقصى العنبر مطالبًا بالهدوء وبأن يستسلم كل صبي لِمَا يُراد به، لكن الصيحات تستمر، وتدور معركة تنتهي بالنهاية المحتومة.

* * *

كان فوزي يواصل الحديث: يوم التحويل مثلًا كان يومًا هائلًا. كنا سنُجن من الحماسة، وكان هناك سدَّان مؤقَّتان من الرمال في طرفَي القناة الجديدة. كان لا بد من نسفهما أولًا حتى تنطلق المياه في القناة، وعندئذٍ تُغلَق آخر ثُغرة في السد. وانفجر السد الأمامي ولكن الخلفي لم ينفجر، وأصبح كل شيء مُهدَّدًا في دقائق؛ فقد كان بوسع المياه أن تجتاح أساس محطة الكهرباء وتدمِّر السد الرئيسي.

ملأ كوبًا جديدًا من البيرة أفرغه عن آخره، ومسح فمه بظهر يده.

– كنت أنا المسئول عن تفجير السد الخلفي، وأدركت أنه لا بد من الغوص فورًا لمعرفة السبب بالرغم من أن الديناميت قد ينفجر في أية لحظة، فخلعت ملابسي وغصت، ووجدت الأسلاك مقطوعةً فربطتها.

ظهرت فتاة الدرج من جديد عند مدخل البار وهي تثرثر مع مصري أنيق صحبها إلى الخارج. ودار باب الفندق قاذفًا فتاةً أخرى مُتورِّدة الوجه ترتدي شورتًا قصيرًا. تهالكَت على مقعد أمامنا مادَّةً ساقَيها، واستقرَّت نظراتنا على فخذَيها المتلئتَين. كان بياضهما مشربًا بحمرة الشمس يمر بتلك المرحلة السابقة على السمرة.

لم يبدُ على فوزي أنه رأى شيئًا من هذا كله، وتركَّزت نظراته على زجاجات البيرة كأنما يَعدها، وأوشك أن يغضب عندما جاء الجرسون يجمع الزجاجات الفارغة، وتبدَّت عيناه شديدتَي الاحتقان.

قال: لا أظن أن في إمكاني أن أفعل شيئًا كهذا الآن. لا أعرف لماذا، ربما لأن العمل تغيَّر في المرحلة الثانية. أصبح في أماكن متباعدة، ولم نَعد نتركَّز مجموعاتٍ كبيرةً فنوقد حماسة بعضنا بعضًا.

ولج البهو أربعة شُبَّان صاخبين انضمَّ أحدهم إلينا، وقدَّمه فوزي إلينا على أنه من مهندسي الشركة الأخرى التي تتولَّى أعمال الخرسانة، ثم استطرد: ربما كان السبب أننا تبيَّنا الكثير من أخطائنا في المرحلة الأولى، وأدركنا أنه كان بوسعنا تلافيها وتلافي كثيرٍ من الضحايا والخسائر.

استفسر مهندس الخرسانة عن موضوع الحديث، وقلت إننا نعقد مقارنةً بين المرحلتَين.

قال: العمل الآن أصبح فنيًّا أكثر ويحتاج إلى دِقة متناهية. لم تعد المشكلة مَن هو أسرع في النقل أو من ينقُل أكثر من غيره.

قال فوزي: هذا صحيح. نحن الآن نقوم بتوسيع مدخل القناة لتستقبل مياه الفيضان، وهذه العملية تستلزم تفجير الصخور على جانبَي القناة بدِقة متناهية حتى لا تسقط في المجرى وتسده فيرتفع الفيضان مرةً واحدة.

قال مهندس الخرسانة: لكن العمل الآن فقد لذَّته.

قال فوزي: الآن لدينا وقتٌ أكثر للتفكير.

سألته: في ماذا؟

أجاب: في أشياء كثيرة؛ مثلًا: هل كانت كل ضحايا المرحلة الأولى ضرورية؟ ألم تكُن هناك من وسيلة لتلافيها؟

قال مهندس الخرسانة: اليوم أوشك محوِّل المحطة أن يصعق عاملًا روسيًّا.

قال فوزي: العُمَّال الروس مُذهلون؛ رأيت مرةً واحدًا منهم عندما انهار النفق الثاني. كلنا جرينا وتركنا آلاتنا خلفنا، أمَّا هو فرفض أن يتحرَّك بدون الحفارة التي كان يسوقها، وظلَّ فوقها يُعافر بجنون ليُخرجها. تعرف ماذا فعل؟ دقَّ الكباشة في الأرض وجعل يقفز إلى الخلف بالحفارة حتى أخرجها من النفق.

وتحوَّل إلى سعيد وهو يهزُّ أصبعه: هذا لمعلوماتك فقط وليس للنشر؛ فنحن لا نُريد أن نُعطي صورةً سيئةً لعُمَّالنا ونبالغ في تقدير الروس.

قال سعيد: لا تخشَ شيئًا؛ فلست أُريد أن يُقال إني شيوعي أو إني مصاب بعقدة الأجنبي وعاجز عن رؤية المعجزة المصرية.

وضعَت فتاة الشورت ساقًا على ساق، فقال سعيد: كل شيء أصبح الآن ظاهرًا للعيان.

قال مهندس الخرسانة: أتعرفون أن الوقت الذي يستغرقه تعليق امرأة في فنلندا أقلُّ من ذلك الذي يتطلَّبه إخراج المنديل من الجيب.

سألته كيف عرف فأجاب بأنه كان هناك منذ شهرَين في بعثة تدريبية.

قال له سعيد: عبيط. لماذا لم تبقَ هناك؟

هزَّ رأسه: معك حق. الحياة هنا كالسجن، ولولا النقود ما بقيتُ لحظةً واحدة.

سألته عن مرتَّبه فقال إنه يأخذ سبعين جنيهًا ولا ينفق أكثر من عشرة ويدخر الباقي ليشتري سيارةً عندما ينتهي السد ويستغلها تاكسي.

اقترب مِنَّا أحد زملائه قائلًا إن السيارة التي ستُقلهم إلى الموقع قد وصلت. تطلَّعت إلى ساعتي فوجدتها قد تجاوزت الحادية عشرة. وعرض علينا مهندس الخرسانة أن يوصلنا إلى الموقع، فقلت إني أُريد أن أنقُل حاجياتي إلى الاستراحة. وأبدى استعداده لمعاونتي.

أقلَّتنا السيارة الجيب إلى فندقي، وحمل محمود حقيبتي إليها فأعطيته عشرة قروش ودفعت حسابي. وأبدى سعيد تعجُّبه من ضخامة حقيبتي قائلًا إنها تجعلني أبدو كالمهاجرين.

انطلقنا في طريق الكورنيش، ثم انحرفنا إلى اليسار. وتابعت الطريق المظلم الذي مضينا فيه وسط الصحراء، بينما كان مهندس الخرسانة يحكي عن زميل لهم كان يعمل مُدرِّسًا في مدرسة بنات، ولم يكن يدَع بنتًا دون أن يقبِّلها ويجعلها تلمسه بين ساقَيه.

تردَّد فجأةً غطيط مرتفع في المقعد الخلفي، وقال المهندس إن فوزي لن يستيقظ أبدًا وعليهم أن يحملوه إلى فِراشه حملًا.

قال زميله: أو نستخدم معه إحدى الصفائح.

ضحك مهندس الخرسانة وقال لنا أنا وسعيد: إذا جئتما في الصباح أريناكما مشهدًا لا يُنسى.

سأل سعيد: ما هي الحكاية؟

قال زميل المهندس: الحكاية حكاية ثأر ... على رأي عبد الحليم.

قال سعيد: مَن اعتدى على شرف مَن؟

قال المهندس: ثأر ليس من أجل الشرف ... إنه ثأر مياه.

قال زميله: عنابرنا ليست بها ثلاجات؛ ولهذا نقوم بتبريد المياه في أزيار، وتتبادل العنابر سرقة المياه الباردة والثأر لمياهها المسروقة.

قال المهندس: ولكن ثأر الغد لم يقَع مثله من قبل.

ضحك زميله، وسألت: كيف؟

قال: في كل عنبر يوجد عمدة مسئول عنه، وغدًا صباحًا يصل عمدة العنبر المدين لنا بالثأر من إجازته بالطائرة، وسنذهب لاستقباله في المطار بخمس صفائح من المياه المثلجة ونسكبها على رأسه.

انحدر الطريق بعد ارتفاع، وتجلَّت أمامنا مئات المصابيح الكهربائية المتناثرة، وبدا موقع العمل أشبه بحفل ساهر كبير، وبعد برهة ميَّزت مئذنة الجامع ومكتب المباحث. اتجهَت السيارة يمينًا وارتقت ما يُشبه هَضْبةً صغيرة، ثم توقَّفت أمام مبنًى صغير من طابق واحد.

عاونني سعيد في إنزال حقيبتي، وسألنا مهندس الخرسانة إن كنا نُحب أن نشهد عملية المياه في الغد، فاعتذر سعيد بأن لديه ارتباطات عدة. قال المهندس إنه يعمل في الخلاطة ونستطيع أن نزوره هناك.

انصرفَت السيارة وحملتُ حقيبتي وتبعت سعيدًا إلى الداخل. مررنا بباب انتشرت خلفه الموائد والمقاعد، ثم مضينا في ردهة إلى باب في أقصاها فتحه سعيد وأضاء النور.

ظهرت أمامنا حُجرة واسعة يتصدَّرها جهاز التكييف وبها ثلاثة أَسِرة متفرِّقة في أركانها. اتجه سعيد إلى نافذة تغطِّيها شبكة من السلك، فأغلقها وأدار جهاز التكييف فجعل يطن بصوت واضح، وما لبثت البرودة المنعشة أن بدأت تنتشر في الغرفة.

وضعت حقيبتي أمام أحد الأَسِرة وجلست على حافته، ثم فتحتها وأخرجت كتاب «ميكل أنجلو» فوضعته على مقعد بجوار الفراش، ورتَّبت حاجياتي الأخرى في أدراج صوان صغير مجاور.

كان سعيد قد انطلق إلى الحمام، وعندما عاد ذهبت بدوري وعدت إلى الغرفة فأشعلت سيجارةً واستلقيت على الفراش.

استلقى سعيد على فراشه يدخِّن وقال إنه سيجرِّب حظَّه غدًا مع فتاة الشورت. سألته كيف يغلق جهاز التكييف فقال إننا سنتركه دائرًا لأن الحر بدونه لا يُطاق، وقام فأطفأ سيجارته في المنفضة وحملها إلى جوار فراشه، ثم أغلق الباب بالمفتاح وأطفأ النور، والْتجأ إلى فِراشه مُشعلًا سيجارةً جديدة.

قال بعد لحظة إنه يُريد أن يكتب شيئًا يُعبِّر به عن الإنسان الجديد الذي وُلد مع السد العالي، وإنه فكَّر أمس في سيناريو للسينما؛ مهندس يأتي إلى السد ويترك فتاته الثرية في القاهرة على مضض، ويوشك أن يعود إليها بعد أن عجز عن احتمال الحر والإرهاق والوحشة، لكن العمل ما يلبث أن يغيِّره فيترك الفتاة ويستقر في أسوان السد.

قلت: ويتزوَّج ابنة رئيس العُمَّال.

ضحك وقال: ويعيشان في التبات والنبات. كلا، إني أتكلَّم جادًّا.

قلت: أذكر أنك كنت تتحدَّث دائمًا عن الكتابة للمسرح.

قال: كلنا بدأنا بأحلام عريضة، ثم ما لبث كل شيء أن جفَّ. أقول لك الحق؟ لم أعد أرغب في كتابة شيء على الإطلاق. أصبح كل ما أكتبه ممسوخًا مائعًا بلا روح. مقالات تتوه في سراديبها، ولا هدف لها إلا تبرير كل شيء.

قلت: لا تقل لي إنك لم تكن مقتنعًا بكل ما تكتبه.

قال: كنت أُقنع نفسي. لقد كانت هناك أشياء ضخمة، وكنا جميعًا نتجاهل الجوانب الأخرى عن عمد. ألم تكُن السجون حاشدة؟ وكنا أيضًا نجني شيئًا من الثمار.

قلت دون اقتناع قوي: المراحل الأولى دائمًا هكذا.

قال: ولكن الأمر يُصوِّر وكأننا حقَّقنا كل شيء. هل أقول لك شيئًا؟ ستسمع هنا بالتأكيد مَن يقول لك إننا نستطيع بناء السد بمفردنا دون مساعدة الروس.

رأيت شعلة سيجارته تتحرَّك في الظلام إلى أسفل حيث وضع المنفضة على الأرض، ثم ترتفع من جديد بعد أن ازدادت توهُّجًا.

استطرد: أنا آتي إلى هنا بأمل وحيد؛ أن أعيش بضعة أيام خارج كل ما ترمز إليه القاهرة. أظنك رأيت تلك النشوة المتشنِّجة التي تظهر على وجوه بعضهم عندما يَرِد ذكر السد العالي؟ كأنما جفَّت أرواحنا ولم تَعُد قادرةً على الوقوف بمفردها، ولا بد من تعليقها على شيء.

* * *

وجهه حليق منتعش كأنما استيقظ توًّا من نوم عميق، أو كأنما كنا في عصر يوم من أيام الصيف بعد قيلولة طويلة، وكنا في الفجر، والشهر يناير.

– رأيك في الحكومة؟

كأنما يمكن أن تُخاطب بالمنطق رأسًا جُنَّت بالسلطة.

– هل تنوي استخدام العنف؟

الكتب بيني وبينه هي الدليل الوحيد.

* * *

عادت السيجارة مرةً أخرى إلى أسفل، وفي هذه المرة ضغطها في المنفضة مُعلنًا أنه يريد أن ينام.

قال: تُصبح على خير.
قلت: وأنت من أهله.

* * *

الفصل الثالث

في الصباح ظهر على باب حجرتنا نوبي عجوز قال سعيد إنه المسئول عن تنظيف الحجرة. ورحَّب بي العجوز قائلًا إنه يُدعى فقيرًا. سألته عن مصير الملابس المتسخة، فطلب مني أن أتركها على الفِراش ليأخذها إلى المغسلة.

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة؛ ولهذا ألفينا المطعم خاليًا. وأحضر لنا نوبي آخر إفطارًا قويًّا من الزبد والمربَّى والفول المدمَّس.

أشعل سعيد سيجارةً وقال: عندي موعد بعد ساعتَين مع كبير الخبراء السوفيات. تأتي معي؟

هززت رأسي موافقًا، فقال: اليوم هنا يبدأ بالبحث عن وسيلة ركوب.

قلت: كنت أتصوَّر هذه المشكلة محلولةً بالنسبة لك.

قال: في البداية أعطَوني سيارةً وسائقًا، ثم سحبوهما لاحتياجات العمل. لم يبقَ إلا أن نعتمد على أنفسنا.

قلت: نمشي؟

قال: لا بد لنا من سيارة؛ فالمسافة كبيرة، فضلًا عن أن معالم المكان تتغيَّر كل يوم.

دفع مقعده إلى الوراء ونهض واقفًا وهو يقول: تعالَ نبذل محاولة.

أخذنا قبعتَينا من الحجرة وغادرنا الاستراحة بعد أن علَّق سعيد كاميرته على كتفه. مشيت بتثاقل من أثر الطعام والحرارة، وتوقَّفنا أمام كشكٍ للصحف وابتعنا الجرائد التي وصلت من القاهرة توًّا.

ألقيت نظرةً على العناوين الرئيسية، ثم طويت الصحيفة وتبعت سعيدًا إلى داخل مبنًى مستطيل من طابق واحد. وقال سعيد ونحن نتقدَّم في ممر رطب اصطفَّت على جانبَيه الأبواب المغلقة: سنجرِّب حظَّنا مع صديق من أيام المدرسة.

طرق سعيد أحد الأبواب وأدار مقبضه، ثم دفعه. ودلفتُ وراءه إلى الحجرة التي تُصدرها مكتب خشبي كبير جلس خلفه شاب على شيء من الوسامة، ويبدو أنه كان على بينة من هذه الوسامة فقد مشَّط شعره بعناية، وجعل في جانبه الأيسر فاصلًا واضحًا.

عرَّفني سعيد بصديقه الذي كان يُدعى عباس، وقال ونحن نجلس في مقعدَين متقابلَين أمام المكتب إنهما كانا معًا في مدرسة القرية وغادراها إلى القاهرة في يوم واحد.

سألني عباس عن موعد قدومي وعمَّا إذا كان هناك جديد في السياسة، ثم قال إنه سمع اليوم أنهم يعتقلون الإخوان المسلمين في القاهرة.

قال سعيد: نحن لم نأتِ للتحدَّث في السياسة، نُريد سيارة.

قال عباس إنه ترك سيارته الخاصة في أسوان مع زوجته، أمَّا سيارة الشركة المخصَّصة له فهي معطوبة، وبوسعه أن يرسلها إلينا في الغد.

قال سعيد: إذن نذهب الآن ونلتقي فيما بعد.

قال ونحن نعود إلى الطريق المشتعل من الحرارة: أراهن أنه لن يستطيع النوم الليلة.

قلت: لماذا؟

قال: بسبب إشاعة الاعتقالات؛ فعندما كان في المدرسة كان مُتصلًا بالإخوان، ورغم أنه قطع صلته بهم منذ زمن بعيد، إلا أنه يرتجف من الرعب عندما تتردَّد أنباء اعتقالهم.

انطلقنا في التراب نحو الموقع، وعندما تجاوزنا الجاراج تحوَّلنا إلى اليسار وعبرنا خطًّا حديديًّا، وقال سعيد إن الخط ينقُل الأسمنت إلى خلاطة الخرسانة. وأشار إلى مبنًى حديدي ضخم من عِدة طوابق يصطف أمامه طابور من القلابات الروسية الخضراء. كانت طوابق المبنى عاريةً بلا جدران، وتتألَّف من شبكة من المواسير والأقماع والمعدَّات، وحول المبنى انتشرت عدة خزَّانات وقواديس وأكوام من الرمال أمامها شريط طويل من المطَّاط فوق قوائم حديدية تجري عليه الأحجار الصغيرة.

كنا نمر بجوار كوم من الرمال عندما برز فجأةً من فجوة في وسطه عدة أشخاص يرتدون الكمامات. أشار إلينا أحدهم أن نتوقَّف، ونزع الكمامة فألفيناه مهندسَ الخرسانة الذي تعرَّفنا به بالأمس.

أصرَّ أن يرينا الخلاطة فصحبناه إليها، وصعدنا خلفه إلى طابقها العلوي. قال إنها تعمل بالإدارة من بعيد، وإنها كانت تستقبل يوميًّا في المرحلة الأولى كميةً من الأسمنت تكفي لبناء عشرة منازل في خمسة طوابق، أمَّا الآن فهي تستقبل ثُلث هذه الكمية فقط، تُستخدم بعد خلطها بالرمال والصخور في أساسات محطة الكهرباء وقلب السد.

اعتمدتُ على سياج حديدي يُطل على طابور القلابات الفارغة، وتأمَّلت واحدةً منها تتقدَّم لتقف تحت قُمع ضخم من المطاط في طرف الخلاطة، وبدت القلابات ضئيلةً للغاية أسفل القُمع الضخم.

انفرج فاه القُمع فجأةً وانهمرَت منه كتلة الخرسانة مرةً واحدة. اهتزَّت القلابة وهبط جسمها قليلًا نحو الأرض، ثم عاد إلى وضعه، وانغلق القُمع كما انفتح، واهتزَّت القلابة مرةً أخرى وهي تنتزع نفسها من الأرض وتتحرَّك مبتعدةً ببطء، وانسابت العربة التالية مكانها.

تابعت القلابات وهي تنساب واحدةً وراء الأخرى أسفل القُمع. كان بعضها يتجه بعد ذلك إلى اليمين ويختفي خلف أحد المنحنيات، وكان بعضها الآخر يتجه إلى اليسار، ثم يتوقَّف بعد مسافة. وترتفع ظهورها لتُلقي بحمولتها في وعاء ضخم على الأرض، وما لبث الوعاء أن ارتفع في الهواء ودار دورةً واسعةً في اتجاه محطة الكهرباء. ومِلت إلى الأمام لأرى المكان الذي سيستقر فيه ولكني لم أستطِع.

ظهر الوعاء بعد قليل عائدًا إلى مكانه السابق فوق سطح الأرض، وتبيَّنت سلكًا يربطه ببرج حديدي بالغ الارتفاع ينتصب خلف الخلاطة. كان ارتفاعه يتجاوز ارتفاعها بمراحل، وبدت في قمته حُجرة ذات جدران زجاجية. وقال لي المهندس إن البرج عبارة عن رافعة هوائية.

وقف سعيد إلى جواري معتمدًا بمرفقَيه على السياج، وسمعته يغمغم لنفسه: رائع. عظيم.

والتَفتُّ إليه فرأيته يُدير عينَيه حوله وهو يحرِّك شفتَيه.

قال إنه يُريد أن يلتقط بعض الصور للموقع من قِمة الرافعة، فتركنا الخلاطة واتجهنا إلى الآلة التي استقرَّت فوق أربع عجلات تجري على قضبان.

ارتقينا سلمًا عموديًّا حتى وصلنا القمة ونحن نلهث، ووقفنا في مدخل الحجرة الزجاجية التي كان بابها مواربًا تنبعث منه برودة جهاز التكييف، ورأيت من خلاله ميكانيكيًّا مصريًّا أبيض شعر الرأس يجلس أمام عدة مقابض.

تحوَّل إلينا العامل ببصره فطالعني وجه شاب في مقتبل العمر، وعاد يتطلَّع إلى المقابض أمامه مباشرةً متجاهلًا إيانا كلية، لكنه ظلَّ يتابعنا بطرف عينه. وعندما شعر بسعيد يرفع الكاميرا، بسط قامته ومضى يحرِّك المقابض في اعتداد.

شعرت بالرافعة تتحرَّك بينما دقَّ جرس قوي، وتطلَّعت من الحائط الزجاجي فرأيت ذراع الرافعة تتجه في الهواء إلى محطة الكهرباء.

ظلَّت يدا الميكانيكي تعملان فوق المقابض، وتحرَّك ذراع الرافعة من جديد، واستدار سعيد يلتقط بعض الصور للموقع.

توقَّف الميكانيكي عن العمل لحظةً وتحوَّل إلينا مبتسمًا. ولم تبدُ عليه الدهشة عندما سأله سعيد عن اسمه وعن الدافع الذي جاء به للعمل في السد؛ فقد حدَّد هُوية سعيد بالخبرة.

قال بصوت من يتحدَّث أمام ميكرفون الإذاعة ويعرف بالضبط المطلوب منه: جئت لأخدم وطني. وابتسم.

بدا سعيد راضيًا وهو يدوِّن اسم العامل وكلماته في مفكرته، وقال هذا إنه تدرَّب مدةً أولًا على إدارة الونش على يد عامل روسي، ومنذ شهرَين أصبح يُديره بمفرده، وكان يعمل قبل ذلك في إحدى وِرَش السيارات في طنطا.

كنت أنقُل بصري بين وجهه الشاب وشعر رأسه الأبيض عندما لمح سؤالًا في عينَي، فرفع يده إلى شعره قائلًا: الونش هو السبب. أول ما جيت هنا ما كانش فيه شعرة واحدة بيضة في رأسي.

قلب سعيد صفحةً جديدةً في مفكِّرته طالبًا من العامل أن يحكي ما حدث. وقال هذا إنه كان يُدير الرافعة عندما احتكَّت بكابل كهربائي يجره عدد من العُمَّال يسيرون في بعض المياه، وأدَّى الاحتكاك إلى نزع جزء من قشرة الكابل الخارجية فتكهرب على الفور، وصُعِق جميع العُمَّال.

أغلق سعيد مُفكِّرته، وشدَّ يد الميكانيكي شاكرًا، وصافحته بدوري، ثم هبطنا السلَّم العمودي في حذر ونحن نتجنَّب التطلُّع إلى أسفل.

سرنا بين العربات المختلفة حتى بلغنا سورًا يقف أمامه جندي، ومن فوق السور كان جسم السد يمتد أمامنا بأكمله؛ فإلى اليسار كان الجزء الأمامي المواجه لمنابع النيل، تغطِّيه الرمال وتتحرَّك فوقه البلدوزرات، وإلى اليمين كان الجزء الخلفي المواجه للقاهرة يرتفع عاليًا بكميات هائلة من الصخور الضخمة، ثم ينحدر نحو صفٍّ من البراميل التي أُقيمت بصورة عمودية على حافة المياه، وفي الوسط امتدَّ شبه طريق يتدفَّق فيه الناس والعربات.

كان ثمة مجموعة من المباني الخشبية على مقربة. اتجه سعيد نحوها قائلًا: لنجرِّب حظنا مرةً أخرى.

وَلَجْنا بابًا عُلِّقت فوقه لافتة تُعلن عن إدارة المركبات. سرنا في ردهة ضيقة، ثم طرق سعيد بابًا في أقصاها وهو يهمس: هذا هو المدير، وهو من رجال الجيش.

كان هناك شخص في الداخل يصيح بصوت غاضب. وتوقَّف الصياح فجأة، ثم ارتفع الصوت الغاضب قائلًا: ادخل!

ودفع سعيد الباب وأنا خلفه، ورأيت مجموعةً من العُمَّال تقف واجمةً أمام مكتب جلس خلفه رجل طويل القامة يرتدي قميصًا كاكيًّا ويُخفي عينَيه وراء نظارات شمسية داكنة.

قال بنفس الصوت الغاضب: أفندم؟

أوضح سعيد هُويتنا فلانت قسمات الغاضب على الفور، وأشار إلينا بالجلوس، ثم تحوَّل إلى العُمَّال الواقفين قائلًا: زي ما قلت. روحوا دلوقت وبعدين أبعتلكم.

قال بعد أن انصرفوا: هؤلاء هم المصريون، يخافون ولا يختشون.

وتأمَّل سعيدًا لحظة، ثم أضاف: أظن أننا الْتقينا من قبل؟

قال سعيد وهو يبتسم في رِقة شديدة: أجل أخذت من سيادتك حديثًا منذ ستة أشهر. وأشار إليَّ واستطرد: زميلي يزور السد لأول مرة وقد أصرَّ على مقابلتك ليُعِد مقالًا عن دور العسكريين في بناء السد من واقع تجربتك الشخصية.

تحوَّل إليَّ قائلًا: أنا تحت أمرك.

فكَّرت بسرعة، ثم سألته: ما هو في رأيك سرُّ النجاح الذي سجَّله العمل في السد حتى الآن؟

أجاب على الفور: السر هو النظام والطاعة المبنيان على الخوف. لا تظن أني ضد الديمقراطية. خُذ هؤلاء العُمَّال مثلًا؛ إنهم يستطيعون دخول مكتبي في أي وقت.

أخرجت مفكرتي وتظاهرت بتدوين أقواله. اعترضني بيده قائلًا: لا داعي لكلمة الخوف هذه. الأفضل أن تقول النظام والطاعة المبنيان على الإقناع؛ حتى لا يُسيء أحد الفهم.

قلت: مفهوم.

قال إن السوفيات أعطَوه وِسامًا، ومدَّ يده إلى درج مكتبه فأخرج مجلةً روسيةً قائلًا إن بها مقالًا بهذه المناسبة.

نهضنا واقفَين وانحنينا على مكتبه لنرى المقال. كان قد بسط المجلة على صفحة تحمل صورته، وجعل يقرأ لنا الترجمة العربية التي دُوِّنت بالقلم الرصاص على هامش الصفحة وأنا أُدوِّنها في مفكِّرتي.

تطلَّع سعيد فجأةً إلى ساعته، ثم قال إن الحديث يحتاج إلى وقت أكبر لأهميته، وإننا للأسف لا نملك وقتًا كافيًا؛ فلدينا موعد في الهيئة. وكتم مضيفنا شعورًا بالاستياء ظهر على وجهه، وقال إننا نستطيع الاتصال به في أي وقت نُحب.

اعتدلنا واقفين، ووجَّه سعيد حديثه إليَّ وهو ما زال يتطلَّع إلى ساعته: لقد تأخَّرنا بالفعل، ولن تنقذنا إلا سيارة. وحوَّل بصره إلى الرجل متسائلًا.

قال هذا على الفور: أُعطيكما ورقةً تأخذان بها سيارةً من الجاراج.

قال سعيد في ضيق: ولكن جاراج الهيئة على ما أذكر يبعد عنا مسافة. لو أمكن أن تعطينا سيارةً الآن يكون أفضل.

هزَّ رأسه قائلًا: ليس هناك غير سيارتي، لكن السائق غير موجود الآن للأسف.

حزم سعيد أمره أخيرًا: ليس أمامنا إلا أن نمشي ونعتمد على الحظ.

صافحناه واعدَين بالاتصال به خلال يومَين، ثم انطلقنا إلى الخارج.

وعندما أصبحنا في الطريق تبادلنا النظرات وانفجرنا ضاحكَين.

مضينا نضرب في الأتربة، ودُرنا بعِدة منحنيات ونحن نتطلَّع خلفنا كل لحظة أملًا في سيارة عابرة. أقبلَت علينا شاحنة ثُبِّتت في مقدِّمتها ماسورة بالعرض، وقال سعيد إن الشاحنة تُدعى بأبي شنب، وقد أطلق عليها الصعايدة هذا الاسم عندما رأوها لأول مرة.

وجدنا أنفسنا على الطريق الدائري المؤدِّي إلى محطة الكهرباء، فبدى لنا النيل يجري هادئًا في قناته الجديدة، وفي كل مكان انتشر الصعايدة حاملين مقاطف الأتربة. تجاوزنا محطة الكهرباء، وواصلنا السير حتى أشرفنا على جسم السد.

رأيت وسط الشريط العريض من الصخور والرمال بنائَين طويلَين متجاورَين يصلان بين الضفتَين، كانا مقوَّسَي السطحَين تعترضهما ثغرات ضيقة على مسافات متساوية. وقال سعيد إنهما ممرًّا التفتيش، وإن ثالثًا سيعلوهما، ثم يغطَّى الثلاثة بالطمي إلى الأبد.

بلغت حرارة الشمس أوجها وثقلت حركتي. شعرت بالرغبة في العودة إلى الاستراحة، ولكني استأنفت السير إلى جوار سعيد في صمت.

بلغنا أحد المنحنيات فتوقَّفنا حتى مرَّت سيارةٌ لرشِّ المياه تلتها حفارة صغيرة، استقرَّ صندوق سائقها في مقدِّمتها بدلًا من مكانه المعهود في الخلف، فبدت كأنما تسير بظهرها، ثم ظهرت سيارة جيب أشار سعيد لسائقها فتوقَّف إلى جانبنا، ولكنه قال إنه ذاهب حتى الكشك القريب وحسب.

مشينا بضع خطوات، ثم وقفنا ننتظر. سألت سعيدًا عن سر اهتمامه بمقابلة كبير الخبراء الروس. قال إنه كان يتحاشاهم دائمًا حتى لا يُثير الشكوك من حوله، لكن رئيس

التحرير طلب منه هذه المرة موضوعًا عنهم، ويبدو أن أحد مسئوليهم اشتكى من تجاهل الصحافة لهم.

مرَّت بنا سيارة فيات تابعة للشركة استقرَّ رجل بدين في مقعدها الخلفي. قال سعيد إنها ذاهبة إلى الهيئة، ولا شك وأن راكبها يبدو شخصًا مهمًّا ولن يقف السائق لنا. ومرَّت دقائق طويلة لم يظهر فيها سوى سيارة تبريد، تبعتها سيارة من طراز «فولجا» يعلو هيكلُها عن الأرض أكثر من المعتاد، وكان سائقها الروسي يقودها بسرعة أثارت عاصفةً من الغبار.

أوشكنا أن نستأنف السير عندما ظهرَت سيارة جيب روسية أوقفها سائقها المصري عندما رآنا وسألنا إذا ما كنا ذاهبَين إلى الهيئة. تطلَّع سعيد إليَّ، ثم قال للسائق إننا لا نمانع في الذهاب.

مضت السيارة تتدحرج بنا فوق جسم السد غير الممهَّد، وجعلت تهتز وترجُّنا رجًّا. مدَّ سعيد يده إلى مقبض الباب على أُهبة القفز في أية لحظة، وظلَّ في هذا الوضع وعيناه على الطريق حتى أصبحنا على الضفة الغربية.

قلت له: أظنك وجدت بداية المقال؟

سأل: كيف؟

قلت: تبدأ هكذا: كدت أفقد حياتي على جسم السد.

لم يضحك فالتزمت الصمت، وانطلقت السيارة في الطريق المرصوف الذي يؤدِّي مباشرةً إلى أسوان، وعند مفترق طرق تحوَّلت إلى اليسار حتى أشرفنا على مبنى الهيئة، فصعدت طريقًا دائريًّا وتوقفت أمامه.

سأل سعيد السائق عن موعد عودته، فقال إنه سيأخذ أحد المهندسين وينصرف توًّا.

قفز سعيد إلى الطريق، وعندما أردت أن أتبعه وجدت سروالي قد الْتصق بجلد المقعد، وابتلَّ من العرق في أكثر من مكان.

ألقى سعيد نظرةً على ساعته وقال: لقد وصلنا بمعجزةٍ في الموعد.

تقدَّمني إلى بابٍ على يسار المبنى، ووقفت في المدخل حتى تعوَّدَت عيناي اختفاء ضوء الشمس، ثم سرنا في ردهة هادئة تنبعث منها رطوبة خفيفة منعشة.

خلعت قبعتي ومسحت عرقي بمنديلي. بلغنا بابًا جلس أمامه فرَّاش نوبي أشار لنا إلى باب آخر دون أن يفوه بكلمة، فطرقناه ودخلنا.

التقَت عيناي بعينَين زرقاوَين واسعتَين تُحيط بهما هالة من الشعر الأحمر تدلَّت أطرافه فوق آلة كاتبة. كانت صاحبتهما قد رفعتهما إلى الباب عند دخولنا، ثم خفضتهما على الفور.

تحوَّلت ببصري إلى صورة كبيرة للينين على الحائط، ثم شقراء ممتلئة لوَّحت الشمس بشرتها جلست أمام عدة تليفونات. تطلَّعَت إلينا متسائلة، فقال سعيد بالإنجليزية إننا صحفيان ولدينا موعد مع أبراسيموف.

ابتسمت وقالت: باجلستا. وأشارت إلى مقعدَين بجوار مكتب جلس إليه شاب ذو ملامح آسيوية يدق على الآلة الكاتبة في استغراق.

قال سعيد في صوتٍ خافت ونحن نجلس: ها هنا نفق تتوه فيه أعظم القضبان.

تأمَّلتنا الشقراء باسِمةً وهي تُسوِّي خصلةً من الشعر وزَّعتها في خطوط رأسية متوازية فوق جبهتها، وقدَّرت أنها في الأربعين من عمرها.

أخرجتُ علبة سجائري وقدَّمت لها سيجارةً فتناولتها قائلة: سباسيبا.

تحوَّلت إلى زميلتها فرفعَت عينَيها إليَّ وابتسمت قائلةً بالإنجليزية إنها تفضِّل البلمونت، وأخرجَت علبةً من حقيبتها تناولت منها سيجارةً أشعلتها لها.

كان فمها واسعًا في وجه مستطيل تُحيط به خطوطٌ تنم عن الإرهاق، وبدت شفتاها جافتَين توشكان على التشقُّق.

اعتذر الشاب بأنه لا يدخِّن، فعدت إلى مقعدي، وكان سعيد منهمكًا مع الشقراء في حديث متقطِّع بكل اللغات، وسمعتها تقول في إنجليزية ركيكة إنها تُدعى إليونا، وإنها ستعود إلى موسكو بعد شهرَين، وقالت إن زميلتها تُدعى تانيا، وإنها وصلت منذ شهر فقط.

قال سعيد: كم نود الذهاب إلى موسكو!

هتفت الشقراء ضاحكةً وهي تُلوِّح بيدها في الهواء: من فضلكم تعالَوا.

واختلست النظر إلى صاحبتها في خجل مفاجئ فضحكنا.

وجمت فجأةً وأشارت بيدها مرةً أخرى، ثم تناولت سماعة التليفون. تكلَّمت بالروسية وسمعنا اسم أبراسيموف يتكرَّر، ثم كلمة جورناليست، ثم نحَّت السمَّاعة عن فمها وسألتنا: باروسكي نييت؟

فهمت أنها تقصد اللغة الروسية، فقلت: نييت.

عادت تتكلَّم في السمَّاعة وهي تحتد حينًا وتبتسم حينًا آخر، واعتمدت تانيا بمرفقَيها على الآلة تتأمَّل زميلتها باسمة. وأخيرًا وضعت الشقراء السمَّاعة مكانها وتنهَّدَت، ثم أشارت بيدها إلى باب بجوارها وقالت وهي تنهض واقفة: مستر أبراسيموف خراشو. باجلستا.

نهضنا بدورنا، وتقدَّمتنا إلى الحجرة الداخلية وعينا سعيد على عجزها المتلئ، وتبعناها إلى قاعة طويلة بها مائدة اجتماعات وحولها عدد كبير من المقاعد، وفي نهاية القاعة جلس رجل قصير القامة مدكوكها أبيض شعر الرأس إلى مكتب صغير.

كنت قد رأيت صورة أبراسيموف عدة مرات في الصحف، وتعرَّفتُ فورًا على الوجه المربع القوي الذي انتشرت فوقه شبكة هائلة غير عادية من التجاعيد.

وقف أبراسيموف عندما رآنا، وأحسست بشخص خلفي. التفَتُّ فرأيت شابًّا نحيلًا محتقن الوجه أنيق الملابس قدَّم نفسه إلينا على أنه مترجم واسمه فكتور.

انسحبَت إليونا وتحدَّث أبراسيموف بالروسية وهو يُشير إلى المقاعد المحيطة بمكتبه فجلسنا. تكلَّم سعيد وفكتور يترجم من الإنجليزية إلى الروسية. قال إننا نريد أعداد بعض المقالات عن حياة الروس في السد، لكننا عاجزون عن التفاهم مع أحدٍ بسبب اللغة، وكلما حاولنا أخذ بعض المعلومات المحدَّدة قيل لنا إنه لا بد من أمر من أبراسيموف شخصيًّا.

قال أبراسيموف من خلال فكتور إنه سيُعيِّن لنا واحدًا يقدِّم لنا كل ما نحتاجه من معلومات ويساعدنا في مقابلة مَن نشاء.

التفت سعيد ناحيتي وقال بالعربية: آه لو عينوا النفق.

رفع أبراسيموف سمَّاعة التليفون وتحدَّث قليلًا، ثم أعادها مكانها. كانت كل حركاته تنم عن ثقة شديدة بالنفس.

تحوَّل إلينا مبتسمًا وقال: إننا أحسنَّا صُنعًا بالمجيء في أغسطس؛ فهم يستعدون الآن للفيضان، كما أن العمل يمر بأهم مرحلة وهي تشييد النواة الصماء في قلب السد.

خاطبه سعيد: مستر أبراسيموف، لقد عاصرتَ بناء السد منذ بدايته، فماذا كانت أخطر لحظة مرَّت بك في تلك المدة؟

فكَّر الروسي لحظة، ثم ابتسم: اللحظات الخطيرة كثيرة؛ أثناء بناء الأنفاق كان كل يوم يمثِّل لحظة خطر بسبب الانهيارات التي كانت تحدث فيها، وفي بداية سنة ٦٣ عندما أوشك السد المؤقَّت الذي أقمناه أمام قناة التحويل أن ينهار.

قال سعيد: وأخطر هذه اللحظات؟

قال أبراسيموف: ربما كان فيضان العام الماضي هو أخطر لحظة مرَّت بي هنا؛ فقد جاء الفيضان عاليًا وارتفع الماء بسرعة، وفي لحظة رأيت كل عملنا مُهدَّدًا بالغرق. لكن

تعرف؟ لولا السد لكانت بلادكم قد تعرَّضت لمخاطر جسيمة؛ فقد تمكَّن من احتجاز الجزء الأكبر من المياه.

سألت: هل يمكن أن يتكرَّر الخطر هذا العام؟

أجاب: التقديرات الأولية تقول إن فيضان هذا العام لن يكون عاليًا.

عدت أسأل: ولو كان فماذا يكون العمل؟

قال: الأمر بسيط؛ نفتح كل الأنفاق في وجه المياه، وبذلك نحول دون وقوع شيء للسد نفسه أو للوادي.

سأله سعيد عن تاريخ تخرُّجه فقال: سنة ٢٧؛ أي بعد الثورة بعشرة أعوام.

– وما هو أهم ما تذكره عن تلك الفترة؟

فكَّر الروسي لحظة، ثم قال: الحماسة التي كُنَّا نعمل بها في أول مشروعٍ للري في آسيا الوسطى. كان هذا هو أول مشروع أشترك فيه، وجاءت بعده مشروعات أخرى في أماكن متفرِّقة من البلاد، ثم نشبت الحرب واشتركتُ بها في سلاح المهندسين.

– وبعد الحرب؟

– عملت في إعادة إنشاء الجسور ومحطات الكهرباء التي دمَّرتها الحرب، والمؤلم أنها كانت هي ذاتها التي اشتركت في إنشائها قبل الحرب.

– وبعد ذلك؟

– في سنة ٥٥ تولَّيت مسئولية عدة مشروعات كبرى، وعملت في عدة بلاد في الخارج.

تدخَّلت في الحديث قائلًا: تعني بعد انتقاد عبادة الفرد؟

بدا وجهه جامدًا لا يُعبِّر عن شيء، وأجابني في صوت بارد: لا أعني شيئًا.

سأله سعيد عن رأيه في الجيل الجديد من الشباب السوفياتي.

قال: الجيل الجديد يُريد تلافي الأخطاء التي وقع فيها الجيل الذي سبقه، وهذا شيء طبيعي في كل مكان.

وجَّه إليه سعيد عدة أسئلة عن اهتماماته الشخصية وهواياته. وجلست أستمع إلى إجابته وأنا أفكِّر في المراحل المختلفة التي مرَّت بها حياته، والأخطار التي تعرَّض لها وأفلت منها.

أحضر لنا فرَّاش نوبي زجاجتَين من الصودا المثلَّجة، ثم طرق الباب ودخل رجل ضئيل الجسم شرقي الملامح يرتدي ملابس كاملة. اتجه الرجل إلى أبراسيموف مباشرةً وانحنى أمامه في احترام شديد، وهمس لنا فكتور أنه كبير المصمِّمين، وهو أرمني يُدعى أوجنسيان.

تحدَّث أبراسيموف إلى الأرمني، ثم قدَّمه لنا على أنه الذي سيتولى مساعدتنا، ونهض واقفًا مُعلنًا انتهاء المقابلة.

غادرنا الغرفة برفقة أوجنسيان من باب غير الذي دخلنا منه، وتبعناه إلى غرفته، وبدأ يتحدَّث بالروسية فور جلوسنا، فقاطعه سعيد قائلًا: باروسكي نييت.

تطلَّع إلينا في وجوم، ثم غادر الغرفة، وعاد بعد ربع ساعة بصحبة رجل طويل القامة أصلع الرأس مشمأنط الوجه. خاطبنا القادم الجديد بالإنجليزية كالتي يتكلَّمها الأمريكان، وقال إنه يُدعى زولوجدين.

أفسحنا مكانًا لمقعده بيننا، وتحدَّث إليه أوجانسيان، ثم تحوَّل هذا إلينا وطلب منا أن نوضِّح ما نريده.

قال سعيد إننا صحفيان ونريد كتابة بعض المقالات عن حياة الروس في السد ومشاكلهم.

ترجم زولوجدين كلمات سعيد، فقال الأرمني على الفور: لا توجد لدينا أية مشاكل.

كانت لهجة زولوجدين عندما نقل إلينا هذه الإجابة توحي بأنه ضيق بنا وبالأرمني وبكل شيء.

قال سعيد في صبر إننا نريد مقابلة عدد من المهندسين والعُمَّال الروس والاطلاع على حياتهم الثقافية والاجتماعية والحصول على بعض الأرقام والبيانات الخاصة بذلك.

فكَّر أوجانسيان برهة، ثم نهض واستأذن منا مغادرًا الغرفة. وجلسنا في صمت حتى عاد برفقة رجل باسم الوجه رمادي الرأس، ودار حديث سريع بالروسية بين الثلاثة، ثم تحوَّل إلينا زولوجدين وقال في لهجته الجافة مشيرًا إلى القادم الجديد: مستر بيوتر ياكونوف سيتولَّى الإجابة على كافة أسئلتكما، وهو يتكلَّم الإنجليزية.

رفع ياكونوف يده معترضًا: قليل منها فقط. وابتسم كاشفًا عن سن ذهبية.

اقترح أن ننتقل إلى مكتبه، فأحنينا رأسَينا لأوجنسيان وقلنا له: سباسيبا. وصعدنا خلف ياكونوف إلى الطابق الثاني يتبعنا المترجم.

ولجنا غرفةً تضم ثلاث طاولات عالية للرسم جلس إلى إحداها رجل نحيل مُتقدِّمٌ في السن، ووقف خلف الثانية شاب ضخم البنية. جمع ياكونوف ثلاثة مقاعد حول المائدة الثالثة واحتلَّ مكانه خلفها.

وضع مرفقَيه على المائدة وتحدَّث في لهجةٍ شبه رسمية وإن ظلَّ محتفظًا بابتسامته، وتطلَّعنا إلى زولوجدين، فقال إنه يريد منا أن نكتب له اسمَينا. كتبت له الاسمَين فقرأها بإمعان، ثم قال: مستر سعيد، ماذا تريدان بالضبط؟

كرَّر سعيد ما سبق أن قاله للأرمني.

قال ياكونوف: مستر سعيد، أنا موجود هنا منذ بدأ العمل في ١٩٥٩؛ ولهذا أعرف كل شيء، وسأزوِّدكما بكل ما تريدان من معلومات.

قلنا في نفس واحد: سباسيبا.

قال: مستر سعيد، لا بد أن نضع برنامجًا دقيقًا لكل شيء.

قال سعيد: أوكي.

استأذن منا وغادر الغرفة، ثم عاد بعد دقائق ودار خلف مائدته وهو يتطلَّع إلينا بابتسامة سعيدة: مستر سعيد، رئيسي وافق على خطتنا.

تبادلت وسعيد نظرةً متسائلة، وواصل ياكونوف: غدًا نضع البرنامج. ثم نهض واقفًا. اضطُررنا للوقوف بدورنا ونحن نقول في نفس الوقت: سباسيبا.

تبادل ياكونوف وزولوجدين حديثًا طويلًا بالروسية، ثم تحوَّل إلينا الأخير قائلًا إن ياكونوف سيكون غدًا في إدارة التركيبات بالموقع، وهو يقترح أن نلتقي هناك. وصف لنا المكان وغادرنا الغرفة.

مشينا في ردهة طويلة في اتجاه الجانب الآخر من المبنى، وقال سعيد إنه من الضروري أن نمر على وكيل الوزارة وإلا غضب إذا عرف أننا كُنَّا هنا ولم نزره. صعدنا إلى الطابق الثالث. استمهلنا مدير مكتبه بعض الوقت، ثم أشار لنا بالدخول.

كان الدكتور فريد سلامة رجلًا طويل القامة تخلَّل المشيب رأسه وبدا قريبًا من الستين، وكان يجلس أسفل خريطة كبيرة للسد تعلوها صورة لعبد الناصر.

وقف يرحِّب بنا كأنما يعرفنا جيدًا، وقال له سعيد عندما جلسنا إنه تلفن له منذ يومَين فلم يجده. قال إنه كان مشغولًا في أحد الاجتماعات التي لا تنتهي هذه الأيام استعدادًا للفيضان، وفتح درج مكتبه وأخرج منه ملفًّا قدَّمه لسعيد قائلًا إنه كتاب فرغ من وضعه عن تاريخ مشروع السد، وإنه أثبت فيه أن مهندسًا مصريًّا هو أول من فكَّر في هذا المشروع في الأربعينيات.

تناول سعيد الملف، وعندما فتحه سقطت منه صور فوتوغرافية على الأرض. انحنيت فتناولتها ورأيتها لعددٍ من المصريين والأجانب يرتدون الطرابيش، وأشار فريد ضاحكًا إلى أطول المصريين قائلًا: هكذا كنت أبدو منذ عشرين عامًا.

ملنا على الصورة نتأمَّل الأجانب الذين غطَّوا رءوسهم بالطرابيش، وقال فريد إنه يعمل في الري منذ كان وزراؤه وكبار موظِّفيه من الإنجليز.

قلب سعيد صفحات الكتاب في اهتمام مصطنع، ورفعت عينَي إلى الخريطة. كانت تمثِّل قطاعًا عرضيًّا في السد مقسَّمًا بالألوان إلى قطاعات متعدِّدة متباينة الأحجام تشير إلى المواد المختلفة التي يتكوَّن منها السد. كان بعضها يمثِّل الصخور، وبعضها الآخر الصخور الملبسة بالرمال الناعمة، والثالث الرمال الخشنة، وفي الوسط حيث يرتفع السد في شكل هرمي مثلث رمادي اللون يشير إلى النواة الصمَّاء التي تتكوَّن من الطمي. كان هذا المثلث يمتد في شبه عمود أسفل مستوى السد إلى قاع النهر، وكان يمتد منه خط أُفقي إلى الجزء الأمامي من جسم السد المواجه لمنابع النيل.

حوَّلت عينَي إلى وجه وكيل الوزارة. لحظت عينَيه الضيقتَين وآثار الجدري التي انتشرت على صفحته، وبدا وجهه مجرَّدًا من الحيوية كما كان صوته.

سمعته يقول لسعيد إن البيجوم آغاخان تتصل به دائمًا عندما تأتي إلى أسوان. وقال إنه يفكِّر في جمع المحاضرات التي يُلقيها عن الاشتراكية في أعضاء الاتحاد الاشتراكي بصفته رئيسًا له وإصدارها في كتابٍ ليستفيد منها بقية المواطنين في القُطر.

* * *

آثار الجدري والجسد الفارع الضخم يذكِّران به، ومحاضرات الاشتراكية أيضًا، سوى أن الوجه كان يفيض حيوية، وأنه تمرَّد على عبودية الإنجليز، وخُيِّر بين أوروبا والجحيم فارتضى الجحيم، واستقبل الليمان أول نزيل من نوعه قيَّدت السلاسل الحديدية قدمَيه بأمر الملك، وانحنى بين عُتاة القتلة والمجرمين يكسر الصخر، الفك صلب عريض، والأنف تصنع معه خطَّين حادَّين، وقامت الثورة وذهب الملك، لكن مجرمي الأمس هم أيضًا مجرمو اليوم، وعندما خرج فرضوا عليه أن يبقى حبيس منزله من غروب الشمس حتى شروقها، ثم جاءوه في الفجر، اليوم أول، والشهر يناير، والعام تسع وخمسون، وانطلقَت السيارة السوداء في شوارع المدينة النائمة التي نسي كيف تبدو بالليل، واقتادوه حائرًا واجمًا من سجن إلى آخر، وتفجَّر العنف من الفرات إلى النيل بمثل ما لم يتفجَّر من قبل، فسحلوا الأجسام العارية في الموصل، وأذابوا اللحم والعظام بالأحماض في دمشق، ومن فوق مآذن القاهرة طالبوا بالدماء.

* * *

طرق الباب ودخل أبراسيموف برفقة عدد من الروس والمصريين، فغادرنا الحجرة، وقال سعيد إن دخولهم أضاع علينا فرصة طلب سيارة من الدكتور فريد.

هبطنا إلى الطابق الأرضي، واقترح سعيد أن نمر على السكرتيرتَين قبل انصرافنا، فمضينا إلى حجرتهما. طرقنا الباب، ثم أدرنا مقبضه، لكننا لم نجد غير الشاب ذي الملامح الآسيوية، فانسحبنا على الفور.

غادرنا المبنى ووقفنا في ظله نبحث عن سيارة تُقلنا. لمح سعيد سيارة جيب تستعد للمسير، فجرى نحوها وتبعتُه متشكِّكًا. انحنى على سائقها، ثم ما لبث أن ابتعد عنه مفسحًا له الطريق.

اتجهنا إلى الطريق الدائري في بطء، وتسلَّلَت حرارة الأرض المرصوفة إلى قدمي. مرَّت بنا سيارة جيب فلوَّحنا لسائقها دون جدوى، وعندما انتهى الطريق الدائري استدرنا إلى اليمين في الطريق المؤدِّي إلى السد.

قال سعيد ونحن ننقُل أقدامنا في بطءٍ على الأسفلت الملتهب: كنت أُفضِّل أن أكون في الإسكندرية الآن.

قلت: الشتاء بها أروع.

قال: لم أرَها في الشتاء.

قلت: أمَّا أنا فرأيتها.

* * *

الشوارع أنيقة هادئة، والجو رمادي، ومن خروم السلك الذي يغلِّف السيارة كلها لاح البحر على مبعدة، وتطلَّع إليه في لهفة قائلًا إنه يعشق هذه المدينة ففيها وُلد وقضى أيام صباه قبل أن يبدأ هذا كله، وارتفع البحر أمامنا حتى غطَّى صفحة الأفق بأمواج خضراء يغلِّفها زبد أبيض، ولانت قسمات الوجه الذي يبدو أحيانًا كأنه قُدَّ من الجرانيت، وابتسمت عيناه في عبث الأطفال وأشواقهم، وتلاشت آثار الجدري كأنما بفعل السحر. عندما رفع رأسه يستنشق بلهفة الهواء الذي أتت نسماته مشبعةً برائحة الأسماك، وأراح يده المقيَّدة على السلك قائلًا إنه أشرف على الخمسين لكن ما زال أمامه الكثير، ورغم الهواجس لم يحدس أنه لم تتبقَّ سوى أشهر قليلة.

* * *

سمعنا هدير قلابة خلفنا، فتنحَّينا جانبًا حتى تمر، وأقبلت في بطء تنوء بحملها من الصخور وقد ارتفع الشاكمان أمامها في الهواء، والْتمع طلاؤها البرتقالي في الشمس.

حاذتنا القلابة فلوَّحت للسائق الذي كان يجلس في مستوى رءوسنا، وقال سعيد إنه لا يُعقل أن يقف لنا. واصلَت السيارة مسيرها لكن سرعتها بدأت تتناقص حتى وقفت أخيرًا على مبعدة ربع كيلو.

جرينا حتى بلغناها ونحن نلهث، ووقفنا إلى جوار إطارها الذي تجاوز ارتفاعه قامتَينا. تطلَّعنا إلى السائق الذي بدا عاليًا للغاية، وهتف قائلًا إنه ذاهب حتى ممرَّات التفتيش فقط.

ارتقيت سُلَّمًا حديديًّا صغيرًا من عِدة درجات، وعالجت الباب فلم ينفتح. فكَّرت بالدخول من النافذة. كدت أفعل، لكن السائق مال نحوي ومدَّ ذراعًا قويةً مُغبرةً ففتح الباب.

ترنَّحت موشكًا على السقوط، ثم تهاويت فوق صندوق حديدي صغير بجوار قدمَي السائق. انكمشت في مكاني مُفسحًا مكانًا لسعيد، وواصلت العربة سيرها وهي ترتَج بصورة متواصلة.

راقبت يدَي السائق اللتَين قبضتا على المقود الكبير في قوة. كانت عروقها نافرةً من أثر الجهد الذي يبذله للسيطرة على القلابة.

قال سعيد مُتودِّدًا إليه: الله يكون في عونك. كأنك بتحرك جبل.

لم يردَّ السائق بشيء، وضغط البوق الذي كاد صوته يُصيبنا بالصمَم.

عاد سعيد يقول: هو كل حاجة الروس كده. تطهق.

قال السائق: دي رولز إنجليزي مش روسي.

قال سعيد: وإيه اللي جابها هنا؟

قال السائق: أهوه فيه ناس تحب تشتري من بره بالعملة الصعبة.

قال سعيد: يمكن تكون أحسن من العربيات الروسي.

هزَّ السائق كتفه: مفيش فرق كبير.

قال سعيد بعد لحظة صمت: أظن الحكاية دي ما هي مزعلة الروس؟

– أكيد. تعرف عملنا إيه لَمَّا جه خروشوف؟ دهنَّا كل العربيات الإنجليزي باللون الأخضر بتاع العربيات الروسي.

تساءل سعيد في دهشة: ليه؟ عشان ما يزعلش لو شافها؟ يعني هو مش عارف؟

– تلاقي الروس اللي هنا مخبيين عليه.

وصلنا النقطة التي يبدأ عندها جسم السد، فدار السائق إلى اليسار ومضى بصعوبة فوق الطريق الترابي، وبعد قليل أوقف القلابة قائلًا إنه سيهبط إلى جوار ممرَّات التفتيش، ومن الأفضل أن نُغادره هنا.

غادرنا السيارة ووقفنا نرقبه يُدير المقود في جهد وقد مال فوقه بكل جسده، واستدارت القلابة إلى اليمين، ثم هبطت إلى مستوًى آخر من جسم السد في الطريق إلى ممرَّي التفتيش.

واصلنا السير حتى نهاية جسم السد، واتجهنا إلى محطة الكهرباء ونحن نتطلَّع حولنا في كل خطوة. عبرنا جسرًا يُطل على قطار تزاحم العُمَّال من حوله، واعتلَوا سطحه حتى كاد يختفي أسفل القمصان الملوَّنة والجلاليب والعمائم واللبد والقبعات والبيريهات.

توقَّفنا بجوار أحد رجال البوليس الحربي، وأراه سعيد بطاقته الصحفية طالبًا معونته في إيجاد سيارة لنا، فأوقف الجندي عدة سيارات، لكن واحدةً منها لم تكن ذاهبةً في طريق الاستراحة.

مرَّت بضع دقائق لم تظهر فيها سيارة واحدة. اعتمدت بظهري على عمود خشبي شاعرًا بإنهاك شديد، ولمحت طرف ورقة بيضاء لصقَت بجوار رأسي على العمود. قرأت عليها بيانًا بتوقيع الوزير يحذِّر من قراءة مجلة الصداقة التي توزِّعها السفارة الأميركية.

أقبلت علينا شاحنة إنجليزية خفيفة من طراز تايمز ذات مقدِّمة ضيقة للغاية. أشار لها الجندي فأوقفها سائقها على مبعدة عدة خطوات، وتقدَّم الجندي من الشاحنة وانحنى على نافذتها، ثم أشار لنا بالاقتراب قائلًا إن الشاحنة ستذهب إلى أحد مراكز التجريف أولًا، وبعد ذلك تذهب في اتجاه الاستراحة.

تكوَّمنا أنا وسعيد في الحيِّز الضيِّق الذي ترك بجوار السائق، وانطلقَت الشاحنة في سرعة وخِفة، ودارت في عدة منحنيات، وإذا بنا نتجه إلى جسم السد من جديد، وعندما أشرفنا عليه اتجه السائق إلى اليسار في طريق شبه مهجور، ومضى في سرعةٍ شديدة حتى بلغنا حوضًا واسعًا من المياه احتلَّت أكوامُ الرمال جانبًا منه، فتوقَّف وغادرنا الشاحنة.

قال سعيد: هنا تبدأ تلك المواسير التي كنت تبحث عن سِرها.

تطلَّعت إلى ساعتي فوجدتها أوشكت على الرابعة. قلت: أخشى أن يكون طعام الغداء قد ضاع علينا.

قال: لا تقلق. ليس هناك وقت محدَّد للوجبات بسبب الورديات المختلفة.

حوَّلت بصري إلى الحوض. كانت هناك رشاشات قوية من المياه مُسلَّطة على الرمال بحيث تجرفها إلى أسفل، وكان خليط المياه والرمال ينحدر إلى فتحتَي ماسورتَين ضخمتَين

وقف أمامهما عدد من الصعايدة مشمِّري الجلاليب ينتقون الأحجار الصغيرة من الخليط ويقذفون بها بعيدًا.

عاد السائق بصحبة عددٍ من العُمَّال يحملون صناديق خشبية، وعندما فرغوا من وضعها في مؤخِّرة الشاحنة قفز إلى مقعده فتبعناه، وانطلقت الشاحنة في الطريق الذي جئنا منه.

أرحت رأسي على مسند المقعد، ونقلت ثِقَل جسدي من فخذ إلى آخر بعد أن تصلَّب الأول، وأوشك الثاني أن يتصلَّب أيضًا عندما توقَّف السائق على مقربة من الاستراحة.

مشينا في تثاقل حتى الباب، ومضينا في الممر الرطب المؤدِّي إلى حجرتنا ففتحتها، واتجهت على الفور إلى جهاز التكييف فأدرته، ثم تناولت ملابس نظيفةً من حقيبتي وذهبت إلى الحمَّام. كان ماء الدش شديد السخونة، وتجمَّع تحت قدمَي في لون الطين.

أحضر لنا فقيرٌ ليمونًا مُثلَّجًا في الترموس، وسمعته ينعي لسعيد أخلاق هذه الأيام، قال إنه رأى بنفسه الفستان القصير في أسوان.

مضى سعيد إلى الحمَّام فتناولت منشفتي وطردت بها الذباب، ثم أغلقت مصراعَي النافذة وصببت لنفسي كوبًا من الليمون. جلست أرتشفه على حافة الفراش بعد أن أشعلت سيجارة.

عندما جاء سعيد غادرنا الحجرة إلى صالة الطعام، وكان بها عددٌ من المهندسين الشُّبَّان يأكلون في صمت.

اخترنا مائدةً بالقرب من الباب أملًا في نسمة هواء، وأقبلنا على الطعام في شهية، ولحظت أن أحد الجالسين يرقُبنا في اهتمام. كان أصلع الرأس ذا شارب كث، وعندما التقت عيناه بعينَي أبعدهما واستغرق في الأكل، لكني شعرت بعينَيه بعد لحظة مسلطتَين علينا.

فرغنا من الأكل فأسرعنا إلى الغرفة، واستبدلنا ملابسنا بالمنامات، واستلقى كلٌّ مِنَّا في فراشه يدخِّن، وسرعان ما غفونا.

استيقظنا بعد ساعة، ونادى سعيد على فقير، وأعطاه الترموس ليُحضر لنا قهوةً من النادي. قلت إني أفضِّل الشاي، فقال سعيد إن شاي النادي كالماء، ولا بد أن نشتري شايًا ونُعده بأنفسنا. قال فقير إن نوع الشاي الذي نريده غير متوفِّر في الموقع، وربما وجدناه في كيما أو أسوان.

كانت سجائرنا قد فرغت، فاقترح سعيد أن ننزل إلى كيما لشراء الشاي والسجائر، ثم نذهب إلى السينما.

شربنا القهوة وارتدينا ملابسنا في اعتناء، ووجدنا فقيرًا واقفًا على باب الاستراحة. تطلَّع إلى ملابسنا، ثم قال إننا تأخَّرنا. ولو كنا بكَّرنا قليلًا للحقنا بالسيارة المخصَّصة للمهندسين التي تُقلهم كل مساء ليسهروا في أسوان وتعود بهم في منتصف الليل.

انطلقنا إلى الطريق العام ووقفنا على جانبه ننتظر. كان هناك غيرنا من المنتظرين ميَّزت بينهم الأصلع الذي راقبنا باهتمام في المطعم، وكان يقف مع شابَّين متأنقي الملابس.

مرَّت بنا عدة سيارات دون أن تقف كالعادة، ومرَّت سيارة جيب من أمامنا، ثم توقَّفت على مبعدة، وتحفَّز الواقفون للحاق بها، لكن أحدهم كان أسبقهم للحركة، وبدا أنه على معرفة بسائق السيارة، وتابعه الباقون في حسد وهو يقفز إلى السيارة التي استأنفت سيرها.

لمح سعيد أحد جنود البوليس الحربي فتقدَّم منه وأراه بطاقته، وشعر بعض العُمَّال الواقفين بما سيحدث، فدنَوا منا، لكن الجندي نهرهم فابتعدوا في بطء.

تطلَّع الجندي في بطاقة سعيد، ثم طلب منا في أدب أن ننتظر على جانب، وتحوَّل يرقب الطريق، وعندما لمح سيارةً مقبلةً تحمل شارة القطاع العام تراجع خطوةً ومدَّ أصبعه السبابة إلى الأمام في مستوى السيارة وحركة إلى أسفل في هدوء وحزم.

توقَّفت السيارة قبل أصبعه بنصف متر، فتقدَّم في بطء من نافذتها، وتبادل مع السائق بضع كلمات، ثم طلب منه أن يفتح باب السيارة، وتطلَّع داخلها، ثم تراجع مبتعدًا وأشار له بالانصراف.

اقترب الجندي منا وقال لسعيد إنه لا بد من تفتيش كل سيارة تُغادر الموقع فمحاولات السرقة لا تتوقَّف، وأضاف لا تقلقا، سأجد لكما مكانًا حالًا.

ظهرت إحدى السيارات التشيكوسلوفاكية الضخمة التابعة للشركة، وبدا سائقها واضحًا خلف واجهتها الزجاجية العريضة.

كرَّر الجندي الإشارة الموجزة من أصبعه فتوقَّفت السيارة.

تطلَّعت خلفي بحثًا عن الأصلع فرأيته يقترب مع زميلَيه من السيارة. خاطب الجندي السائق ملقِّبًا إياه بالحاج، وقال إننا صحفيان ونُريد الذهاب إلى كيما، فهتف بنا السائق بصوت جهْوري أن نصعد، ومدَّ يده إلى باب السيارة المغلق وفتحه لنا.

صعدت يتبعني سعيد، وجاء في أعقابنا عامل صعيدي ذو شارب ضخم يرتدي جلبابًا ملوَّنًا، وعندما حاول أن يصعد خلفنا جذبه الجندي من ذراعه وسأله عمَّا إذا كان قد سمح له بالصعود.

توقَّف الصعيدي واجمًا، ورفع الجندي يده وهوى بها على قفاه، ثم سأله عن بلده فقال وقد انحنى رأسه تحت كفِّ الجندي إنه من قوص.

تقدَّم الشاب الأصلع من باب السيارة يتبعه زميلاه، وأفسح الجندي لهم الطريق وهو يصيح في الصعيدي أن أهالي قوص جميعًا لصوص.

هتف بنا السائق: تفضَّلوا جوه. مدَّ يده فأغلق الباب، وانتقل الأصلع وزميلاه إلى داخل العربة المزدحمة، وبقيت أنا وسعيد خلف السائق.

أشار الجندي للسائق بالانطلاق دون أن يلتفت نحوه. تحرَّكت السيارة فتطلَّعت إلى الخلف. رأيت الجندي يمد يده محاولًا جذب شارب الصعيدي.

سألنا السائق عن الصحيفة التي نعمل بها قائلًا إنه يراسل صحيفةً يومية، وأضاف أنه يرأس نقابة العُمَّال في الشركة ولجنة الاتحاد الاشتراكي فيها، وأنه حصل على ستة آلاف صوت في انتخابات الاتحاد الاشتراكي.

سأله سعيد عمَّا إذا كان أجره يكفي لتغطية كل هذه النشاطات، فقال إنه لا يشكو من شيء، وإنه يملك قطعة أرض في قرية أبي الريش المجاورة.

قلت لسعيد على مسمع من السائق: الحاج نموذج مشرِّف للعاملين في السد، ولا بد أن نكتب شيئًا عنه.

أمَّن سعيد على قولي وقال إنه يفكِّر بالفعل في ريبورتاج كبير، ثم تحوَّل للسائق وسأله عمَّا إذا كان سيعود الليلة إلى الموقع.

أجاب الحاج في حماسة أنه سيعود بوردية منتصف الليل. وقال إنه على استعداد لأن ينتظرنا في أي مكان نحب، فاتفقنا على أن نلتقي أمام كيما. أشرفت السيارة على عمارات كيما المتوازية، ومررنا بمبنًى من طابقَين تجمَّع بعض الناس على سطحه، وقال السائق إنه النادي الروسي.

غادرنا السيارة بعد النادي بقليل، ورأيت أحد زميلَي الشاب الأصلع يغادره خلفنا، ثم يعبر الطريق إلى الناحية الأخرى ويختفي خلف إحدى العمارات.

تابعتُ السيارة ببصري عندما استأنفت سيرها، والتقت عيناي بعيني الأصلع الذي بقي فيها.

مشينا في اتجاه السيارة بحذاء صفوف من العمارات الأنيقة. كانت الحدائق الواسعة تفصل بينها، وعلى أبوابها تجمَّعت حلقات من السيدات الروسيات. كان بوسعي أن أتبيَّن في ضوء المغيب بشرة سواعدهن وسيقانهن التي لوَّحتها الشمس.

شعرت بملمس ملابسي الداخلية النظيفة على جسدي الجاف، ولفح الهواءُ الساخن بشرة وجهي.

مرقت بجوارنا سيارة جيب مكشوفة مستطيلة الجسم عن المألوف. كان يقودها رجل بدين يرتدي جلبابًا جلست بجواره امرأة في مثل حجمه. كانت تكتسي جلبابًا بلديًّا وتغطِّي ساعدَيها حتى المرفقَين بالأساور الذهبية.

قال سعيد إن الرجل هو المتعهِّد الذي يمد السد بآلاف الأنفار، وإنه يأخذ على كل نفر منهم خمسة قروش في اليوم.

عبرنا خطًّا حديديًّا إلى الجانب الآخر الذي يسكنه موظفو شركة كيما، وتطلَّعت خلفي إلى النادي الروسي. كانت الأضواء قد سطعت على سطحه، وترامت إلى مسامعنا أصداء موسيقى راقصة تنبعث منه.

اشترينا الشاي والسجائر من مجمَّع تعاوني كبير، واتجهنا إلى السينما، وعندما وجدنا الفيلم مصريًّا اقترح سعيد أن نزور صديقًا له يعمل في مصنع السماد.

مشينا في الظلام بين المجمَّعات السكنية. كانت أغلب نوافذها مظلمة، وبين الحين والآخر كانت نسمة هواء تحمل إلينا صوت الموسيقى، ثم تمتد ثغرةٌ بين صفَّين من المباني، ومن خلالها يتبدَّى النادي الروسي شعلةً من الضوء.

تطلَّعت خلفي إلى الشارع الذي جئنا منه، ودقَّقت النظر، لكني لم أتبيَّن أحدًا يقتفي أثرنا.

طرقنا باب المسكن الأرضي في إحدى العمارات، وفتح لنا رجل في ملابسه الداخلية يتصبَّب العرق من وجهه. قال إننا أخطأنا العنوان.

سرنا حتى نهاية الصف ودخلنا العمارة المماثلة في الصف التالي، وجدنا الاسم الذي نبحث عنه مُسجَّلًا بالقلم الرصاص على الباب، لكن أحدًا لم يستجِب لطرقنا.

عدنا أدراجنا في الشارع نفسه الذي جئنا منه، والْتقينا بالرجل الذي فتح لنا أوَّل الأمر. كان يؤدِّي بعض التمارين الرياضية في الظلام أمام المنزل. واصلنا المشي في اتجاه الشارع العام، وعندما بلغناه تحوَّلنا إلى اليمين، وسرنا إلى جوار الخط الحديدي في اتجاه بقعة الضوء المنبعثة من النادي الروسي.

عبرنا الخط الحديدي أمام النادي واقتربنا من مدخله. كانت له حديقة واسعة صُفَّت بها الموائد التي الْتفَّ حولها الشبان والفتيات الروس.

التقينا عند الباب بياكونوف في طريقه إلى الخارج. كان يحمل عدة كُتب في يده اليسرى ويضع اليمنى على ورم ظاهرٍ في فمه.

قال باللغة العربية مشيرًا إلى فمه: واحد كسورة. ثم أضاف بالإنجليزية أنه متعب وسيذهب إلى منزله. وأشار إلى الداخل قائلًا: موجنا ... باجلستا.

سأله سعيد عن موعد الغد، فقال إنه سيكون أحسن حالًا وسينتظرنا. ودَّعنا وانصرف، فاجتزنا الحديقة إلى باب زجاجي، ودلفنا إلى قاعة واسعة ازدحمت بالجالسين، وأُقيمت في جانبٍ منها مِنصة صُفَّت خلفها صناديق المياه الغازية والبيرة، وفي الجانب الآخر كان هناك درج يؤدِّي إلى الطابق الأعلى الذي انبعث منه صوت الموسيقى.

اتجهنا إلى منصة المشروبات فابتعنا من شاب نوبي زجاجتَي بيرة. حمل كلٌّ مِنَّا زجاجةً وكوبًا، ووقفنا نتلفَّت حولنا بحثًا عن مكان، ولمح سعيد مائدةً جلست إليها سيدتان روسيتان وبجوارهما مقعدان خاليان، فهمس: تعالَ.

تقدَّمنا من المائدة، وانحنى سعيد لهما مستأذنًا بالإنجليزية في الجلوس، فهزَّت إحداهما كتفَيها وأشارت بيدها إلى المقعدَين كأنما الأمر لا يعنيها، فوضعنا الزجاجتَين والكوبَين على المائدة وجلسنا.

كانت المرأة في مقتبل العمر ذات شفاه ممتلئة وشعر ذهبي، وكان رداؤها أحمر اللون من طراز قديم، أمَّا زميلتها فكانت ذات ملامح آسيوية مجرَّدة من الجَمال.

شعرت بالأنظار تتجه إلينا فملأت كوبي ورفعته إلى فمي. خاطب سعيد ذات الرداء الأحمر، فضحكت برِقة وقالت وهي تهز كتفَيها: أنجليسكي نييت.

وتحوَّلت تستأنف الحديث مع زميلتها.

قال لي سعيد: ماذا نفعل الآن؟

قلت: لا شيء.

أخذت أرتشف كوبي وأنا أتأمَّل شفتَي ذات الرداء الأحمر. كانت منطلقةً في الحديث مع زميلتها دون أن يتلاشى الابتسام من وجهها الذي تتابعت على صفحته عشرات الانفعالات.

نقلت بصري إلى ساعدَيها العاريَين من أول الكتف. تأمَّلت شعر إبْطَيها الذهبي، ومضيت أُنصت إلى صوتها، ولأول مرة لاحظت ما في مخارج الألفاظ ونهايات الجمل الروسية من إيقاع موسيقي، وكنت في البداية أشعر بها كقِطع الصخر.

كفَّت عن الحديث ووقفت. تردَّدت لحظة، ثم تحوَّلت إلينا وقالت: داز فيدانيا. وابتعدت تتبعها زميلتها.

تابعناها بأعيننا حتى غادرت القاعة. لحظتُ أن المكان شرع يخلو من الجالسين، ولم تعُد الموسيقى تصدح في الطابق الأعلى، بينما ازدحم الدرج بالمنصرفين.

كانت الساعة قد بلغت العاشرة والنصف، فأفرغنا زجاجتَينا وغادرنا النادي. مشينا في بطء باتجاه السينما، ورأينا زحامًا أمامها. كان العرض قد انتهى، وما لبث الزحام أن تلاشى، ولمحت نبيل يتحدَّث مع شاب أسمر يقف مستندًا إلى درَّاجة، ثم امتطى الشاب درَّاجته وجلس نبيل أمامه، ودار بالدرَّاجة في الطريق إلى أسوان، وعندما مرَّ من أمامنا تبيَّنت أن الشاب لم يكن عويس.

مضينا عائدَين إلى مكان موعدنا مع الحاج. وقفنا ننتظر صامتَين، وما لبثت السيارة الصفراء الطويلة أن أقبلت علينا وتوقَّفت أمامنا.

كانت السيارة ممتلئةً بالعُمَّال، لكنه كان قد حجز لنا مقعدَين خلفه، وقال بعد أن استأنف السير إنه أحضر صورةً له في أحد اجتماعات الاتحاد الاشتراكي ليستخدمها سعيد في مقاله.

تناول سعيد الصورة ووضعها في مفكِّرته، وأخرج قلمه وسطَّر بضع كلمات في إحدى صفحاتها. ازدادت حماسة الحاج عندما رأى سعيدًا يكتب، فجعل يصف تأييد العُمَّال له وهو يُراقب سعيدًا في المرآة المجاورة له ليتأكَّد أنه يكتب ما يقوله.

كانت العربة صامتةً تُنصت لصوت الحاج الجهْوري، وكان يتحدَّث الآن عن الشركة وجهودها في خدمة العُمَّال، ولمحت في المرآة جانبًا منهم يتطلَّعون إلينا.

ظهرت أنوار الموقع أخيرًا، واجتزنا الجامع فاستعددنا للنزول، لكن الحاج أصرَّ على أن يأخذنا إلى باب الاستراحة، وقاد سيارته الضخمة صاعدًا في الطريق المؤدِّي إليها.

دخلنا المطعم لنتناول العشاء، وتوقَّعت أن أجده فارغًا، لكننا وجدنا عددًا من الآكلين. كان أغلبهم ما زال في ملابس بعد الظهر الأنيقة وقد تجعَّدت الآن وفقدت طزاجتها، وعادت وجوههم التي بدَت منتعشةً مترقِّبةً في العصر إلى سابق تجهُّمها.

اغتسلنا والْتجأنا إلى حجرتنا، وأدار سعيد جهاز التكييف. بينما استبدلت ملابسي استبدل هو الآخر ملابسه، وارتمى كلٌّ منا على فراشه.

مدَّ يده إلى حقيبته أسفل الفراش وتناول منها إحدى المجلات. سألته عنها فقال: إنها «بلاي بوي».

أشعلت سيجارةً بينما كان يقلِّب صفحات المجلة. قال بعد لحظة إنه يتمنَّى أن يحصل مرةً على واحدة من هاته النسوة اللاتي تظهر صورهن في المجلة.

وضع المجلة على ساقَيه وسألني عن علبة الثقاب. قذفت بها إليه وأشعل سيجارة.

قال: أتعرف ما هو أروع شيء بالنسبة للرجل المتزوِّج؟

قلت: أن يقضي ليلةً واحدةً مع امرأة أخرى.

قال: أبدًا ... أن ينام ليلة بمفرده.

قلت: لم أجرِّب.

قال: لا أدري لماذا لم تتزوَّج حتى الآن. لعلك ما زلت تنتظر الفتاة التي يخفق لها قلبك من أول نظرة؟

قلت: ربما. أنت تعرف أنه لم تُتح لي فرصة.

قال: غلطتك. قل ماذا كسبت؟

قلت: أشياء كثيرة.

قال: يبدو لي أن الناس تُقدِم على الزواج عندما لا تجد شيئًا آخر تفعله.

طلبت منه أن يرمي لي بعلبة الثقاب، وأشعلت سيجارةً بينما عاد يتصفَّح صور المجلة العارية.

قلت بعد أن انتهت سيجارتي إني أُريد أن أنام ولا أستطيع النوم في الضوء. قال إنه سينتهي بعد قليل، فانقلبت على وجهي ودفنت رأسي في الوسادة.

* * *

كان النور يُطفأ دائمًا في ساعة مُحدَّدة كل ليلة، وأحيانًا يكون الحرمان منه تامًا، وعندما تسمح الظروف يجري البحث عن وقود، وبالسجائر تشتري بضع قطرات من السائل الزيتي الذي يطفو على سطح جرادل الطعام، وتصنع من أطراف الملابس شرائط تُغمس فيه ليتوهَّج الضوء بعض الوقت في الزنازين، ثم يسود الظلام الحالك، ويتفتَّت الجسد إلى ألف قطعة، أو هو الرأس الذي يتفتَّت، وما كان يبدو مستحيلًا وبعيدًا عن التصديق في ضوء النهار يُصبح من الممكنات، ثم المحاولة المستميتة لجمع شتاتٍ من العالم الآخر البعيد كي تستوي في النهاية امرأة حانية سمراء حينًا، وبيضاء حينًا آخر، لكنها ذات جسد حارٍّ لا يرتوي أبدًا، ولكن فُتات الجسد يتوق لأن يتجمَّع من جديد بين ذراعَي جسد آخر ملموس، والأقرب إلى الحواس أحد هؤلاء الذين تتردَّد أنفاسهم في هدأة الليل، ذلك الصبي الوسيم في عنبر النشَّالين الذي كان اللومانجي المسجون إلى الأبد يقرصه من شفتَيه، أو الآخر الذي اتضحت تفاصيل فخذَيه عندما انحني ينظِّف الأرض، أو ثالث اقتربت ساقه عفوًا عندما تقلَّب على جانبه، والأفضل أن يكون المرء حشاشًا أو قاتلًا ليستطيع أن يفعل

مثل اللومانجي المسجون إلى الأبد، ولم يبقَ غير جز الأسنان في ظلام الليل حتى يحل سلطان النوم الرحيم، أو يبزغ الفجر قبل موعده.

* * *

اعتدلت على ظهري. كان النور ما زال مضاءً وسعيد ما زال يقلِّب صفحات المجلة.

أغلقت عينَي وغفلت برهة، ثم خُيِّل إليَّ أن النور انطفأ ففتحتهما، لكن سعيدًا كان ما يزال يقرأ. أغلقت عينَي من جديد وحلمت أني مع صوفيا لورين. كان صدرها عاريًا، وفهمت من نظرتها لي أننا كنا في الفراش منذ قليل، ثم استيقظت على صوت فقير، ورأيته واقفًا في وسط الحجرة وقد سطعت الشمس في أنحائها.

قال إن هناك سيارةً تنتظرنا في الخارج، فقال سعيد وهو يقفز من فراشه إنها سيارة عباس ولا شك. أسرعنا نغتسل ونرتدي ملابسنا، ثم تناولنا إفطارنا وخرجنا إلى الطريق.

كانت السيارة صغيرةً من طراز فيات/نصر ١١٠٠، وكان السائق في مكانه يقرأ إحدى الصحف، ودون أن يتحرَّك مدَّ ذراعه خلف مقعده وأزال رتاج الباب الخلفي. جلست في المقعد الخلفي بينما استقرَّ سعيد إلى جواره.

عيَّن له سعيد وجهتنا، وأخرج مفكِّرته وجعل يكتب قائمةً بالأسئلة التي سيوجِّهها إلى ياكونوف، وسألت السائق أن يعطيني الصحيفة فناولها لي.

كانت الصحيفة مطويةً على صفحة تتصدَّرها صورة كبيرة لجسم السد كُتب تحتها: «السد الإنسان صنع كل هذه القصص الإنسانية». قلَّبت الصفحات بحثًا عن العمود الخاص بدرجات الحرارة، ووجدتها في القاهرة ٣٤ وفي أسوان ٤٣.

عُدت إلى موضوع القصص الإنسانية. كان كاتبه يقول إن كل من يعمل في السد يستطيع أن يقوم بإجازة حينما يشاء، لكن أحدًا لا يرغب في ذلك، وكل سائق أُعطي ترمسًا للشاي كما زُوِّد بوسادة من المطَّاط تمتص العرق وتُجنِّبه الإصابة بالروماتزم، وبنظارة أنيقة تحمي عينَيه من وَهَج الشمس.

سألني السائق بغتةً وهو يتطلَّع إليَّ في مرآته إذا كنتُ قرأت موضوع القصص الإنسانية فأجبت بالإيجاب.

قال: إنت شفت سيادتك سواق لابس نظارة شمس وشايل ترموس؟

قلت إني لم أنتبه إلى شيء من ذلك.

قال: وحكاية الأجازات دي ... تعرف ان الوزير مانع الأجازات كلها؟

تصفَّحت بقية العناوين. توقَّفت عند صورة أسد ضخم وقرأت أسفلها أنه بكى من التأثُّر في مطار القاهرة عندما وضعوه في طائرة مغادرة.

توقَّف السائق أمام مبنًى حجري من طابق واحد، وقال إنه سينتظرنا في منطقة الظل المجاورة، ووجدنا ياكونوف ينتظرنا في أول مكتب دخلناه.

كان ورم خدِّه قد اختفى. رحَّب بنا في وُدٍّ وهو يبتسم، ثم استأذن منا وانطلق يبحث عن مترجم، وعاد بعد لحظة قائلًا إن زولوجودين سيلحق بنا.

تبادلنا بضع عبارات. كان ينتقل من الروسية إلى الإنجليزية والعربية ونحن نبتسم لِمَا لا نفهمه من كلام فيبتسم بدوره، وعندما لا يفهم شيئًا ممَّا نقوله يضحك في خجل.

ظهر المترجم المشمأنط زولوجودين على الباب، واعتدل ياكونوف في مقعده مُعلِنًا استعداده للأسئلة، فقرأ له سعيد قائمةً طويلة.

ظلَّ ياكونوف صامتًا حتى النهاية، ثم سأل لماذا لا يشمل برنامج سعيد القسم الذي يعمل به، قلت إننا لم نرَ داعيًا لذلك ما دام هو معنا ونستطيع أن نسأله عن أي شيء.

قال سعيد إنه تذكَّر شيئًا آخر، وإنه يُريد أن يعرف العدد الإجمالي للروس في المنطقة.

صمت ياكونوف برهة، ثم قال في صوت رسمي: مستر سعيد، بالنسبة للعدد، سأكون بعد دقائق في وضع يسمح لي بإخبارك.

وغادر الغرفة ليُصبح في وضعٍ يسمح له بإخبارنا بالعدد.

سألنا زولوجدين فجأةً عن عمرَينا. وعندما علم أننا لم نبلغ الثلاثين بعدُ هزَّ رأسه وقال بمرارة: لا يعرف أحد مزية هذه السن إلا عندما يُصبح في الأربعين مثلي.

استفسرت عن حياته العائلية فقال إنه كان متزوِّجًا، وقال إن لديه ابنةً في السادسة عشر، وإن له في مصر ثلاثة شهور فقط.

سألت: وإلى متى تبقى؟

قال: لا أعتقد أني سأتحمَّل الوحدة هنا أكثر من عام.

شعرت بدوار مفاجئ وجفاف شديد في حلقي. سألت زولوجدين عمَّا إذا كان في إمكاني أن أشرب شايًا. قال إنه لا يعرف، وإننا سنتحرَّك على أية حال عندما يعود ياكونوف.

جاء ياكونوف بعد دقائق يحمل بعض الأوراق. وبدا سعيدًا لأنه استطاع أن يفعل لنا شيئًا. شرع يقرأ عن طريق المترجم بعض البيانات، ثم قدَّم لسعيد بقية الأوراق التي كانت بالإنجليزية، وقال إنه سيأخذنا الآن في جولة بالسيارة لنرى بعض أنحاء الموقع.

قال سعيد: كنا نود أن نزور أولًا مركز التدريب الذي تُديره مهندسة روسية.

قال ياكونوف: سنفعل لكن ليس اليوم؛ فلا بد أولًا من الاتصال بالمركز وتحديد موعد، وهذا يستغرق يومًا أو يومَين.

قلت إني أشعر بالتعب وأُفضِّل العودة إلى الاستراحة. غادرنا المبنى وتركتهم ينتظرون سيارة ياكونوف وصعدت إلى سيارة عباس.

استدار السائق عائدًا في الطريق المؤدِّي للاستراحة. سألني بعد قليل عن اسم سعيد الكامل فذكرته له. عاد يسألني بعد برهة: هو ده اسمه الحقيقي؟

قلت: قصدك إيه؟

قال: أنا عرفته من صورته في المجلة اللي بيكتب فيها باسم فتحي قراع.

قلت: فتحي قراع واحد تاني وان كانوا يشبهون لبعض.

قال بإصرار إن فتحي قراع يتنكَّر دائمًا عندما يكتب تحقيقاته، وإنه تنكَّر مرةً ليدخل السجن.

قلت إن دخول السجن لا يحتاج إلى تنكُّر.

قال: إنه ينشر الآن حلقات عن الطفل الذي يتلاشى. سيادتك تصدق الحكاية دي؟

أجبت: مش عارف.

قال: مرة قريت موضوع عن سواق زميلنا اسمه عبد الفتاح. زميلنا وصاحبنا وكل يوم احنا في بيته. تبص تلقى المجلة ناشرة صورة شقة فخمة فيها بوتاجاز وتلاجة وقال دي شقة الأخ عبد الفتاح.

أسندت رأسي إلى مسند السيارة وأغمضت عينَي، لكن الدُّوار الذي كنتُ أشعر به لم يتوقَّف، واضطرَّتني المطبَّات المتتابعة إلى أن أبتعد برأسي عن المسند.

استمرَّ السائق يروي لي ذكرياته بلهجة ساخرة. حكى عن ماجدة عندما جاءت تصوِّر فيلمًا عن السد، وقامت بدور مضيفة سياحية في لنش قادم من «أبي سنبل».

قال: تعرف ليه؟ عشان تقابل على اللنش إيهاب نافع وتحبه لأنه بيبني السد.

وصلنا الاستراحة فاتجهتُ إلى غرفتي على الفور. طاردت الذباب وأظلمت الغرفة، ثم أدرت جهاز التكييف ووضعت ملعقتَين من الشاي في الترموس وناديت على فقير.

طلبت منه أن يُحضر لي ماءً مغليًّا في الترموس فتناوله واتجه إلى الباب، وعندما بلغه تحوَّل إليَّ وقال إن شخصًا سأل عنا في الصباح.

سألت: مين؟

قال: واحد بيشتغل في الشركة اسمه صبحي.

قلت: كان عاوز إيه؟

قال: الأسامي بس. قلت له إني معرفش أساميكم الكاملة، فقال إنه حيرجع بعدين.

سألته عمَّا إذا كان الرجل أصلع الرأس ذا شارب كث فأجاب بالنفي.

غادر الغرفة وبقيتُ مُمدِّدًا أتطلَّع إلى الباب، ثم انحنيت على حافة الفراش وأخرجت من حقيبتي قرصَين من الأسبرين، وعندما عاد فقير بالشاي أفرغت لنفسي كوبًا وابتلعت القرصَين، ثم أتبعتهما بقرص نوفالجين.

تناولت الترانزستور وبحثت عبثًا عن برنامج موسيقي فأعدته إلى مكانه بجوار كتاب «ميكل أنجلو» وأشعلت سيجارة. كان مذاق الدخان مُرًّا، فأطفأت السيجارة في المنفضة.

تناولت الكتاب ولبثت برهةً أحدِّق إلى السقف. شعرت بمفاصلي مفكَّكة، وبالإرهاق التام فاستسلمت للفراش.

* * *

«خيَّم شبح «سافونارولا» القاتم على المدينة المترفة التي يتحلَّق حكماؤها حول لورنزو العظيم يستَشِفون بعقولهم أسرار الكون ويستمعون إلى كلماته. دون ذهن حر ونشيط وخلَّاق ليس الإنسان غير حيوان، ولا بد أن يبقى مستقلًّا في تفكيره ولا يربط إلى نظرية جامدة كالعبد فيتعفَّن في قيودها، لكن عينَي الراهب تلمعان بشهوة السلطة وتنظيم العالم، وها هو يرتقي المنصة بجهد من أثر الصوم المتصل، ويصيح في الآلاف الذين تدافعوا ليسمعوه أنه يتكلَّم بلسان الله، وأنه صوت الرب على الأرض. وتسري في الجموع رِعدة ويقشعر جسد النحات. الدعوة الجديدة تنتشر كالنار، والناس ينضمون إلى الراهب أفواجًا، وبوتشيلي يستنكر رسوماته العارية ويُلقي بلوحاته إلى النار التي أقامها جيش القمصان البيضاء، لكن النحات رأى خلاص روحه في فنه، وظلَّ يردِّد لنفسه قول «لورنزو» إن قوى التدمير تسير في أعقاب الابداع والخلق، وإذا بـ «لورنزو» نفسه يستسلم على فراش الموت ويطلب غفران الراهب. وبعد سنوات معدودة أجبروا الراهب على الاعتراف قبل إعدامه بأنه اختلق تلقين الوحي الإلهي. واهتزَّ النحات من الأعماق، ثم عاد إلى عمله؛ فقد أصبح الصخر هو الشيء الوحيد اليقيني في عالم تسوده الفوضى.»

* * *

اشتدَّ بي الدوار فأغمضت عينَي وغفوت. استيقظت بعد ساعتَين فوجدت أن سعيدًا لم يعُد بعد. كان حلقي شديد الجفاف، فتناولت كوبًا من الشاي واستأنفت النوم.

استيقظت مرةً أخرى على ضجة شديدة. كان الظلام يسود الغرفة، لكن شعاعًا من الضوء كان يتسلَّل من بابها المفتوح، ورأيت في فُرجته شخصًا يتحسَّس الجدار بيده بحثًا عن مفتاح النور. سمعته يسب فتبيَّنت أنه سعيد.

عثر على المفتاح أخيرًا وأداره. تطلَّعت إلى ساعتي فألفيتها قد تجاوزت العاشرة.

أغلق الباب وتقدَّم إلى منتصف الحجرة. لحظت أنه يترنَّح قليلًا. اعتدلت جالسًا وأدليت قدمَي من الفراش قائلًا: يبدو أنك قضيت وقتًا طيبًا.

ألقى بحافظة أوراقه الجلدية على فراشه وشرع يفك أزرار قميصه: لا بأس، وأنت؟

– لم أغادر الغرفة طول اليوم.

– أمَا زلت تشعر بالتعب؟

– قليلًا، ولكني الآن أحسن حالًا.

ألقى بقميصه على مقعد وقال: شربت اليوم كميةً هائلةً من البيرة.

قلت: مع الروس؟

– في الأول ذهبت مع ياكونوف إلى كازينو على النيل، ودخلنا في سباق على الشراب حتى كدت أفقد الوعي، وبعد ذلك التقيت بمجموعة رائعة من الشبَّان المصريين فشربنا معًا.

– مهندسون؟

– كلا، ملاحظون من الذين تدرَّبوا في الاتحاد السوفياتي. أكبر واحد فيهم لا يزيد عن اثنتَين وعشرين سنة.

جلس على حافَّة فراشه وشرع يخلع حذاءه مستطردًا: ليتك سمعتهم. حماسة وثقة. تمامًا كما كنا أيام الجامعة.

– كان بودي أن أكون معك.

– سألتقي بهم غدًا. تعالَ معي لو أحببت.

غادرت الفراش وتناولت الترموس، فقال سعيد إنه يشعر بصداع شديد ويُريد أن يشرب قهوة. أفرغت لنفسي كوبًا من الشاي، ومضى هو إلى الحمام، وسمعته ينادي على فقير، وبعد لحظات أحضر لنا شاب نوبي لم أرَه من قبلُ فنجانًا من القهوة.

قال سعيد وهو يرتشف القهوة: كان يجب أن ترى عُمَّالنا عندما رأوني في الجاراج مع ياكونوف. كانت مظاهرة.

– كانوا يقرءون لك إذن.

– أبدًا. أروني مقال جريدة الصباح عن السد وهم يتساءلون إذا كانت مثل هذه الأكاذيب تصح.

– وبماذا أجبت؟

– ماذا كنت سأقول؟ أريتهم بطاقتي حتى يتأكَّدوا أني لا علاقة لي بهذه الجريدة ومقالاتها.

– أتعرف ماذا قال لي السائق الذي ركبنا معه في الصباح؟ إنه يعتقد أنك فتحي قراع متنكِّرًا.

– الناس تخلط دائمًا بيننا. شيء يقرف.

– لا أرى وجه القرف.

– تظن أنه شيء يدعو للفخر؟

أشعل سيجارةً واستلقى على الفراش.

قلت له بعد لحظة: على فكرة، هناك من سأل عنا اليوم.

قال: من؟

رويت له قصة فقير. استمع إليَّ صامتًا، ثم اعتدل جالسًا وقال: أتظن؟ ...

هززت كتفَي فقام واقفًا وسار بضع خطوات، ثم توقَّف فجأةً وتطلَّع حوله في أنحاء الغرفة، وتوقَّفت عيناه على جهاز التكييف الذي كان يَطن بصورة متواصلة.

انحنى فوق الجهاز وصاح: لا شأن لي بأي شيء. ورفع رأسه إلى السقف، ثم سار إلى الركن وهتف: والله العظيم أنا مع الحكومة.

بدأت أضحك فتحوَّل قائلًا: أنا أقول الحقيقة.

قلت: وهذا ما يضحكني.

عاد إلى فراشه واستغرق في التدخين.

قلت: لو حدث لنا شيء سيقتنع السائق بأنك فتحي قراع شخصيًّا.

– ماذا يمكن أن يحدث لنا؟

– أي شيء.

قلت بعد لحظة: أنا متشوِّق إلى مقالك القادم يا أستاذ قراع.

قال: لست أحب هذا المزاح.

قلت: كما تشاء.

تناولت الترانزستور وأدرت مؤشِّره حتى عثرت على برنامج موسيقي. قال سعيد إنه يريد أن ينام، وإن صوت الراديو يُزعجه، فخفضت الصوت وبدأت أُنصت لأغنية فرنسية

أُحبها تبدأ بتصفيق هادئ. كرَّر سعيد أنه عاجز عن النوم، فأغلقت الجهاز وأعدته إلى مكانه على المقعد المجاور لفراشي.

* * *

استيقظنا متأخِّرين في اليوم التالي وتناولنا إفطارنا في صمت، وعندما سألت سعيدًا عن برنامج اليوم قال إنه لا يشعر بالرغبة في الذهاب إلى الموقع، واقترح أن نمر على عباس لنستعلم منه عمَّن سأل عنا بالأمس.

قلت إني لا أعتقد أنه يعمل في الشركة فاسمانا موجودان لديها.

لم يردَّ وغادرنا المطعم إلى الحجرة. وضعت قبعتي على رأسي وتناول هو كاميرته، وتطلَّع إلى عدستها، ثم سألني إن كنت عبثت بها.

أجبت بالنفي فقال إنه لم يُفارقها لحظةً بالأمس إلا عندما نام بعد أن ضبط العدسة على فتحة مُعيَّنة، لكن أحدًا لعب بها وغيَّر الفتحة.

قلت إني لم أتحرَّك من فراشي طول الليل ولم أقترب منها. هزَّ كتفَيه وعلَّق الكاميرا في ذراعه، ثم انطلق إلى الخارج وأنا في أعقابه.

اتجهنا تحت الشمس الحامية إلى مكتب عباس، وسبقت سعيدًا إلى كشك الصحف فابتعتها. ألفيت العناوين الرسمية عن اعتقال عدد كبير من الإخوان المسلمين وهم على وشك القيام بإحدى مؤامراتهم، وكانت هناك صورة للأسلحة التي ضُبطت معهم.

أعطيت سعيدًا إحدى الصحف ووقفنا في ظلِّ المدخل المؤدِّي إلى مكتب عباس. قرأنا أن الإخوان أعدوا خطةً واسعةً لاغتيال رئيس الجمهورية وعشرات من الممثِّلين والمغنِّين، كما وُجدت معهم قائمة بأسماء عدد كبير من الشيوعيين وعناوينهم، وكانوا ينوون اغتيالهم أيضًا.

قلت: كان الله في عون عباس الآن.

قلَّبت صفحات الجريدة بحثًا عن درجات الحرارة، وألفيتها بلغت في أسوان ٤٦، بينما لم تتعدَّ ٣٣ في القاهرة.

لم نجد عباسًا في مكتبه، وقال لنا زميل له إنه لم يأتِ اليوم، وإنه اتصل بالتليفون طالبًا أن نذهب إليه في فندق جراند أوتيل في الساعة الواحدة.

كنا في الحادية عشرة لكن سعيدًا أصرَّ على الذهاب فورًا، فانطلقنا إلى جاراج الشركة ولحقنا بإحدى سياراتها الذاهبة إلى أسوان. جلست أمام اثنَين من العُمَّال يدور بينهما

جدل حام. كان أحدهما يهاجم الروس قائلًا إنهم لا يريدونا أن ننجز شيئًا بأنفسنا، وإننا نملك كفاءات مثلهم وأفضل. وسخر منه الآخر الذي كان يتكلَّم بلهجة صعيدية، ومضى يروي حكايةً طويلةً أراد أن يُثبت بها أن الروس لا يُخفون عنا شيئًا من أسرار العمل.

قال سعيد عندما وصلنا إلى أسوان إنه سينزل أمام البريد ليبعث ببضع خطابات. قلت إني سأحلق شعر رأسي ثم نلتقي في الفندق. لم يردَّ وغادر السيارة أمام البريد، ونزلت أنا أمام نادي التجديف الذي كان طابقه الأرضي يحتوي على حلاق حديث.

كان الدكان الصغير الأنيق مزدحمًا بعدد من الجالسين يتسامرون مع الحلاق بينهم جندي في ملابس عسكرية أنيقة. احتللت أحد المقعدَين الخاليَين المخصَّصَين للحلاقة، وأرخيت جسدي مغمضًا عينَي ومستمتعًا ببرودة جهاز التكييف.

أنصتُّ إلى الجندي يحكي عن مغامراته في اليمن وعن سذاجة اليمنيين وبساطتهم. كان الحاضرون يضحكون بين الحين والآخر، ورأيت وجه الجندي في المرآة ممتلئًا حفَّ شاربَيه بعناية فوق شفتَين داكنتَين من أثر التدخين المتواصل، وراقبته وهو يُخرج علبةً معدِنيةً مُذهبة من أحد جيوبه، ثم علبة سجائر أمريكية من الجيب الآخر صفَّ محتوياتها في العلبة المعدِنية.

فرغ الحلاق من شعري فدفعت حسابي وخرجت مكرهًا إلى الطريق المشتعل. انتقلت إلى الجانب الآخر وألقيت نظرةً على شاب وفتاتَين من الأجانب استلقَوا على العشب، ثم مشيت متثاقلًا إلى جراند أوتيل.

دفعت الباب الدائري للفندق ودرت معه إلى الداخل. كانت هناك حلقات عديدة من السياح يرتدي أغلبهم الشورتات. وقفت لحظةً حتى ألفَت عيناي وَهَج الشمس، ثم رأيت عباسًا وسعيدًا في أحد الأركان ومعهما شاب نوبي نحيف.

قدَّمني عباس إلى النوبي قائلًا: الأستاذ صيام مفتش الآثار.

جلست في مواجهة القاعة أتأمَّل أفخاذ السائحات العارية، وسمعت النوبي يقول إنه سيتم إنقاذ جميع آثار النوبة ما عدا معبد «جرف حسين». سأله سعيد عمَّا إذا كان يستطيع الذهاب إلى «أبي سنبل» على باخرة الآثار، فتحوَّلت إليه قائلًا إني أيضًا أريد الذهاب.

قال إن هناك رحلةً بعد أسبوع ومن الصعب تدبير أماكن لنا عليها، لكنه سيحاول.

دار حديث بين الثلاثة حول جنسيات السائحات، ثم استأذن صيام في مغادرتنا فسألته عن كيفية الالتقاء به، فقال إنه يأتي إلى الفندق كل ليلة ليلعب البلياردو أما مكتبه نادي التجديف.

قال عباس: سيعذِّبكما قبل أن يدبِّر لكما مكانًا، لكن الباخرة هي الطريقة الوحيدة للسفر إلى «أبي سنبل» الآن.

سألته: هل تعرف شخصًا اسمه صبحي يعمل في الشركة؟

قال: سعيد حكى لي. صبحي هذا لا يعمل في الشركة وإنما في المباحث. لقد أردت أن أقابلكما هنا لأقول لكما إن المباحث تسأل عنكما.

قال سعيد: ليس لديهم عليَّ شيء.

قال عباس: لقد شوهدت معكما وربما يعرفون أني أعرف سعيدًا من مدة، ستحوم الشكوك حولي الآن.

قال: هذا لا يعنيني فلست أنا الذي وضعك في الاستراحة، لكن الأفضل أن تنتهيا من عملكما بأسرع ما يمكن وتذهبا.

سألته: هل تعرف شخصًا أصلع له شارب كث ويتناول طعامه دائمًا في الاستراحة؟

ضحك وأجاب: أجل أعرفه، إنه مهندس اسمه المجلاوي.

قلت: له علاقة بالمباحث أليس كذلك؟ لقد ضبطته يراقبنا بدقة.

قال وهو ما زال يضحك: أبدًا. لقد جاءني بالأمس قائلًا إن هناك اثنَين من رجال المخابرات في الاستراحة، وكان يقصدكما.

ابتسم سعيد للمرة الأولى في هذا اليوم، وأشار عباس إلى مجلة على المائدة قائلًا إن بها مقالًا لسعيد عن السد.

تناولت المجلة وقلَّبت صفحاتها حتى وجدت مقال سعيد. كان على صفحتَين بعنوان «رحلة في عز الصهد».

قلت إني أشعر بالجوع والتعب وأفكِّر بالانصراف، فقال سعيد إن هناك مطعمًا في الفندق. قلت إني أفضِّل الانصراف. قال إنه غير قادر على الحركة، وأشار إلى كتل اللحم المتناثرة حولنا، وأضاف: هذا يوم لن يتكرَّر فكيف نذهب؟ ثم إن لديَّ موعدًا في الثامنة مع الملاحظين الشبَّان، ألن تأتي معي؟

قلت: إني أود ذلك.

قال عباس إن زوجته سافرت إلى القاهرة هذا الصباح وإلا كان دعانا إلى الغداء في منزله.

قال سعيد إنه لا يشعر برغبة في الأكل.

قلَّبت صفحات المجلة، وتطلَّع عباس إلى باب المطعم وقال إنه مضطر للبقاء حتى الخامسة لأنه ضرب موعدًا لصحفية اسمها سامية.

قلت: سامية حسين؟ متى وصلت؟ وتطلَّعت إلى سعيد.

قال سعيد ممتعضًا: أمس.

نقلت بصري بينهما.

قال عباس: سعيد غاضب لأني سألتها اليوم عنه فقالت إنه لا يأخذ أكثر من أربعين جنيهًا في الشهر.

قال سعيد: أنا آخذ ثمانين كما قلت لك.

قال عباس: كيف تكون اشتراكيًّا وتسمح لنفسك بأن تأخذ هذا المبلغ؟

قال سعيد: أنت تأخذ مائتَين.

قال عباس: لم أقل أبدًا إني اشتراكي.

قلت إني سأتركهما إلى مكان أتناول فيه وجبةً رخيصة، فقال عباس إنه يدعونا للأكل على حسابه في مطعم الفندق.

انتقلنا إلى المطعم الذي كان مزدحمًا بالسياح، وقال عباس بعد أن جلسنا: لا أدري ماذا يريد الشيوعيون وقد بُنيت الاشتراكية؟!

قال سعيد: يريدون بناء الشيوعية. لن يهدأ لهم بال حتى يُقيموا دكتاتورية البروليتاريا.

جاءنا الطعام وانهمكنا في تناوله. سأل سعيد عمَّا سيفعله عباس بعد انتهاء السد.

قال عباس: سيكون هناك مشروع آخر، لكني سأترك الشركة.

قلت: وماذا ستفعل؟

قال: سأشتري قطعةً من الأراضي الجديدة التي ستروِيها مياه السد.

قلت: كنتُ أظن أنها ستُصبح مزارع حكومية.

قال وهو يُضيف قليلًا من الصلصة إلى طبقه: ده كلام.

واصلنا الأكل بصمت حتى تحوَّل إلى عباس وقال إنه يحتفظ بموضوعات قديمة كان سعيد ينقلها من الكتب ويقدِّمها لجمعية الخطابة في المدرسة على أنها من إنشائه.

قلت ضاحكًا إنه ما زال يفعل هذا إلى الآن.

بدا سعيد غاضبًا ولزم الصمت حتى انتهينا من الطعام. عدنا إلى البهو فوجدناه خاليًا، فانتقلنا إلى قاعة التليفزيون وكانت خاليةً هي الأخرى فيما عدا شاب أنيق يرتدي عوينات طبية تعرَّف على سعيد، وقدَّمه إلينا سعيد على أنه يعمل في حسابات الهيئة ويُدعى صفوت.

جذب عباس مقعدَين ووضعهما متقابلَين قائلًا إنه سينام قليلًا. فعلت مثله، وقال صفوت إنه يفضِّل الفرجة على السائحات في الردهة، فقال سعيد إنه سينضم إليه.

تمدَّدت على المقعدَين المتقابلَين إلى جوار عباس، وتناولت المجلة وبدأت أقرأ مقال سعيد. كان يبدأ بحديثٍ مع أحد وكلاء الوزارة المسئولة عن بناء السد حكى فيه كيف جاء إلى السد، وقال إنه شاهد ذات يوم فيلمًا عن أعمال البناء فانفعل للغاية ولم يستطِع النوم، ولم يهدأ له بال بعد ذلك إلا عندما نجح في الانتقال إلى أسوان ليُشارك في المشروع العظيم.

شعرت بصداع فوضعت المجلة جانبًا، وقال عباس إنه يريد أن يقرأ المقال، ومدَّ يده فتناول المجلة ووضعها على صدره دون أن يفتحها، وقال إنه عاجز عن القيام بأية حركة من شدة الحرارة.

سألني بكسل عمَّا إذا كنت قرأت صحف اليوم، فأجبت بالإيجاب.

قال بنفس اللهجة الكسولة: الدور الآن على الشيوعيين. أغلقت عينَي مرهقًا ولم أعلِّق.

* * *

جاء هواء الصباح من خلف القضبان الحديدية محمَّلًا برائحة البحر، وقال عبد السلام إن معدته تنقلب كلما حلَّ في الإسكندرية، وجعل يذرع الزنزانة رائحًا غاديًا وهو يضغط معدته بيده، وقال إن لم يفتحوا لنا الآن لنذهب إلى المراحيض سيفعلها في جردل البول، ورأينا من ثقب المفتاح سجينًا بالسروال السكندري ذي اللية يمشي على مهل وهو يجفِّف وجهه بمنشفة، وقلت إن دورنا لم يجِن بعد، فأسرع إلى جردل البول واستوى فوقه، واصطدم المفتاح في قفل الباب الحديدي بعنف، وانفرج عن عددٍ من الحُرَّاس يحملون أحزمتهم الجلدية في أيديهم انهالوا بها علينا وهم يصيحون بنا أن نتجرَّد من ملابسنا، وساقونا عرايا إلى الخارج حيث اصطفَّ عددٌ آخر منهم على جانبَي العنبر وقد أشرعوا أحزمتهم في أيديهم، وجعلونا نجري بين الصفَّين والأحزمة تنهال علينا، ثم أعادونا إلى الزنازين حيث دفَعَنا حارس عجوز للركن وقلب جردل البول الذي ملأه عبد السلام فوق جسدَينا، وبقينا عرايا نرتعش من البرد نحاول إزالة ما علق بأجسادنا من فضلات الجردل، ثم علا صوت الراديو بنشيد «وطني»، أعقبته موسيقى كلاسيكية. قال عبد السلام في حماسة إنها لبيزيه. وعندما اقتادونا إلى المحكمة كان بعضنا مُجلَّلًا بالأربطة البيضاء، وقالوا إنها شاهد على ما قمنا به من العدوان على الحراس العُزَّل، ولم يكن هناك غير المحامين ورجال المباحث والبوليس وبعض الأمهات والزوجات الحائرات، واهتزَّت أرداف المدَّعي السمينة

كما تهتز المرأة الحبلى، وسوَّى وشاحه الرسمي ولعلع صوته وقد أُضيف مجد جديد إلى سِجل أمجاده الحافل بقضايا الاحتيال والجواسيس والإخوان المسلمين، وفي الأعلى أسند الجنرال قائد الجيوش البرية خدَّه إلى راحته اليمنى مستمتعًا بما يجري وخلفه مساحات شاسعة من الأراضي وتاريخ من سطوة الإقطاع ومعارك وهمية لم تُطلق فيها رصاصة واحدة، وابتسم لأطفاله المورَّدين في بياض نسل الأتراك الذي جاء بهم ليشهدوا نهاية ثورة العبيد، وأسبل قاضي اليمين جفنَيه على إغفاءة سريعة بدت كالتفكير العميق؛ فمعاملات الاستيراد والتصدير تستهلك الجهد الكبير، ولم يرفع قاضي الشمال عينه عن صديقته الملوَّنة التي جلست في الصف الأول تشهد مدى سطوته، حتى انتصب الجسد الفارع داخل القفص، وعلا رأسه الذي لم تشوِّهه آثار الجدري عن مستوى القضبان، وحول أسنتها التفَّت أصابعه الطويلة، وكان عبثًا أن راح يجادل بالمنطق ويقول إنه لا يمكن أن يعادي حكومةً تبني السد.

* * *

فتحت عيني عندما أدركت أني لن أتمكَّن من الإغفاء، ولمحت طفلةً أجنبيةً تجلس على مقعد قريب وقد أحنت رأسها على مسنده ودلَّت ساعدَيها إلى الأرض، وما لبثت أن قامت وغادرت القاعة وهي تسير محنية الرأس يتدلَّى لسانها من فمها.

كان عباس نائمًا، وسمعتُ أصواتًا نسائيةً في الخارج فوقفت. سويت، ثم خرجت إلى البهو.

كان سعيد وصفوت يحتلَّان مقعدَين استراتيجيَّين. ذهبت إلى الحمام، ثم عدت إليهما وجلست بجوارهما مخدَّرًا. رأيت في يد صفوت عددًا من مجلة «لايف» حافلًا بصور فتيات يرتدين البكيني، وسمعت سعيدًا يحكي عن امرأة فخمة رآها في الفندق منذ أيام فحيَّاها فردَّت تحيته، وبينما كان يفكِّر في الخطوة التالية انضمَّ إليها دبوران مصريان أحدهما خفيف الدم سريع البديهة، والآخر صائد مدرَّب في الخامسة والأربعين يفيض رجولةً وثقة، وسمعهما يحاولان إقناعها بالذهاب لمشاهدة قبر آغاخان في ضوء القمر.

قال صفوت: أعرفهما؛ الأول: هو الكابتن عادل الطيار، والثاني: قائد سلاح الحدود.

قال سعيد: الآن استرحت؛ فماذا يملك أي رجل في مواجهة سلاحَين من أسلحة الجيش؟

لحظتُ فتاةً طويلةً في رداء منقَّط كجلد النمر يكشف عن ساقَين منسابتَين. كانت تجلس مع رجل وامرأة متقدِّمَين في السن، ويبدو على الثلاثة أنهم من الأمريكان. كانت نظرة عينَيها قصيرةً كمن تعوَّد على النظارة الطبية.

تطلَّعَت الفتاة باهتمام ناحية الباب، فاتجهت ببصري إلى هناك ورأيت عجوزًا أجنبيًّا يرتدي قميصًا مُخطَّطًا ويأتي بحركات غريبة. تقدَّم بحذر من مصراع الباب ودار معه إلى الخارج، وواصل المصراع دورانه، وإذا بالعجوز يقفز منه إلى الداخل وهو يلهث.

قال صفوت: مائة في المائة هذا الخواجا لوطي. وحكى عن خواجا آخر طلب من موظف الاستعلامات في الفندق قطعةً من اللحم النيئ خرج بها إلى النيل مع صنارته وعاد بسمكة طلب أن تُحفظ له في الثلاجة.

أقبل فوج من السائحين من الخارج ارتمَوا على المقاعد وهم يلهثون. كانت بينهم أفريقية حلوة ترتدي شورتًا أبيض. قال سعيد: إنها تُشبه القشطة السوداء. ووقفت أخرى فرنسية إلى جوار المروحة الكهربائية تجفِّف عرق شعرها، وانهارت ثالثة على مقربة مُكوِّمةً فستانها الواسع في حِجرها ومحدِّقةً أمامها بعينَين زائغتَين.

وقفت فتاة جلد النمر فجأةً واتجهت إلى السلَّم المؤدِّي إلى الطابق الأعلى. قال صفوت إن مشد صدرها انقطع وستصعد لتربطه. تابعتُ ساقَيها الرائعتَين وما تتضحان للعيان كلما ارتقت إحدى الدرجات، وعندما بلغَت نهاية السلَّم استدارت وألقت على وجوهنا المشرئبة نحوها نظرةً متفحِّصة.

همس صفوت شيئًا لسعيد، ثم هبَّا واقفَين، وتقدَّما من مائدة الأمريكيين فجلسا إليها، وما لبثا أن اشتبكا معهما في الحديث.

انضمَّ عباس إليَّ وجلسنا نتأمَّل ما يدور على المائدة القريبة. وظهرت الفتاة مرةً أخرى حاملةً مظلة، فوقف رفيقاها وغادر الثلاثة الفندق.

ظلَّ صفوت وسعيد في مكانَيهما وقد احمرَّ وجه الأول، وبعد قليل انضمَّا إلينا. قال صفوت وهو يجذب مقعدًا: لا تظنوا أني كنت خاملًا طول العام. وشرع يتحدَّث عن فتاة بلجيكية تعرَّف بها في حديقة النباتات.

تطلَّع عباس إلى ساعته وقال إن موعد سامية قد حان، فتوقَّف صفوت عن الحديث متسائلًا عن ماهية سامية هذه، وعندما عرف أنها صحفية قال إنها لن تأتي، ثم استأنف حديثه عن فتاة حديقة النباتات، وفي هذه المرة كانت فرنسية.

تحوَّل فجأةً إلى سعيد متسائلًا: هي سامية هذه حلوة؟

فكَّر سعيد لحظة، ثم قال: إنها سمراء نحيفة شديدة العصبية وأقرب إلى الرجال.

– متزوِّجة؟

– لا.

قال عباس: إنها شديدة عليك يا صفوت. لن تفلح معها.

قال سعيد: لا بأس من المحاولة.

قال صفوت: أنا مستعد لأن أراهنكم عليها.

ولج الفندق هندي طويل الشعر برفقة فتاة بيضاء متوسِّطة العمر ذات عينَين مجنونتَين، ثم ظهرت سامية تقترب منا في خطوات سريعة وهي تحرِّك يدَيها أمام وجهها طلبًا للهواء.

قالت بعد أن استقرَّت في مقعد أحضره لها صفوت إنها كانت في إدارة الشركة في الصباح ووجدتهم يقرءون مقال سعيد ويضعون خطوطًا حمراء تحت بعض سطوره، ثم أرسلوه إلى المباحث.

قال عباس: يحسن بهما أن يُغادرا الموقع في أقرب فرصة.

نقل صفوت نظره بيني وبين سعيد.

قال سعيد: لا أستطيع الذهاب قبل الفيضان.

قالت سامية في حِدة: ماذا؟ من حقِّهما البقاء حتى يُنجزا عملهما.

تطلَّعَت حولها قائلةً إنها تشعر بعطش شديد، فنادينا على النادل وأحضر لها كأسًا من الليمون، ذاقته، ثم وضعته على المائدة قائلةً إنه خفيف.

قال عباس: الخدمة هنا ليست ممتازة.

قالت: لكني طلبت ليمونًا فيجب أن أشرب ليمونًا. ونادت على النادل. جاء هذا بعد دقائق فأصرَّ على أنَّ ما أحضره لها هو ليمون حقيقي وأنه ليس بالفندق غيره.

صاحت سامية في غضب طالبةً مدير الفندق، وران علينا الصمت بينما تطلَّع الجالسون نحونا. اختفى النادل بكوب الليمون، ثم عاد على الفور بكوب آخر أكَّد لون ما فيه من سائل أنه ليمون حقيقي.

قالت سامية لسعيد إنها قضت بالأمس ليلةً ليلاء مع وكيل الوزارة الذي تحدَّث عنه في مقاله؛ فقد دعاها هو ومأمور البوليس لتناول العشاء في منزله، وعندما ذهبَت وجدتهما قد أحضرا زجاجة ويسكي، ثم حاولا تقبيلها، وقال لها وكيل الوزارة إنه مستعد لأن يتزوَّجها في الحال ويطلِّق زوجته، فقالت له إنه في سن والدها.

أراد صفوت أن يعلِّق لكن عباس اعترضه وروى كيف ثار مأمور البوليس في العام الماضي عندما ارتدَت مجموعة من الطلبة والطالبات الدنماركيين الجلاليب، فجمعهم وألقى فيهم محاضرةً عن الأخلاق، لكنهم صفروا له وسحبوا سجاجيد الفندق إلى الشارع وقضَوا فيه ليلتهم.

قال صفوت في استهانة مخاطبًا سامية: لست أفهم هذه الضجة التي تقيمها الصحف حول السد. المشروع ليس أكثر من عتالة كبيرة.

ردَّت سامية بحماسة: هذا غير صحيح. المشروع ضخم وفيه أشياء فنية من الدرجة الأولى؛ مثل قُطر الأنفاق، والقناة التي تمَّ حفرها في نفس الوقت الذي كان يجري فيه سد مجرى النيل، ثم التلبيس بالرمال الذي يطبَّق هنا لأول مرة.

قال صفوت: وماذا عن الغرين الذي سيحتجزه السد خلفه؟ سنزرع أرضًا جديدةً لتموت القديمة. المشروع أصلًا غلط.

قالت في حدة: أنا سألت بنفسي علماء كثيرين عن هذه النقطة، وكلهم قالوا إن الغرين يمكن تعويضه بالسماد، ثم إن الكهرباء التي سيولِّدها السد ستتيح لنا زيادة إنتاج السماد.

ظهر صيام النوبي أمامنا فجأةً وحيَّانا باهتمام. عرَّفه عباس بسامية فقال لها إنه على استعداد لأن يدبِّر لها رحلةً إلى «أبي سنبل»، ثم التفت إلينا قائلًا: والأستاذان أيضًا بالطبع.

قالت سامية إنها كانت تنوي البقاء حتى موعد الفيضان، لكنها تلقَّت مكالمةً تليفونيةً في الصباح تُحتِّم عليها العودة في الغد.

كرَّر صيام استعداده لخدمتها في أيِّ وقت، واستأذن منصرفًا. وتبادلت أنا وعباس نظرةً باسمة.

ولجَت الفندق مجموعة صاخبة من المهندسين الشباب، وقام عباس مرحِّبًا بأحدهم الذي كان أكثرَهم أناقة، وقدَّمه إلى سامية قائلًا إنه يعمل في خطوط الكهرباء. جذب صفوت مقعدًا للشاب الذي جلس إلى جوار سامية، والتفت بقية المجموعة بالمائدة المجاورة.

همس لي عباس أن الشاب يمت بصلة القرابة إلى رئيس مجلس إدارة الشركة ورئيس الاتحاد الاشتراكي فيها، وقالت سامية إنها تود أن تزور أحد مواقع بناء أبراج الكهرباء، فقال الشاب إنهم يعملون الآن بالقرب من «نجع حمادي»، وإنه على استعداد لأن يأخذها إلى هناك في سيارته.

سأله سعيد عمَّا إذا كانت هناك مشاكل مع الفلَّاحين بسبب اختراق الخطوط لأراضيهم في بعض الأحيان، فأجاب بالنفي وقال إنهم على العكس متحمِّسون للغاية ويسألون دائمًا عن موعد وصول الكهرباء، ثم أضاف: مرة انغرزَت سياراتنا في الرمال بالقرب من إحدى القرى، فخرجت القرية كلها لمساعدتنا.

لمحت سامية شابًّا أسمر يلج الفندق فصاحت مشيرةً إليه: هذا هو!

سألها مهندس الخطوط الأنيق: من؟

قالت بنفس الصوت المرتفع: كان حضرته يضع خطوطًا حمراء تحت سطور مقال كتبه الأستاذ سعيد، ثم بعث به بعد ذلك إلى المباحث.

بدت الدهشة على وجه المهندس الأنيق الذي تحوَّل يتأمَّل سعيدًا في إمعان، وفي هذه الأثناء كان الشاب الأسمر قد دنا منا وحيَّانا بأدب، فصاحت به سامية: ألَا يحسن بك أن تشغل نفسك بعمل له قيمة بدلًا من الكلام الفارغ الذي تقوم به؟

فوجئ الشاب ووقف لحظةً عاجزًا عن الإجابة، ثم قال: يا ست سامية أنا لم أفعل غير المطلوب مني.

أجابت سامية: إذن بلِّغ كلامي لأسيادك.

دوَّى صوتها في أنحاء البهو وتطلَّع إلينا الجالسون في دهشة، وتوقَّف الحديث في حلقة الشبَّان المجاورة لنا والْتفتوا نحونا. شعرت فجأةً أن حلقتنا قد خفَّت، ولمحتُ صفوت عند الباب مع بعض الشبَّان وسمعتهم يعلِّقون ضاحكين على صوت سامية وهم يغادرون الفندق: ونش.

تململ مهندس الخطوط الأنيق في مقعده قلقًا، ثم نهض واقفًا وقال: إنه مضطر للذهاب. وقام عباس مسرعًا قائلًا إنه سيرافقه، وبقيت أنا وسعيد بجوار سامية، وبدا سعيد واجمًا.

علَّق سعيد الكاميرا في كتفه وقال: لا بد أن ننصرف الآن لأن لدينا موعدًا.

قلت: ما زال أمامنا بعض الوقت. دعنا نبقى قليلًا.

أصرَّ سعيد على الذهاب قائلًا إننا لن نضمن الأوتوبيس.

قلت: ولكننا سنترك سامية بمفردها. لنبقَ معها قليلًا.

قال: ابقَ أنت إن أحببت.

قالت سامية: لا تقلقا عليَّ. اذهبا. أنا لديَّ موعد بعد قليل.

وقفنا وصافحناها، فقالت لسعيد: لا تعبأ بأحد، سأصنع أكبر ضجة في القاهرة ولن يستطيع أحد أن يمسك بشيء.

قال لي سعيد عندما غادرنا الفندق: آسف إذا كنت انتزعتك من صحبتها.

قلت: كان يمكن أن نبقى معها قليلًا.

قال: أنت تعرف أن لدينا موعدًا.

قلت: لكن ما زالت أمامنا ساعة.

قال: والمواصلات؟

قلت: الحقيقة أنك غاضب منها.

قال: هذا غير صحيح. كل ما في الأمر أني لا أستطيع أن أقضي وقتي كله مع هؤلاء الثرثارين وهذه الفتاة.

قلت: ماذا لديك ضدها؟

انفجر قائلًا: إنها تستطيع أن تتكلَّم هكذا لأنها غنية ولا يُهمها مرتبها، أمَّا أنا فلديَّ أسرة أعولها.

قطعنا بقية الطريق بصمت حتى بلغنا موقف الأوتوبيس، واعتمدت على حاجز حديدي شاعرًا بالإرهاق ولزوجة العرق في أنحاء جسدي.

فكَّرت في المغامرات التي تنتظرنا حتى نصل «السيل» ثم الاستراحة، وسألت سعيدًا أن يتأكَّد من وجود عنوان الشبَّان معه.

قال: أعتقد أنه معي.

قلت: لن تخسر شيئًا إذا ما تأكَّدت حتى لا نقوم بمشوار بلا فائدة.

قال: لست مستعدًّا للقيام بأي حركة في هذا الحر.

لزمت الصمت وراقبت ظهور الأنوار الكهربائية في المحلات، وتجمَّع شيء من البلغم في حلقي فبصقته في منتصف الطريق، وأخيرًا أقبل الأوتوبيس المخصَّص للسيل وهو روسي الصنع يتميَّز ببابٍ واحد عريض في منتصفه.

كان الأوتوبيس مزدحمًا، وعندما حاولنا الركوب أغلق أحد الركَّاب الباب في وجهنا قائلًا إن الحر في الداخل لا يحتمل.

عدنا إلى مكاننا في ضيق، ولمحت ماسح أحذية يقتعد الأرض على بُعد خطوات، فتقدَّمت منه ووضعت قدمي اليمنى على صندوقه، وعندما انتهى منها وهممت باستبدالها ظهرَت إحدى سيارات الركَّاب التابعة للهيئة والذاهبة إلى الموقع، فألقيت إلى الماسح بقرشَين وجريت إلى السيارة، وشققت طريقي داخلها خلف سعيد.

نزلنا أمام «السيل» بعد عشر دقائق فعبرنا الطريق الرئيسي، ثم سرنا في شارع ترابي إلى جوار صفٍّ من المجمَّعات السكنية الشبيهة بمجمَّعات الأحياء الشعبية في القاهرة. كان بعضها يبدو نظيفًا تبرز من جانبه أجهزة التكييف وتظهر في مداخله سيدات روسيات، وإلى يسارنا سوق حافل من الأكشاك التي تُضيئها المصابيح الكهربائية وتُباع فيها الخضراوات والفاكهة.

مررنا بمجموعة من السيدات الروسيات ازدحمن حول كشك يبيع الأعصرة، ثم انطلقنا إلى جوار فناء مُسوَّر أمام إحدى المجمَّعات جلست به سيدتان روسيتان فوق دكتَين، وعلى

دكة أخرى أمام المجمَّع المقابل اصطفَّ عددٌ من الشبَّان المصريين، وأقبلنا على فناء مُسوَّر آخر تحوَّل إلى مقهًى شعبي رُشَّت الأرض الترابية أمامه بالمياه.

كنا قد ابتعدنا عن منطقة السوق، واتجه سعيد إلى عمارة تجمَّعت أمامها الفضلات وظهرت القُلَل في شرفاتها.

صعدنا إلى الطابق الأخير، وطرق سعيد الباب لكن أحدًا لم يرد، فأخرج مفكِّرته من جيبه وتأكَّد من العنوان، ثم عاد يطرق الباب دون جدوى.

هبطنا الدرج وأنا أشعر بنوعٍ من الارتياح، وانطلقنا إلى الطريق الرئيسي ونحن نتعثَّر في الظلام.

وقفنا على جانب ننتظر، ومرَّت بنا سيارتان خاصتان تبعتهما بضع سيارات أخرى مسرعة، ولم يعبأ السائقون بنا رغم أننا كُنا نتقدَّم إلى عرض الطريق ونعترض كشافاتها قبل أن تقترب بمسافة.

دنا منا أحد الصعايدة الذي ظلَّ يرقبنا بعض الوقت، واقترح علينا أن نستقل القطار من المحطة القريبة، وقال إننا نستطيع اللحاق بالقطار الذي يُقل وردية المساء إلى الموقع. شكرناه وسرنا إلى حيث أشار، وما لبثنا أن سمعنا صوت محرِّك قطار فأسرعنا نجري حتى ظهرت المحطة، ورأينا القطار يدخلها.

لحقنا بالقطار قبل أن يستأنف المسير، وقفزنا إلى إحدى العربات. أدركت بعد لحظة أن القطار غارق في ظلام دامس.

تلمَّسنا طريقنا بصعوبة، وتعثَّرت بأحد الأجسام، فأخرجت علبة الثقاب وأشعلت عودًا رفعته إلى أعلى، والْتقت عيناي بعينَي صعيدي تُحيط برأسه لفافة بيضاء. أدرت العود حولي فرأيت الباحة الفاصلة بين العربتَين قد امتلأت بالعُمَّال الذين اقتعدوا الأرض وأسندوا رءوسهم إلى الجدار.

انطفأ العود فأشعل سعيد عودًا آخر، وشققنا طريقنا بين الأجسام المتراصة، وتقدَّمنا في الممر الذي يفصل بين صفَّين من المقاعد الخشبية.

عثرنا على مكانَين متجاورَين فجلست بجوار النافذة، وكان الظلام كثيفًا في الخارج لا يبين معه شيء.

سار القطار ببطء وقد ساد السكون أرجاء العربة، ولم يكن يقطعه سوى صوت تنفُّس العامل الذي يجلس في مواجهتي، وأدركت من نغمته أنه غارق في النوم.

ارتفع صوت بائع عرقسوس يُنادي على بضاعته في طرف العربة، ثم انقطع صوته وساد السكون من جديد.

أغلقتُ عينَي في مواجهة الحرارة الآتية من النافذة، وأسندتُ رأسي إلى حافة المقعد، وعندما فتحتهما بعد قليل رأيت أضواء الموقع تملأ الأفق.

* * *

الفصل الرابع

توقَّفت سيارة «الفولجا» أمام مبنًى من طابقَين أشبه بالمدرسة، وجذبت قماش سروالي الذي الْتصق بفخذي من العرق مغادرًا السيارة في أعقاب ياكونوف. ولجنا مركز التدريب الذي يتحوَّل فيه آلاف المصريين إلى عُمَّال مَهَرة، وانطلقنا في رُدهة طويلة إلى غرفة المديرة.

استقبلتنا امرأة ضخمة ذات وجه جامد لا يعرف الابتسام. قال ياكونوف وهو يقدِّمها لنا: إنها مهندسة ولها في بلادنا عدة شهور.

سألها سعيد عمَّا إذا كانت تعيش مع أسرتها، فاحمرَّ وجهها وقالت إنها بمفردها، ثم أضافت بعد لحظة أنها فقدت زوجها في الحرب وليس لها أطفال.

ران علينا الصمت، وهربتُ بعينَي إلى صورة لينين المعلَّقة على الحائط فوق رأس المديرة.

اقترح ياكونوف أن نبدأ جولتنا في أنحاء المركز، وتبعنا المديرة إلى فصول التدريس. كان أغلب المدرِّسين من المصريين، أمَّا الطلبة فكانوا من مختلِف الأعمار والمِهَن، وكانت الموضوعات التي تُدرَّس لهم متباينةً تمامًا؛ من تركيب الآلات المستخدمة، إلى المواد المكوِّنة لسائل الحقن.

التقط سعيد عدة صور للفصول، وفي كل مرة كان المدرِّس يستمهله حتى يجلس العُمَّال في نظام، ويجعلهم يركِّزون أنظارهم في اهتمام على يدَيه وهي تُشير إلى رسمٍ ما على السبورة.

عُدنا إلى مكتب المديرة، ووجَّه سعيد إليها عدة أسئلة عن انطباعاتها في مصر، وأسرع يسجِّل قولها إن العُمَّال المصريين يمتازون بالذكاء، وإن الطيور تأتي من الاتحاد السوفياتي كل عام دليلًا على الصداقة.

غادرنا المركز إلى السيارة، وتمهَّل ياكونوف بجوارها يتأمَّل سحابةً من الغبار صفراء اللون تجمَّعت في الأفق، ثم قال إن الجو يسوء من يوم إلى آخر مع اقتراب موعد الفيضان.

انطلقت السيارة في اتجاه الموقع، وقال ياكونوف إنه سيأخذنا إلى أحد المراكز التي تُشرف على حركة العمل اليومي، ثم يتركنا هناك ويعود إلى مكتبه.

قال سعيد إننا نود أن نعرف كيف يعيش الروس في منازلهم، فقال ياكونوف في خجل إنه يدعونا إلى منزله في الغد.

قال سعيد إن هذا رائع، وإنه سيكتب موضوعًا مثيرًا عن هذه الزيارة؛ ولهذا من الأفضل أن يكون هناك عنصر نسائي.

نظر إليه ياكونوف في خُبث وقال في إنجليزيته الركيكة: ليتك ذكرت هذا ونحن في المركز؛ كنا دعونا المديرة.

سارع سعيد قائلًا: لا. ثم ارتبك وسكت، بينما انفجر ياكونوف ضاحكًا.

قال: من تقترح إذن؟

قال سعيد: ربما إحدى الفتاتَين اللتَين رأيناهما في مكتب أبراسيموف. الشقراء مثلًا.

قال ياكونوف: سأقول لها وإن كنتُ أشك أنها ستقبل، ثم إنها لا تتكلَّم الإنجليزية جيدًا. إنها أسوأ مني.

– لكننا قادرون على التفاهم معك.

– سأُحاول، والأفضل أيضًا أن أبحث عن مترجم يكون معنا. ربما قبلت الفتاة الأخرى المجيء.

سألت تانيا؟

قال: أجل؛ فهي تُجيد الإنجليزية وتعمل مترجمة.

أعطانا العنوان قائلًا إن المنزل لا يبعد عن النادي الروسي في «كميا». كنا قد بلغنا جسم السد وانطلقنا فوقه، وفجأةً أوقف السائق السيارة، ورأينا طابورًا من سيارات «الماز» يسد الطريق.

غادر السائق السيارة وعاد بعد قليل فتحدَّث إلى ياكونوف، وأوضح هذا لنا أن إحدى الشاحنات انغرزت في الأرض المبلَّلة.

أصبح الجو خانقًا داخل السيارة فغادرتها ووقفت إلى جوار إحدى الشاحنات المحمَّلة بالرمال. كان العادم ينطلق من مؤخِّرتها في سُحب كثيفة، بينما سائقها يحاول الخروج بها من الطابور.

نجح السائق أخيرًا في التحوُّل إلى اليمين، وتقدَّم في طريق غير ممهَّد يأخذ في الانحدار، ثم استدار ناحية اليسار حتى أصبح يواجهنا، وتراجع إلى الخلف بمؤخِّرة الشاحنة التي تجمَّع الدخان الأسود فوقها. ورأيته في مكاني ينحني إلى الأمام ويجذب شيئًا في جهد. وما لبث صندوق الشاحنة أن أخذ يرتفع حتى استقرَّ في وضعٍ رأسي فوقها، وانهمرت حمولتها في ضجة مثيرةً موجةً من الغبار.

أشار أحد الملاحظين للسائق فشرعت «الماز» تتحرَّك إلى الأمام وما زال صندوقها معلَّقًا في الهواء، ثم انطلقت خفيفةً وصندوقها يهبط رويدًا حتى عاد إلى وضعه، ومن الناحية الأخرى اتجه أحد البلدوزرات إلى كوم الرمال الجديد وقد ارتفع درعه الأمامي العريض عن سطح الأرض، ولمع سطحه المعدِني في ضوء الشمس. وتوقَّف البلدوزر أمام كوم الرمال، وهبط درعه حتى استقرَّ على الأرض، ثم عاود التحرُّك وزحف مكتسحًا الرمال بدرعه.

انفتح الطريق أخيرًا وعُدت إلى «الفولجا». استأنفَت السيارة سيرها فوق جسم السد حتى نهايته فانطلقت في طرقات ملتوية، ثم توقَّفت أمام مبنًى خشبي.

ولجنا مكتبًا تغطِّي الخرائط جدرانه، وقدَّمنا ياكونوف إلى مهندس روسي أحمر الشعر شديد الهدوء، استمع إليه في اهتمام مدةً طويلةً تكفي لعرض تاريخ حياتنا، ثم سلَّمَنا بدوره إلى مهندسٍ آخر أسنانه كلها معدِنية ويعرف الإنجليزية. وانصرف ياكونوف بعد أن أكَّد علينا أن نذهب إلى منزله في الغد.

جلستُ على مقعد يواجه مروحةً كهربائية، وانكبَّ سعيد على عديدٍ من القوائم والخرائط أحضرها ذو الأسنان المعدِنية. كان بعضها خاصًا بمعدلات ما يتم إلقاؤه فوق جسم السد من صخور ورمال وطمي في كل وردية.

قال ذو الأسنان المعدِنية: الردم هو آخر العمليات في بناء جسم السد، وهو يعني إلقاء الصخور والرمال، ثم تسويتها بالبلدوزرات ودكها بعد ذلك بالهرَّاسات.

دخل الغرفة عاملان أحدهما روسي والآخر مصري، واتجه الروسي إلى المهندس ذي العُوينات وتحدَّث إليه شاكيًا من شيء ما.

انحنى المصري على مكتبِ ذي العُوينات وقال في مزيج غريب من العربية والروسية: موجنا كلام؟

ابتسم ذو العُوينات وقال: موجنا.

قال العامل: يا ميكانيكي نييت رابوتشي ... ولم يُسعفه لسانه بالمزيد فحرَّك يدَيه في إشارة غامضة.

تحوَّل العامل الروسي إلى زميله المصري غاضبًا وقال: شيف كلام كل رابوتي.

هزَّ ذو العُوينات رأسه مؤمنًا، وبسط أصبعَين من يده اليمنى، ثم ضمَّها إلى بعض بشدة وقال: كل رابوتي سوا سوا.

لم يقتنع ابن بلدنا وكرَّر: يا ميكانيكي نيت رابوتشي. ثم هزَّ كتفَيه واستدار مغادرًا الغرفة.

استفسر سعيد من ذي الأسنان المعدِنية عن الأمر فقال في حرج: إن الميكانيكيين المصريين يترفَّعون عن القيام ببعض العمليات البسيطة التي يُعهد بها عادةً إلى العتَّالين. وكان الملاحِظ الروسي يطالِب بإمداده بعتالين مصريين.

دوَّن سعيد بعض الأرقام والبيانات في مفكِّرته وغادرنا المكان. وقفتُ في مدخل المبنى أثبِّت قبعتي على رأسي وأتأمَّل الجو المكفهر، وقال سعيد ونحن نخطو إلى الطريق إن الحرارة بلغت حدًّا لم يعد يُحتمل.

بلغنا مرتفعًا من الأرض يُشرف على ممرَّي التفتيش من بعيد. كانت هناك عدة بلدوزرات تتحرَّك في اتجاهات مختلفة فوق مساحةٍ من الرمال مكتسحة أمامها أكوام الرمال تاركةً خلفها خطوطًا عريضةً ممهَّدة، تحف بها على الجانبَين خطوط رفيعة من الرمال العالية.

التقط سعيد عدة صور للبلدوزرات والخطوط العريضة المتوازية التي تصنعها، وتحوَّلنا نبحث عن طريق تمضي فيه السيارات. سرنا مسافةً دون أن نُصادف طريقًا مطروقًا، ومررنا بجوار مساحة واسعة امتلأت بالشبكات الحديدية التي عكف عليها عدد من عُمَّال اللحام، ولمحنا سيارة جيب تهم بالتحرُّك فجرينا نحوها، وكان السائق قد لمحنا فانتظر حتى لحقنا به وأقلَّنا حتى المستشفى.

أكملنا الطريق إلى الاستراحة سيرًا على الأقدام، وعندما أوشكنا أن نبلغها اقترح سعيد أن نمر على عباس فذهبنا إليه.

قال عباس عندما رآنا البوليس الحربي حاصر الجاراج منذ نصف ساعة واعتقل أحد الميكانيكيين.

وضع سعيد قُبَّعته على المكتب وسأل: إخوان؟

هزَّ عباس رأسه وقال: لا أحد يعرف السبب بعد.

وتطلَّع من النافذة، ثم أضاف: هل بقي أمامكما وقت طويل حتى تنتهيا؟

قال سعيد: ما زال أمامي الفيضان وفتح الأنفاق، وبعد ذلك سنقوم برحلة إلى «أبي سنبل»، ثم أعود إلى القاهرة.

قال عباس: رأيي أن تذهبا إلى المباحث وتتكلَّما معهم.

تناول سعيد قبعته ووضعها على رأسه قائلًا: سنفكِّر بالأمر.

سألنا عباس ونحن نتأهَّب للانصراف: هل سافرَت سامية؟ أمس هبَّت عاصفة رملية ربما تكون عطَّلتها.

أجبت: لا، لقد سافرت فعلًا.

غادرنا المكتب وسرنا أسفل أشعة الشمس الحامية حتى الاستراحة. قال سعيد ونحن نقطع الردهة الكابية الضوء المؤدِّية إلى غرفتنا: أُراهن أن مقابلاتنا مع الروس ستُسبِّب لنا المشاكل. ربما كان يجب أن نذهب إلى المباحث ونتفاهم معهم.

قلت: أنا لن أذهب متطوِّعًا.

دخلتُ الغرفة فتناولت منشفةً وأسرعت إلى الحمَّام. خلعت ملابسي وعلَّقتها خلف الباب، وعندما وقفت في حوض الاستحمام وأدرت الصنبور اكتشفت أن المياه مقطوعة.

ارتديت ملابسي من جديد وعدت إلى الغرفة. كان سعيد منحنيًا أمام جهاز التكييف يعبث بأزراره، وقال عندما رآني إن الجهاز مُعطَّل.

قلت: ربما عبث به أحد.

غادرنا الغرفة بحثًا عن فقير، ووجدناه على باب المطعم. قال إن المياه مقطوعة منذ ساعتَين بسبب عطل في الأنابيب الرئيسية، ووعد بأن يأتي لنا بكهربائي لإصلاح جهاز التكييف.

ولجنا المطعم فوجدناه مزدحمًا بالآكلين الذين أقبلوا على طعامهم في صمتٍ تام. جلسنا إلى مائدتَين متباعدتَين، وما لبثتُ أن سمعت شخصًا خلفي يقول إن أحد العُمَّال مات بالحمَّى المخية، فعارضه آخر قائلًا إنها كوليرا، ثم ساد الصمت من جديد.

وجدنا المياه ما زالت مقطوعةً عندما أردنا أن نغسل أيدينا، وعدنا إلى الغرفة فبدأ سعيد يخلع ملابسه، واكتشف أن سرواله تلوَّث بالشحم، فقلت إنه بالإمكان تنظيفه هنا، فقال إنه لن يغسله وسيحتفظ به كما هو للذكرى.

قلت: أو تصوِّره وتستخدم الصورة في إحدى المقالات.

لم يعلِّق وانهمك في طيِّ السروال بعناية شديدة، ثم أودعه حقيبته واستلقى على فراشه يدخِّن.

فكَّرت بمطاردة الذباب وإغلاق النافذة، لكني عدلت عن ذلك بسبب الحرارة، فاستلقيت على الفراش بملابسي الداخلية، وما لبث الذباب أن تجمَّع حولي فحاولت طرده باليد، لكنه كان يحط على جسدي من جديد ملتصقًا به في عناد.

فرغ سعيد من سيجارته وأعطى وجهه للجدار واضعًا ساعده على وجهه في محاولة للنوم. قمت فطاردت الذباب بمنشفة حتى أخرجت أسرابه من النافذة، فأسرعت بإغلاق مصاريعها، وساد الغرفةَ ظلامٌ مريح.

استلقيت على الفراش باسطًا ساقَي على سعتها، وبعد قليل صار جو الغرفة خانقًا، فأعدت فتح النافذة، وعاد الذباب يلتصق بجسدي. جذبت ملاءة الفراش فوقي، لكني ابتللت من العرق وكدت أختنق، فألقيت بالملاءة جانبًا وغفوت لحظات، ثم تنبَّهت على إلحاح الذباب فوق وجهي، فطردته بعيدًا وجذبت الملاءة فوقي، وغفوت مرةً أخرى، وحلمت أن الصفحة الأولى من الجريدة مُلوَّثة بالشحم، وأن اسمي منشور في صدرها، ثم حلمت بأني آخذ قرص أسبرين، وفتحتُ عينَي شاعرًا بصداعٍ عنيف.

أنزلت الملاءة حتى ساقي فقط، واستدرت ناحية الجدار، ثم طويت ساعدي وغطَّيت بهما وجهي وسرعان ما غفوت.

حلمت بأبي يُعطيني موعدًا في السابعة إلا ربعًا لأتسلَّم منه أشياء خطرةً لعلها كانت منشورات سرية، وكان يحدِّثني بصوت رصين وأنا في عجب ممَّا طرأ عليه من تغيير رفعه إلى مستوى هذه الأشياء. كان وجهه أسمر غير كامل الملامح وقد ارتدى بذلته السوداء ذات الصديري، وفي الساعة السادسة اكتشفت مصادفةً أن هناك من يتعقَّبني، وفكَّرت بألَّا أذهب إلى أبي كي لا أعرِّضه للخطر، لكن كيف أتركه في الشارع بالأشياء التي يحملها؟ وقرَّرت أن أتخلَّص ممن يتعقَّبني في الأزقة المجاورة.

مضيت أنتقل من زقاق إلى آخر وأنا أتطلَّع خلفي باستمرار، وفجأةً جذبني صبي صغير من يدي مشيرًا إلى باب أمامي، وقال إني لو دخلت منه وأغلقته خلفي وضغطت على شيء بالداخل سيتساقط منه الماء. سألته عن البيت فقال إنه قصر مهجور. وقادني إلى الداخل حتى بلغنا سُلَّمًا تتدلَّى منه نباتات خضراء متهرِّئة، ولسبب ما شعرت بالرعب، وقال الصبي إن أحدًا لا يصعد إلى أعلى. تطلَّعت إلى ساعتي فوجدت أنه لم تعد أمامي سوى ربع ساعة على موعد أبي، فأسرعت أُغادر المنزل، ورأيت رجلَين ينتظراني في نهاية الزقاق، فأدركت أنهما اللذان كانا يتعقَّباني، فعُدت أدراجي بحثًا عن النهاية الأخرى للزقاق، وإذا بي أجده مسدودًا.

استيقظت على قرع الباب، وقام سعيد يفتحه فرأيت فقيرًا ومعه شاب يحمل حقيبةً حديدية. قال فقير إنه أحضر الميكانيكي الذي سيصلح الجهاز، فأفسح لهما سعيد الطريق وتقدَّم الميكانيكي من الجهاز، ثم ركع أمامه واضعًا حقيبته على الأرض.

عاد سعيد إلى فراشه مستفسرًا من فقير عن المياه، فقال هذا إنها لم تعد بعد. ودلَّيت قدمَي من حافة الفراش وجعلت أرقب الميكانيكي وهو ينتزع المسامير المثبتة في واجهة الجهاز، وعندما انفصلت الواجهة وضعها بعيدًا، وتبادلت نظرةً سريعةً مع سعيد.

ظَلِلنا نرقب الميكانيكي بدقة حتى انتهى من عمله وأعاد للجهاز واجهته، وسرعان ما تردَّد طنينه كالعهد به، وانتشرت البرودة المنعشة في أرجاء الغرفة.

قال فقير وهو يتأهَّب للانصراف إن العقارب ظهرت، وعلينا أن نأخذ حذرنا ونُحكم إغلاق النافذة والباب. طلبت منه أن يبحث لي عن قليل من الماء بأية طريقة، فأحضر لي كوبًا ابتلعت به قرصًا من النوفالجين.

تناول سعيد أغطية فراشه ونفضها في الهواء ليتأكَّد من خلوها من العقارب. تطلَّع أسفل فِراشه وفي أركان الغرفة، وفعلت المثل بفراشي، ثم تناولنا منشفتَين وطاردنا الذباب وأغلقنا النافذة.

في السادسة سمعنا صوت فقير في الفناء يهلِّل مُعلنًا عودة المياه. قال سعيد إننا نستطيع اللحاق بالسيارة الذاهبة إلى أسوان، وسألني إن كنتُ أُحب أن أُرافقه، فقلت إني لا أمانع.

سبقت سعيدًا إلى الحمَّام، وعدت إلى الغرفة فأخرجت قميصًا نظيفًا من الصوان ونفضته بعيدًا عني عدة مرات، ثم ارتديته، وفعلت المثل بالبنطلون.

غادرنا الاستراحة إلى جو أصفر مشحون بالأتربة، ولحقنا بسيارة السابعة إلا ربعًا المخصَّصة للمهندسين. جلسنا خلف كهلَين متأنقَين كانا يتبادلان حديثًا هادئًا به شيء من الكُلفة، وكان أحدهما يرتدي عُوينات طبيةً سميكةً سوداء اللون، وتتصاعد منه رائحة عطر أولد سبايس.

منع السائق عدة شبَّان من الركوب وهو يصيح بصوت رفيع ناعم: المهندسون فقط. وعندما أراد أحدهم الاحتجاج هاج وصاح بصوته الرفيع: إن كل إنسان يجب أن يعرف مكانه!

انطلقت السيارة والسائق مستمر في حملته على أنصاف المتعلِّمين وكل من هبَّ ودبَّ ممن يظن بعد قليلٍ من التدريب أنه ارتفع إلى مستوى المهندس. وعندما بلغنا أسوان نزل المهندسان الكهلان أمام «جراند أوتيل»، ونزلنا نحن أمام نادي التجديف.

جلسنا في الشرفة الدائرية التي تُضيئها مصابيح كابية، وأحضر لنا النادل زجاجتَين ساخنتَين من البيرة. كان الجو مكتومًا ساكنًا ليست به نسمة واحدة من الهواء. شربنا

في صمت ونحن نتطلَّع إلى الشاطئ الآخر الذي اختفى في الظلام خلف غمامة من الغبار، وتسلَّلت رائحة الرمال إلى أنفاسي، وعاد الصداع إلى رأسي.

غادرنا النادي بعد قليل ومشينا في اتجاه «جراند أوتيل». كانت أضواء مصابيح الكورنيش والحوانيت توشك أن تختفي خلف الغمامة الصفراء، وعندما بلغنا الفندق رأينا أمامه أوتوبيسًا سياحيًّا، ولمحنا خلف إحدى نوافذه جانبًا من بارٍ ذي أضواء حمراء خافتة ازدحم بخليط من المصريين والأجانب.

دفعت الباب الدائري وسعيد في أعقابي، ولمحت المهندسَين الكهلَين في البهو يتابعان مجموعةً من السائحات العجوزات تجمَّعن حول أعمدة المراوح الكهربائية. مضينا في الردهة المؤدية إلى البار، ومررنا بغرفة البلياردو حيث كان صيام يلعب مع شخص أوروبي جلسَت فتاته كالملكة تتفرَّج عليهما.

لم نجد مكانًا في البار إلا إلى جوار اثنَين من المصريين لمحت أحدهما من قبلُ عدة مرات في الفندق. كانا يتبادلان حديثًا هامسًا وهما يتطلَّعان إلى فتاة أجنبية تجلس إلى منصة البار.

كانت الفتاة ممشوقة القوام معتدةً بنفسها، وكانت تتحدَّث مع شاب مصري يقف إلى جوارها، ورأيته يطلب لها كأسًا من الويسكي جرَعَته دفعةً واحدة. كان الشاب قصيرًا تصدر عنه حركات كوميدية. وتعرَّف سعيد على الفتاة قائلًا إنها تعمل في شركة سياحية أجنبية وتأتي دائمًا مع المجموعات السياحية.

أحضر لنا النادل زجاجتَين من البيرة، وجعلنا نتأمَّل الجالسين في أنحاء القاعة الخافتة الضوء، وراقبت فتاةً شقراء كانت تحتسي كأسها دون أن ترفع عينَيها عن قاعه.

قام رفيقانا فجأةً وانضمَّا إلى الشاب القصير ذي الحركات الكوميدية، ورأيتهما يطلبان للفتاة كأسًا جديدًا من الويسكي، وترامت إلى سمعنا بضع كلمات من حديثهما، وكانا يتحدَّثان بإنجليزية ركيكة.

فرغَت زجاجاتنا فدفعنا حسابنا وعدنا إلى البهو، وانتحينا ركنًا إلى جوار المروحة العمودية، وكان المهندسان الكهلان ما زالا في مكانَيهما.

كان ثمة تقويم سنوي على الحائط المجاور لي تتوسَّطه صورة كبيرة لمعبدَي «أبي سنبل»، وفي الركن العلوي من الصورة كانت هنا صورة مكبَّرة لواجهة المعبد الكبير وحده ظهرت فيها تماثيل رمسيس الأربعة العملاقة بوضوح وقد سقط رأس التمثال الثالث عند قدمَيه.

نقلت بصري بين الرءوس الثلاثة التي تحمل نفس الابتسامة، ثم تحوَّلت أشرب البيرة التي طلبها سعيد، وأبصرت بالفتاة الشقراء التي كانت تجلس في البار تتقدَّم ناحيتي ثم أولتني ظهرها، ووقفَت تتأمَّل صورة المعبدَين، وانحدر بصري فوق ردائها القصير إلى ساقَيها المتناسقتَين اللامعتَين، وتابعت قطرة عرق انزلقت على فخذها، ثم ساقها التي خلت من الشعر.

مضت الفتاة إلى قاعة التليفزيون، وظهرت الفتاة الأخرى التي كان الشبَّان الثلاثة يُعاطونها الويسكي في البار. كانت تتقدَّمهم حاملةً سيجارةً في يدها، وجلس الأربعة وسط البهو، وكفَّ الكهلان عن الحديث وتحوَّلا يرقبان الفتاة ورفقاءها.

أخذ بقية السائحين الذين كانوا في البار يتوافدون على الفتاة يطلبون منها حبوبًا منوِّمة، وسمعناها تشرح لهم برنامج الغد بالفرنسية.

ظهر صيام في مدخل البهو، وتطلَّع ناحيتنا، ثم حوَّل بصره بعيدًا، فقمت إليه. قال بعد أن تصافحنا: تعرف طبعًا أن سامية سافرت أمس؟ أجبت بالإيجاب وسألته إذا كان قد حجز لنا على باخرة «أبي سنبل».

قال: الرحلة تأجَّلت.

قلت: ومتى تتم؟

هزَّ كتفَيه وهو يتطلَّع إلى حيث جلس المصريون الثلاثة حول الفتاة الأجنبية، ثم قال: في خلال أيام. سأحجز لكما بالتأكيد.

عاد صيام إلى الداخل بعد أن وجَّه التحية إلى الشبَّان الثلاثة، ورأيت سعيدًا يُغادر مقعده فمضينا إلى الخارج معًا. مشينا متثاقلَين من أثر البيرة والحر في الطريق إلى ميدان المحطة، ورأينا فتاةً مصريةً تسير بمفردها على الرصيف وخلفها ثمانية شُبَّان. قال سعيد عندما حاذيناها إنها قاهرية بالتأكيد وغير جميلة وإلا ما جاءت إلى هنا.

عبرنا الميدان إلى موقف سيارة المهندسين، ولحقنا به قبل موعد تحرُّكه بدقائق. كان الجو خانقًا داخل السيارة، وجلست معتمدًا برأسي على مسند المقعد الأمامي.

تحرَّكت السيارة بعد ربع ساعة وتوقَّفت عدة مرات في الطريق لتلتقط رُكَّابها، وتوقَّفت مرةً أخرى أمام «جراند أوتيل» لتأخذ المهندسَين الكهلَين، ثم استأنفت السير إلى الموقع.

بدا الطريق مكفهرًّا كأنما يُغلِّفه الضباب. كانت أنواره تكاد تختفي تمامًا تحت غلالة صفراء، وكانت استراحتنا هي الأخرى مُغلَّفةً بنفس الغلالة.

أويت إلى الفِراش على الفور ونمت نومًا عميقًا دون أحلام. استيقظت في الصباح على صوت فقير، وسمعته يقول إن الموتى يتساقطون في كل مكان.

اعتدلت جالسًا متسائلًا عمَّا حدث.

قال: محدش عارف. يمكن تكون كوليرا.

أفطرنا بسرعة وذهبنا إلى عباس نستوضحه جلية الأمر، فقال إن أحد عُمَّال الخرسانة سقط ميتًا في الفجر بعد ارتفاع مفاجئ في درجة حرارته. كما وُجد بائع الفول المواجه لمنزله في أسوان ميتًا بجوار عربته. سأله سعيد عن رأي المسئولين فهزَّ كتفه وقال: رأيهم أنها ضربة شمس.

سألته عمَّا إذا كان هذا حدث من قبل.

قال: أبدًا. أقصد فيه ناس كانت بتموت بضربة الشمس. يمكن واحد كل شهر. أمَّا بالجملة هكذا …

قلت: ربما كان هناك وباء من نوع ما. كوليرا مثلًا.

قال: لكن المصابين بالكوليرا أو الحمى المخية لا يموتون هكذا في ثوانٍ.

قلت: والأطباء؟ ماذا يقولون؟

قال: لا أعرف. الأطباء معظمهم في إجازة، والإصابات الآن محصورة في نطاق العُمَّال والصعايدة، وهؤلاء سيواجهون الموت بشعار العمر واحد والأجل محدود.

قلت: وإذا انتقلت إلى المهندسين وكبار الموظفين؟

قال: عندئذٍ تقع ثورة.

تطلَّعت من النافذة إلى الجو المترَّب، وفكَّرت بهذا الشيء الغامض الذي يشن هجومًا خاطفًا في أماكن مختلفة بين أسوان والموقع.

قلت: ربما كانت ثمة علاقة بين عاصفة اليومَين الماضيَين وما حدث.

لم يعلِّق أحد، ونهض سعيد مقترحًا الذهاب إلى المستشفى، وقال عندما صرنا في الطريق: إذا اتضح أن هناك وباء ما سأعود إلى القاهرة فورًا.

قلت: تكون مخطئًا.

قال: لست مستعدًّا للتضحية بحياتي.

قلت: ولو قالوا انك رحت شهيد واجبك الصحفي؟

– ولو جعلوا مني بطلًا وطنيًّا.

– و«أبو سنبل»؟

– في داهية.

مشيت إلى جواره في صمت مطرق الرأس، وعندما اقتربنا من المستشفى قلت: أنا أيضًا غير مستعد للتضحية بحياتي، لكني سأبقى.

قال: هأ ... تُريد أن تبقى مع الجماهير حتى النهاية؟

قلت: وما قيمة هذا؟

قال: إذن لماذا؟

قلت: ربما كنت أُريد أن أرى ما سيحدث.

استقبلَنا الطبيب المناوب في اهتمام، وقال لنا إن عدد الموتى الحقيقي بلغ اثنَي عشر، لكن أحدًا لا يعرف على وجه التحديد حقيقة الأمر.

سألت: ليست كوليرا؟

هزَّ رأسه: ليست كوليرا؛ فليس ثمة قيء أو إسهال في الأعراض السابقة على الوفاة، كما أنها ليست حمَّى مخية لأنه لا يوجد تصلُّب في الرقبة، ولا تيفود.

قال سعيد: إذن ماذا؟

هزَّ الطبيب كتفَيه: ربما مالاريا كواحدة خبيثة شهدتها في اليمن، أو إنفلونزا، أو مجرَّد ضربة شمس.

– وماذا نفعل للوقاية؟

ابتسم الطبيب: لا شيء؛ فلسنا نعرف وقايةً ضد ماذا.

طرق الممرِّض الباب قائلًا إن هناك طفلًا أحضروه وحرارته ٣٨,٥. وعلَّق الطبيب: الناس تأتينا هنا بعد أن تكون قد انتهت. في الصباح أحضروا عاملًا أُصيب بنزيف، وبالمصادفة كشفت درجة حرارته فوجدتها ٤٠°.

قال سعيد: إذن ارتفاع الحرارة علامة هامة؟

قال الطبيب مفكِّرًا: بالطبع، والعملية تستمر يومًا على الأقل بحيث تستطيع أن تلحق نفسك. على العموم لا بد من وقف وردية الظهر لأن العمل في الشمس فظيع. أمس كانت درجة الحرارة ٦٠ وهي كذلك اليوم.

قلت: الصحف تقول إنها ٤٤.

قال سعيد: يجب إذن ألَّا نسير في الشمس.

قال الطبيب: ضربة الشمس غير مرتبطة أساسًا بالشمس، وإنما بالارتفاع العام في درجة الحرارة.

تحسَّست جبهتي خلسةً وخُيل إليَّ أنها ساخنة عن المعتاد.

سألت الطبيب عن العلاج فأجاب باسمًا: شيء واحد هو حوض من الثلج.

سأل سعيد: والروس؟

قال: لم تحدث بينهم أية إصابات حتى الآن. هم يُعنَون برجالهم عنايةً شديدةً ويتخذون إجراءات وقاية صارمة.

تركنا الطبيب وعدنا إلى الاستراحة. شعرت بساقَي سائبتَين عندما دخلنا غرفتنا، فاستلقيت على الفراش بملابسي، وأدركني الخوف فجأةً عندما فكَّرت أن الدائرة يمكن أن تدور عليَّ. لم تكن فكرة الموت قد خطرت ببالي من قبل رغم أني رأيته يحدث للآخرين. وفكَّرت أن أسوأ ما في تجربة كهذه ألَّا يُتاح للمرء أن يتحقَّق من سلامة فكرة أو فكرتَين في رأسه.

تطلَّعت حولي فلمحت كتاب «ميكل أنجلو». تناولته وجعلت أقلِّب الصفحات المصوَّرة وتوقَّفت عند تمثال الشفقة.

* * *

«العذراء وابنها مرةً أخرى، لكنه هذه المرة لم يعد طفلًا. ها هو الرجل الذي كان الجثة المصلوبة وقد استقرَّ في حِجر أمه. شيء لم يفعله نحَّات من قبل، وانحنى رأس الأم فوق اليد المستقرَّة على قلبها. كانت تعرف كل شيء منذ البداية، لكن وجهها الحزين من أجل ابنها وجميع أبناء الرجال كان يحمل سؤالًا يائسًا: «من أجل أي شيء كل هذا؟» أمَّا المصلوب فقد أغلق عينَيه في سُبات الراحة العميق.»

* * *

فتح لنا ياكونوف الباب وقال مشيرًا بيده إلى الداخل: باجلستا.

ولجنا صالةً صغيرةً تتوسَّطها مائدة من الصاج تُحيط بها عدة مقاعد، وإلى جوارها ثلاجة مصرية. دعانا ياكونوف إلى الجلوس وتقدَّم من الثلاجة ففتحها، وجلست أمام كوم من الكتب والمجلات الروسية يعلوه عدد من مجلة لايف الأمريكية.

أخرج ياكونوف زجاجة بيرة وجعل يبحث عن فتاحة، وقال في إنجليزيته الركيكة إنه وضعها على المائدة منذ دقائق. بحثنا عنها بين المجلات، ثم مضى إلى المطبخ وعاد بها قائلًا: عندما لا تكون زوجتي معي أصبح …

وتوقَّف حائرًا يبحث عن الكلمة الإنجليزية المناسبة حتى وجدها فأكمل: أصبح رجلًا ضائعًا. وضحك ضحكته الصافية التي يحمَر لها وجهه وتظهر معها ثلاثة أسنان ذهبية.

سألته: أين هي؟

جلس أمامنا وشرع يخلع غطاء الزجاجة وهو يقول في بطء: في موسكو ... ستأتي بعد شهرَين. لقد ذهبتُ لترى ابننا. إنه ابننا الوحيد وعمره ستة عشر عامًا.

كانت هناك حجرة في مواجهتي لمحت فيها طرفًا من فراش وتسريحة صغيرة، وكان ثمة مشجب على الحائط يتدلَّى منه قفَّازان كبيران للملاكمة، وعلى الأرض تحتهما استقرَّ قضيب حديدي من قضبان رفع الأثقال.

أخرج سعيد مفكِّرته بينما كان ياكونوف يصب لنا البيرة، وقال لي بالعربية يبدو أن أحدًا آخر لن يأتي وسنقضي الليلة نستمع إلى تاريخ حياته.

وكأنما أدرك ياكونوف ما قاله سعيد فقد قال إن الفتاتَين ستأتيان بعد قليل.

أحسست بالدم يصعد إلى وجهي، وقلت له إن صديقي يُريد أن يعرف مدى تأثير الوباء على الروس.

قال: في حدود علمي لم يُصَب أحدٌ بشيء حتى الآن.

سأله سعيد: ماذا تظنون يكون هذا الوباء؟

أجاب: لا أعرف. هذا شيء يعلمه الأطباء وكبار المسئولين. ربما كان ضربة شمس أو كوليرا، ولكني أتمنَّى ألَّا يكون شيئًا خطيرًا، خصوصًا الآن ونحن نستعد لاستقبال الفيضان.

شربنا نُخب الصداقة المصرية الروسية، وسأله سعيد عمَّا حدا به للمجيء إلى مصر فقال إن مصر كانت بالنسبة له دائمًا أسطورة، وكانت رؤيتها حلمًا يُداعبه منذ الطفولة.

سألته: أنت طبعًا تأخذ راتبًا كبيرًا. أقصد أكبر ممَّا كنت تتقاضاه في بلدك، فهل تُنفقه كله هنا؟

احمرَّ وجهه مرةً أخرى وأجاب: كلا. هناك جزء يُحفظ لي في موسكو.

قال سعيد: وماذا تنوي أن تفعل بهذه المدخرات؟

قال: سأبني منزلًا بالطريقة التعاونية أعيش فيه بقية حياتي.

طرق الباب الخارجي، وما لبثت الشقراء أن ولجت الصالة تتبعها تانيا، وجاء في أعقابهما شاب قصير القامة. قال ياكونوف وهو يجذب مقعدَين للفتاتَين إننا الْتقينا جميعًا من قبل، ثم أشار إلى الشاب وقال: أمَّا هذا فهو فاليري إيفانوفتش وهو ... وتوقَّف، ثم خاطبه بالروسية وتحوَّل الشاب إلينا قائلًا في إنجليزية سليمة: أنا أعمل مترجمًا بقسم القياس الهندسي.

أجلس سعيد الشقراء السمينة بيني وبينه، وجلس ياكونوف على يساري، وأصبح كلٌّ من تانيا وفاليري أمامي.

قام ياكونوف وأحضر زجاجتَين من البيرة وثلاثة أكواب، وعندما أراد أن يصب لفاليري رفض هذا أن يشرب، ووضع سعيد طرف قلمه في فمه، وتطلَّع إلى تانيا، ثم قال: أريد أن أعرف كيف جئت إلى مصر؟

كانت تانيا في حركة مستمرة منذ جلست، وبدا كأنما جسمها النحيل الطويل لا يملك قوةً كافيةً للاحتفاظ بتوازنه، وأكسبتها هذه الحركة المستمرة شيئًا من الدلال.

احمرَّ وجهها عندما خاطبها سعيد وأجابت بشيء من الحدة: بالطائرة.

ضحكت أنا وسعيد وقال: لا أقصد هذا. أقصد مثلًا هل أنت التي تقدَّمت للعمل في مصر من تلقاء نفسك ولماذا؟

ابتسمَت وقالت: عندما تخرَّجت من معهد اللغات كانوا يطلبون مترجمين للعمل في الهند وغانا ومصر، فاخترت مصر.

اشرأب سعيد بعنقه وهو يسجِّل إجابتها بسرعة وسألها: ولماذا اخترتِ مصر؟

تناولت تانيا سيجارةً من حقيبتها فأشعلتُها لها، وقالت بعد أن التقطَت منها نفَسًا: خفت من حرارة الجو في الهند وغانا. ثم أضافت بعد لحظة: لقد رأيتُ عددًا من الأفلام المصرية من قبل، وشعرت بنوع من الأُلفة لجو الحياة في مصر.

قلت لسعيد بالعربية: عندك الآن عنوان مثير: رأت الأفلام المصرية فقرَّرت الذهاب إلى مصر.

تجاهلني وسأل تانيا عن سنها، فقالت إنها في السادسة والعشرين، وفكَّرت أنها لو كانت نقصت عامَين من عمرها الحقيقي نكون في سن واحدة.

تحوَّل سعيد إلى فاليري فقال هذا إنه في الخامسة والعشرين، وإنه يدرس بكلية الصحافة في جامعة موسكو وسيستأنف الدراسة بعد أن يمضي عامًا في السد، وقال إنه عضو في منظمة الشباب الشيوعي (الكومسومول)، وإنه يضع كتابًا عن السد بعنوان: «صداقة في العمل وصداقة في الحياة». وكان سؤال سعيد التالي عن عائلته فقال إن أباه قُتِل في الحرب، أمَّا أمه فتعمل في أحد الحوانيت.

استغرقت في تأمُّل شعر تانيا المائل إلى الاحمرار، وعينَيها الواسعتَين الزرقاوَين، والتجاعيد التي تظهر حول فمها عندما تنفعل أو تستغرق في التفكير. ولاحظت أن ملابسها مجرَّدة من الأناقة.

سألتها إذا كانت قد تفرَّجت على أسوان ورأت قبر أغا خان ومتحف جزيرة الفنتين، فقالت إنها لم تفعل بعد. عرضتُ عليها أن أصحبها في جولة بالمدينة، فألقت على ياكونوف

نظرةً سريعة، ثم ابتسمت وهزَّت رأسها موافقة، ولحظت أن يدها التي تحمل السيجارة قد ارتعشت.

قالت: الناس هنا تعمل كثيرًا ثم تعود إلى المنازل متعبةً لتأكل وتنام، ولا يعرفون ثمة مجال للذهاب إلى أي مكان. وابتسمت، ثم أضافت: على الأقل هذه هي التهمة الموجَّهة إلى الرجال.

ضحك ياكونوف ضحكته الصافية بعد أن كرَّرتُ له ما قالته بالروسية، وقطَّب فاليري حاجبَيه وقال شيئًا بالروسية، فوجمت تانيا لحظة، ثم ردَّت عليه في شيء من الحِدة فلزم الصمت.

كان سعيد منهمكًا في حديث خافت مع الشقراء، وكانت تصدر عنها ضحكات متتالية وقد احمرَّ وجهها، وشعرت بها تتململ في مكانها وتتحرَّك مقتربةً مني، ثم رأيت ساق سعيد تُطارد فخذها الأمين بإلحاح، ولحظت أن جسمها رغم سمنته قوي مشدود بلا ترهُّلات، وكانت تبدو عليها حيوية المرأة التي تُمارس وظائفها الطبيعية بنشاط.

تشاغلتُ بتقليب المجلات الموضوعة على المائدة وعثرتُ فجأةً أسفلها على مجموعة الأوراق تحمل رسومات حديثةً بالألوان المائية لم تكد تجف. كان موضوعها واحدًا يتكرَّر دائمًا: نساء ممتلئات يتلوين عرايا بين ألسنةٍ من النار.

لمحني ياكونوف أتصفَّح الرسومات، فانقضَّ بيده عليها، ولكني جذبتها بعيدًا قائلًا إنها تبعث على الاهتمام. ضحك في خجل وازداد احمرار وجهه، بينما مالت تانيا في اهتمام وأصرَّت على أن تراها. والتفَّت المائدة كلها حول أعمال ياكونوف، وانهالت التعليقات الضاحكة من الفتاتَين بالروسية بينما ازداد تقطيب وجه فاليري.

قلت لياكونوف: لم تقُل لنا رأيك في المرأة المصرية.

فكَّر طويلًا قبل أن يقول: لا أستطيع الحكم عليها؛ فلم أعرفها.

قلت: والروسية؟

قال: إنها سمينة مثل المصرية، ولكنها فيما يبدو لي متقدِّمة أكثر. وأكمل الجملة بالروسية طالبًا من تانيا أن تترجمها لنا، فقالت إنه يرى أن المرأة هي المرأة في كل مكان.

نهضت الشقراء فجأةً قائلةً إنها يجب أن تنصرف، وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، ونهض سعيد بدوره قائلًا إن لديه موعدًا مع أحد العُمَّال في الموقع، وإنه سيرافق الشقراء حتى منزلها في طريقه. اعترضت بأن منزلها ليس بعيدًا، ولكنه أصرَّ فاستسلمت.

دار الحديث بعد ذهابهما حول العُمَّال المصريين، وقال ياكونوف عن طريق فاليري إنهم أذكياء رغم أن الكثيرين منهم لا يعرفون القراءة والكتابة. حكيت له النقاش الذي

شهدته في مكتب ذي الأسنان المعدِنية، وكيف ترفَّع العامل المصري عن القيام بأي عمل يدوي، فلم يعلِّق بشيء، وإنما قال: على أية حال، العنصر اليدوي في السد يتلاشى الآن؛ فكل العمليات التي تجري الآن عمليات فنية للغاية.

قلت: أجل. سمعنا عن دقة الحفر الذي يجري لتوسيع مدخل القناة.

قال: وهناك الحقن؛ فقد بدأ حقن الصخور من داخل ممرَّات التفتيش، والحقن يتم بطبقة رفيعة جدًّا سُمكها نصف سنتيمتر، تُدفع وسط كتل الصخر.

قلت: لا أذكر أن برنامجنا اشتمل على شيء يتعلَّق بالحقن.

قال: المسألة بسيطة. بوسعكما أن تزورا غدًا مصنع الحقن. سأتصل في الصباح الباكر بالمهندس المسئول هناك وهو صديق لي يُدعى أربول.

وقف فاليري قائلًا إنه يُريد أن ينام مبكِّرًا، فنهضت مُعلنًا رغبتي في الانصراف، وقامت تانيا بدورها، وصحبنا ياكونوف إلى خارج المنزل، ثم اشتبك في حديث مع فاليري، فانتهزت الفرصة وعرضت على تانيا أن نقوم بجولة في المدينة ليلة الخميس.

ألقت نظرةً سريعةً ناحية ياكونوف وفاليري، ثم قالت: هذا غير ممكن.

قلت: إذن يوم الجمعة أو أي يوم آخر في الأسبوع.

هزَّت كتفَيها قائلة: لا أعرف.

تحوَّل إلينا ياكونوف فصافحني وودَّع كلًّا من تانيا وفاليري، ثم عاد إلى الداخل. سرنا في صمت حتى بلغنا شارعًا يفصل بين صفَّين من العمارات، فتوقَّف فاليري واستدار ناحيتي، وألفت نفسي مضطرًّا لأن أودِّعهما وأنصرف.

قالت تانيا فجأةً بعد أن صافحتها: إذا أحببت يمكن أن نلتقي بعد غد في منزل فاليري.

أومأ فاليري برأسه وقال: مرحبًا بك.

قلت: أوكي. سآتي، لكن أين المنزل؟

أشار فاليري إلى نهاية الصف المقابل وقال: آخر منزل الشقة الخامسة.

تلفتُّ حولي متعرِّفًا على المكان، ثم ودَّعتهما مرةً أخرى. وهتفت بي تانيا وأنا أبتعد: لا تنسَ أن تُحضر صديقك معك.

وصلت محطة السيارات قبل مقدم سيارة المهندسين بدقائق، ووجدت غرفتنا في الاستراحة خالية، فأخذت حمَّامًا سريعًا واستلقيت على فراشي أدخِّن وأنصت للموسيقى.

عاد سعيد بعد ساعتَين، وولج الغرفة مكفهرَّ الوجه، فأدركت أن الأمور لم تكن كما تصوَّرت. رويت له حديث ياكونوف عن الحقن واقتراحه الذهاب في الصباح إلى المهندس أربول، وسألني عمَّا فعلناه بعد ذهابه، فقلت: لا شيء، وأنت؟

لم يُجب وأشعل سيجارة، ولم أشأ أن أكرِّر السؤال فقد كنت واثقًا أنه لن يُطيق الصمت، وسوف يروي لي ما حدث بعد قليل.

قلت: لقد دعانا فاليري إلى منزله بعد غد، وستكون تانيا هناك وربما جاءت صاحبتك أيضًا.

لم يعلِّق بشيء، وشرع يخلع قميصه وبنطلونه، ولم يلبث كما توقَّعت أن حكى لي كيف صحب الشقراء إلى منزلها، وسمحت له أن يقبِّلها ويحتضنها في الظلام أمام المنزل، ثم رفضت رفضًا باتًّا أن يصعد معها: ... ولكني صعدت بالرغم منها حتى باب مسكنها، وقلت لها إني سأدخل معها مهما حدث، فقالت إن صديقها سيأتي بعد قليل، ولم أصدِّق قصة هذا الصديق؛ فقد كنت متأكِّدًا أنها وحيدة تمامًا، وهدَّدتني بأن تصرخ، وعندئذٍ بدأت أهتز. وقفنا متواجهَين على رأس السلَّم بعض الوقت، ثم قرَّرت أن أنسحب بنظام، فطلبت منها أن نتقابل في وقت آخر، فرفضَت تمامًا قائلةً إنها لا تريد أن تراني مرةً أخرى.

قلت: لو كنت مكانك لتركتها عندما رفضَت أن تصعد معها.

قال: ولكن المرأة تتمنَّع دائمًا في البداية.

قلت: إذن كنت تركتها عندما قالت إن صديقها قادم.

قال: لا أظن أنها كانت تقول الحقيقة.

قلت: المهم أنها لم تكن تريدك.

قال: لقد كانت ترتعش من الشهوة طول الوقت منذ داعبتها بساقي عند ياكونوف.

قلت: ألم يخطر ببالك أنها ربما كانت ترتعش من الخوف؟

قال: الخوف مماذا؟

قلت: الخوف من ياكونوف ... من فاليري، من أن يفاجئكما أحد من الروس فيضيع مستقبلها.

قال: سيعيدونها إلى موسكو وهي عائدة على أية حال.

قلت: ولكنها عائدة لتواصل العمل لا لتبقى في بيتها، وهي تُريد أن تسافر إلى أماكن أخرى وأن تتقدَّم في عملها.

قال وهو يستلقي على فراشه: لعلها لم تكن تريدني اليوم لأي سبب من الأسباب، وربما لو حاولت مرةً أخرى غدًا أو بعد غد ...

قلت وأنا أطفئ النور: سنرى.

* * *

أصرَّ سعيد في الصباح على القيام بالزيارة المعتادة لعباس، وفضَّلت أن أنتظره في الظل بجوار مكتب البريد. ابتعت الصحف ولم أجد فيها إشارةً واحدةً لحالات الوفاة المنتشرة في السد، ولم أعبأ بقراءة درجة الحرارة بعد ما ذكره الطبيب. توقَّعت ألَّا يفوت اليوم على خير كما يحدث في كل مرة نذهب فيها إلى عباس، وما لبث سعيد أن عاد جالبًا معه أخبار الموتى وآخرهم عامل النادي الذي سقط ميتًا وهو يشرب كوبًا من الشاي، وقال إن لجنةً من مديري وزارة الصحة وصلت بالطائرة.

مضينا إلى الجاراج واستطعنا أن نفوز بشاحنةٍ من طراز «تايمز»، وتكوَّمنا إلى جوار السائق وقد رفعنا سيقاننا إلى أعلى، وطلبنا منه أن يأخذنا إلى مصنع الحقن.

انطلقت الشاحنة تلف وتدور متفاديةً العقبات، وكانت الشمس تقع على وجوهنا حاميةً تكاد تُعمي عن الرؤية. أشرفنا على جسم السد بعد دقائق وسرنا بحذائه قليلًا، وكانت البلدوزرات والهرَّاسات منهمكةً في تسوية الرمال والطمي ودكِّها. ولحظت واحدًا منها غريب الشكل كان يجر خلفه صندوقًا ضخمًا امتلأ بالصخور، واستقرَّ فوق ست عجلات من المطاط، وبدا جسم السد كأرض معركة كبيرة تتحرَّك فوقها فِرَقٌ من الدبابات المتكاسلة.

دُرنا حول هضْبة صغيرة من بقايا عمليات التفجير، وانطلقنا في طريق دائري منحدر، وعندما بلغنا نهايته فوجئنا بقلابة روسية من طراز «ماز» قد استلقت على ظهرها بعرض الطريق وارتفعت عجلاتها في الهواء، وعلى مقربة استقرَّت قطعة ضخمة من الصخر على قارعة الطريق، وكان هناك بلدوزر يتقدَّم من القلابة رافعًا درعه الأمامي إلى أعلى، ثم توقَّف وتراجع على جنزيره مبتعدًا عنها، وتوقَّف مرةً ثانية، ثم اندفع نحو القلابة مُصوِّبًا درعه إلى حافتها، وهبط الدرع حتى أصبحت حافة العربة معتقلةً بين الدرع وجسم البلدوزر، ومرَّت لحظة تجمَّد فيها كلٌّ من الدرع وحافة القلابة، ثم صدر عن البلدوزر صرير مرتفع، وما لبثت القلابة أن بدأت ترتفع عن الأرض، وإذا بالبلدوزر يتخلَّى عنها فجأةً متراجعًا إلى الخلف فسقطت مكانها، وعاد البلدوزر يتقدَّم من القلابة ودرعه في جانبها، ثم رفعها في الهواء قرابة المتر، وزحف ببطء دافعًا القلابة أمامه، وسمعنا رجَّة، وإذا بها تعتدل فوق إطاراتها من جديد.

التقط سعيد عدة صور لمراحل إعادة القلابة إلى وضعها، كما صوَّر سائقها الذي جلس على صخرة قريبة يرقب العملية، ونادى سائقنا عليه ليُبعد عربته عن الطريق، وقام هذا متثاقلًا فتقدَّم من عربته في بطء، وتوقَّف بعيدًا عنها يتطلَّع إليها بوجهه الذي ملأته

التجاعيد، وبدا كأنما يخشى الاقتراب منها، وأخيرًا تقدَّم منها وفحص موتورها، ثم اختفى داخلها، وظهر بعد لحظة فوقف لتأمُّلها، ثم هتف بسائق البلدوزر أن يدفعه.

قام البلدوزر بعِدة مناورات حتى تمكَّن من إزاحة القلابة التي أمسك سائقها بمقودها، وانفسح الطريق أخيرًا أمام سيارتنا الخفيفة.

بلَغْنا فِناءً واسعًا مسوَّرًا به بضع مبانٍ حجرية من طابق واحد. غادرنا الشاحنة وعبرنا الفِناء بسرعة فرارًا من حرارة الشمس. استقبلَنا في الداخل شاب روسي ذو ملامح شرقية. قال لنا إن أربول مضى إلى اجتماع طارئ في الهيئة.

أخذ منه سعيد بضعة بيانات سريعة عن مواد الحقن علمنا منها أنها تتألَّف من أربع مواد، اثنتان منها متوفِّرتان في الموقع وهما الرمال والطمي، والمادتان الأخريان يُؤتى بهما من روسيا.

اتفقنا مع الشاب على أن نعود في الثامنة من صباح الغد، ومضينا إلى الخارج، وقال سعيد إنه يشعر بالْتهابٍ في حلقه ويريد الذهاب إلى المستشفى، فأقلَّتنا الشاحنة إليه.

قاس الطبيب حرارة سعيد فوجدها ٣٧ درجة. سأله سعيد عن أخبار اللجنة الطبية، فقال إنها تميل إلى الاعتقاد بأن الأمر لا يتعدَّى ضربة شمس قوية، ونصحنا بأن نتجنَّب الشمس والحرارة بقدر الإمكان.

الْتجأنا سريعًا إلى كهفنا المكيَّف ولم نغادره إلا إلى الحمام، ثم المطعم، وملأ لنا فقير الترموس بالليمون المثلَّج، ثم استلقيت على الفراش أقرأ رواية «على الطريق» لكيرواك.

شعرت بحرارة مفاجئة تسري في جسدي، ثم تنحسر، وتكرَّر ذلك عدة مرات، فألقيت بالرواية جانبًا وتمدَّدت ساكنًا أحدِّق إلى السقف، وانتابني الشعور بهبوط عام.

غفا سعيد طويلًا وقال لي عندما استيقظ إنه يشعر بالبرد. جذب الملاءة فوقه، ثم أضاف إليها البطانية، وبعد قليل طلب مني بطانيتي قائلًا إنه يرتعش من البرد.

سوَّيت كل الأغطية التي لدينا فوقه لكنه استمرَّ يرتعش وأسنانه تصطك بصوت حديدي بارد. أغلقت التكييف وارتديت ملابسي ومضيت إلى الخارج بحثًا عن طبيب.

كانت العيادة الطبية تبعد عن الاستراحة مسافة عشر دقائق سيرًا على الأقدام، وكانت الشمس ما تزال ترسل أشعةً قويةً رغم أن الساعة أشرفت على الخامسة. وجدت الطبيب يفحص شخصًا متخشِّبًا، ثم يقول له إنه يمثِّل ولا يشكو من شيء، وبالفعل انتصب واقفًا كالجواد وانصرف، وقبل أن أبدأ حديثي ولج الغرفة عدة رجال يحملون

عاملًا لدغته عقرب، وأعطاه الطبيب حقنتَين، ثم نصحه بعدم شرب الماء والاكتفاء بالليمون.

قست حرارتي في هذه الأثناء فوجدتها ٣٧ درجة، ورويت للطبيب حالة سعيد، فاستمع إليَّ في غير اكتراث حتى علم أن سعيدًا صحفي فأبدى اهتمامًا بالغًا، وقام معي في سيارة الإسعاف التابعة للعيادة وانطلقنا إلى الاستراحة، وتولَّى سائق السيارة وفقير حمل سعيد إليها ملفوفًا في أغطيته، وعدنا أدراجنا إلى العيادة.

وُضع سعيد في غرفة خاصة بالأطباء تضم فِراشَين، وقاس له حرارته فوجدها تحت الأربعين بشرطة واحدة، وأعطاه حقنة فيتامين «ث» وأتبعها بحقنة نوفالجين في الوريد، وعاونت الطبيب في محاولة التقاط أحد أوردة ذراعَيه. كانت قد اختفت خلف طبقات الشحم السميكة التي أضافها سعيد إلى جسمه في السنوات الأخيرة.

ظلَّ سعيد يرتعش بعض الوقت، وقال لي بين أسنانه المصطكَّة إنه يشعر بأنه على أبواب الموت. هوَّنت عليه وبقيت إلى جانبه حتى توقَّفَت الرعشة، فانطلقت إلى الاستراحة وطلبت من فقير أن يملأ الترموس ليمونًا، وحملت الترموس والراديو إلى سعيد.

كان نائمًا واستيقظ عندما ولجت الغرفة. أعطيته كوبًا من الليمون وأدرت الراديو. كان هناك برنامج من أغاني عبد الوهاب استمعنا فيه إلى أغنية قديمة له مسروقة اللحن، تبعتها أغنية «عاش الجيل الصاعد».

قال سعيد فجأة: أغلق الراديو بالله. هذه الأغنية حزينة.

أغلقت الجهاز وأشعلت سيجارة.

* * *

«ولعنة العصر يمكن أن تصبح أروع نعمة عندما يخلو المبنى الأصفر الكئيب من صداه، وتتشوَّق الآذان إلى نغمة واحدة تصل بني البشر بماضيهم، لكن الأزرار في يد حارس يُدرك أنه لو سمح للصوت أن يتسرَّب لالتوت جميع الآذان في اتجاهه. وعند الغروب اقتادونا إلى الفناء في سكون مطبق، وأجلسونا القرفصاء على الأرض ليؤكِّدوا لنا أننا فقدنا حريتنا، وأشرفوا علينا وقوفًا: الضابط الجرم الذي كان دائم الصراخ بأنه يرى من ثقب ظهره، والجندي العجوز النحيف الذي جعل من ندائه اليومي وهو يرمي إلينا بعيدان الفجل الصفراء جملةً موسيقية، ثم الآخر الذي كان صورةً مُجسَّمةً للإنسان الأول بجسمه الضخم عديم الشكل، ويده السمينة، وأظافره المتحجِّرة، وعينَيه النصف مغمضتَين في غباء،

والهمهمة الغامضة التي تصدر عن فمه. وبدأ ضوء النهار يتلاشى، واصطبغت السماء بلون وردي أخَّاذ، وما زلنا مقرفصين نتلهَّف على معرفة وجهتنا، ولا بد أن يكون الحارس على الجهاز قد انتابته نوبةٌ مفاجئة من المرح؛ فقد انطلق الصوت على حين غِرَّة من المكبِّرات المثبتة في الفناء يترنَّم بحياة الجيل الصاعد.»

* * *

أعلن سعيد رغبته في النوم، وطلب مني أن أذهب إلى أربول في الصباح. غادرته ومشيت على مهل نحو الاستراحة، ثم تجاوزتها ومضيت في الطريق المؤدِّي إلى محطة الكهرباء. كانت المصابيح الكهربائية المنتشرة في كل مكان فوق أعمدة خشبية قد بدأت تُرسل ضوءًا باهتًا، وكان الظلام لم يطبِّق أستاره بعد.

مررت بقلابة من طراز «ماز» كانت تنتحي جانب الطريق وقد الْتوى إطاراها الأماميان في حِدة إلى اليسار، وتوقَّفت إلى جوار مجموعة من عُمَّال اللحام انهمكوا في إيصال قضبان معدِنية مختلفة الأحجام، وكان ضوء الأكسجين الساطع يبرق فوق الدروع المعدِنية التي تُغطِّي وجوههم.

عبرت محطة الكهرباء بحذاء الحائط الذي تقبع دوائر التوربينات أسفله. انتظرت حتى مرَّ بي طابور من الشاحنات الفارغة، ثم انطلقت في طرقات ملتوية حتى أشرفت على بداية جسم السد من مرتفع صغير. وقفت أتأمَّل ممرَّ التفتيش المقوَّس الذي سُلِّطت عليه أضواء الكشافات. كان جزؤه القريب مني مغطًّى بالأسمنت والطمي، أمَّا الجزء الآخر فكان ما يزال شبكةً من القضبان الرفيعة المتعانقة.

كان هناك عددٌ من الصعايدة على مقربة يقومون بتمهيد الأرض بالفئوس ورشِّها بالمياه، وفوقنا امتدَّت السماء شديدة الصفاء لا أثر بها للقمر أو النجوم.

تحوَّلتُ إلى اليمين وسِرت مسافةً بين قِطَع ضخمة من الصخور. مررت بحفارة متصلة بمجموعة من الأجهزة المتشابكة، وفي صندوقها جلس عامل روسي يقرأ في ضوء مصباح كهربائي مثبَّت في السقف.

أشرفت على مستوًى منخفض من الرمال المختلط بالزلط، وفي أحد جوانبه كانت الرمال تنساب في قوة من فتحات أنابيب التجريف مصحوبةً بالمياه، وخلفه كان هناك صف من الأكشاك الخشبية المضاءة.

لم يكن بوسعي أن أرى المستوى التالي خلف الأكشاك، ولكني كنت أعرف أنه يمتد حتى صفٍّ البراميل السوداء المستديرة، وبعدها يبدو النهر بركةً ضحلةً هادئة، بينما تتدفَّق مياهه الأصلية عبر القناة الجديدة وتنساب إلى شمال الوادي حتى البحر.

شعرت بالعطش فاتجهت إلى أحد الأكشاك، وعندما اقتربت منه رأيت ثلاثةً من العُمَّال المصريين يقتعدون الأرض أمامه وفي أيديهم أكواب الشاي. وجَّهت إليهم التحية فدعَوني إلى الشاي، وأراد أحدهم أن يقوم ليُحضر لي مقعدًا، لكني أمسكت به ليبقى وجلست إلى جوارهم.

تبادلنا الأسئلة عن موطن كلٍّ منا. كان بينهم اثنان من الصعيد وواحد من الدقهلية. سألت الدقهلاوي عن عمله فقال إنه مساعد كهربائي.

قلت: وقبل السد ... كنت بتعمل إيه؟

أجاب: كنت أشتغل في الأرض.

– وإيه اللي خلاك تسيبها وتيجي على هنا؟

– ناس جت من بلدنا ع السد فجيت معاها.

– واشتغلت مساعد كهربائي على طول؟

تطلَّع إليَّ في عجب: لا طبعًا. في الأول اشتغلت عتال، أشيل وأودي. حبة بحبة تعلَّمت. كنت أقف إلى جنب الصنايعي أبص عليه وأسأله.

– ومبتخفش من الكهربا؟

– دلوقت لا، إنما الأول ... ياما تكهربت. لكن أنا اتعلمت ازاي أشد دراعي بكل قوتي لورا لمَّا اتكهرب، وأعزل نفسي على طول. الغشيم أول ما يكهرب ضروري يتعور، ويمكن يموت؛ لأنه بيتلخم وما يعرفش يتصرَّف.

قام الصعيديان قائلَين: إن ميعاد ورديتهما قد حان، واستعدَّ الدقهلاوي لمرافقتهما وعُدت أدراجي.

قابلتني عند جسم السد شاحنة «بارفورد» ضخمة يُضيئها مصباح صغير للغاية بجوار السائق، أضفى عليها فيضًا من الضوء البنفسجي الرائع.

رفعت بصري إلى السماء، كان ثمة نجمة كبيرة تتلألأ على يميني وقد انفردت بصفحة السماء. ظَلِلت أتأمَّلها بعض الوقت، ثم اتجهت نحو الاستراحة.

ولجت المطعم دون أن أشعر بشهية فاكتفيت من طعام العشاء بشريحة من البطيخ، والْتجأت إلى غرفتي فأدرت التكييف وخلعت ملابسي، ثم استلقيت على الفراش وتناولت كتاب «ميكل أنجلو».

* * *

«لم يكن مسيحه المصلوب ابن إله بقدر ما كان إنسانًا؛ فقد الْتوى رأسه وركبتاه في اتجاهَين متعارضَين لرجل يمزِّقه الصراع الداخلي بين جهتَين. رجل لا تعذِّبه المسامير الحديدية بقدر ما يعذِّبه الشك. فماذا يكون قد دار بذهنه منذ اللحظة التي دقُّوا فيها أول مسمار في لحمه عند الغروب، واللحظة التي مات فيها غير التفكير في عجز الإله عن الحيلولة دون هذه الوحشية، وجدوى رسالة تُريد أن تبشِّر بالأخوة وتُريد أن تمحو العنف؟»

* * *

غادرت الفراش وتأكَّدت من إغلاق الباب، ثم أطفأت النور وعدت إلى الفراش. جذبت الأغطية فوقي وأنصتُّ إلى طنين جهاز التكييف. تقلَّبت عدة مرات، ثم نمت.

حلمت أني أسير بين مواسير ضخمة في أعماق نفق ولا أستطيع التنفُّس لأن الجو خانق، وأصبح الجو رماديًّا أو بنيًّا، وجريت متوقِّعًا أن ينهار النفق فوقي، ثم رأيتني أتطلَّع إلى أمي وهي تُطل من النافذة لترى شيئًا في الحارة، وأمسكت بساقَيها لأمكِّنها من أن ترى جيدًا، لكنها سقطت مني إلى أسفل وارتطمت بالأرض في صوت رهيب.

استيقظت ألهث، ومرَّت لحظات حتى تأكَّدت من مكاني. قمت فأضأت النور وشربت كوبًا من الماء، ثم أشعلت سيجارةً وجلست على حافَّة الفراش.

* * *

«الجنود صفَّان متقابلان كعهدهم دائمًا، وعصيهم الغليظة تشق الهواء جُزافًا، والصيحة المتوحِّشة تأمر بالجري بينهم حتى الساحة، وهناك استقرَّت منصة مرتفعة جلس خلفها الجنرال بملابسه العسكرية والشارة الحمراء التي تدل على رتبته الرفيعة، وحوله النظارة الذين جاءوا خصوصًا ليشهدوا الحفل وقد ارتدَوا جميعًا نظارات سوداء، وانهالت الضربات على الرءوس والصدور والظهور بالقبضات والأقدام والعصي والأحزمة الجلدية والنبابيت والشوم وكعوب الأحذية العسكرية، وجُرِّد الضحايا من ملابسهم واقتيدوا واحدًا بعد الآخر أمام الجنرال ليتفقَّد بعينَيه أحجام رجولتهم، ثم سُحلوا عراةً فوق الرمال حتى الوحش الآدمي ذو العينَين المجنونتَين الذي اندفعت قبضته السمينة في الهواء وقد لمعت فوقها بقعة من الدماء الطازجة، وبعد ذلك كان الدوران عشرات المرات حول العنبر الحجري الطويل، وداخله كانت هناك الأرض الحجرية العارية، والدماء التي تنزف من الظهور، والهذيان

وفقدان الوعي، وفي المساء أُضيء النور فتبدَّت معالم المكان وظهر الفراغ الذي تركه إلى الأبد الجسم العملاق والوجه الذي لم تفلح آثار الجدري في تشويهه.»

* * *

أطفأت النور وحاولت أن أنام لكني لم أستطع. نهضت مضعضعًا في الصباح وغادرت الاستراحة إلى الموقع، وانطلقت سيرًا على الأقدام إلى مصنع الحقن. لم تكن الحرارة قد اشتدَّت بعد، وعلى جانب الطريق افترش باعة الباذنجان والطعمية الأرض، وخلفهم ظهرت شرائح البطيخ.

بلغت جسم السد بعد عشرين دقيقة، وسرت بحذائه بحثًا عن الهَضْبة الصغيرة التي يبدأ خلفها الطريق الدائري المنحدر. عثرت على الهَضْبة بسهولة، ولكني لم أعثر للطريق على أثر.

الْتجأت إلى أحد جنود البوليس الحربي، فضحك قائلًا إن الطريق رُدم بالليل. ووصف لي كيف أبلغ مصنع الحقن. مررت بعدة منحنيات وهضاب قبل أن أبلغه، واقتادني أحد العُمَّال المصريين إلى مكتب أريول.

كان هذا يقف في طرف الغرفة منحنيًا فوق خارطة نشرها أمامه على طاولة رسم، ودون أن يتحرَّك من مكانه أشار لي وهو يبتسم بدَعة أن أجلس، وواصل العمل في خارطته.

لحظت تلك النظرة الشاردة التي أتتني من فوق عويناته، وكانت هذه تنزلق على أرنبة أنفه وقد انقسمت عدستاها إلى منطقتَين مختلفتَين بخط بيضاوي، وبدا لي فوق الخمسين وإن كان الشعر الكثيف فوق رأسه وحاجبَيه نادر البياض.

تطلَّع إليَّ بابتسامة ودودة من الجزء العلوي في عويناته، ثم استأذن مني في أدب جم مغادرًا الغرفة، وكان ذلك في الثامنة والنصف.

دخَّنت سيجارة، ثم قمت أتفرَّج على الخرائط المعلَّقة فوق الجدران. كانت إحداها لبوابات الأنفاق، والثانية لفتحة النفق المائل، والثالثة لمحطة الكهرباء. وكانت هناك خارطة للموقع بدا السد فيها كائنًا ضخمًا يواجه الجنوب وقد احتجز الماء بجسده وارتكز بساعدَيه على حافتَي النهر باسطًا إياهما إلى أقصاهما. وبدت الذراع اليُمنى أطول من اليسرى بوضوح، وفي موقع القلب استقرَّت النواة الصمَّاء، وامتدَّت ستارة رأسية صلبة إلى قاع النهر، وأخرى أُفقية تخلَّلت الساعد الأيمن.

كان الرمز الذي يُشير إلى عمليات الحقن يمتدُّ عبر الكتفَين والذراعَين مرورًا بمحطة الكهرباء. خططت في مفكرتي رسمًا تقريبيًّا له، ثم عدت إلى مقعدي.

دخل الغرفة مهندسان روسيان وجَّها إليَّ التحية في ود، ثم بسطا خارطةً على المكتب وانكبَّا عليها يُناقشانها، وألقى أحدهما بصره ناحيتي عدة مرات دون أن يبدو عليه شيء من الدهشة أو التساؤل لوجودي. تطلَّعت إلى ساعتي فألفيتها قد بلغت التاسعة والثلث، ولمحني الثاني وأنا أنظر في ساعتي فحدَّثني بالروسية. هززت رأسي باسمًا، فسألني في إنجليزية متردِّدة عمَّا إذا كنت أود مقابلة أريول. أومأت بالإيجاب، فقال إنه في المكتب الخامس على يمين الممر.

غادرت الغرفة ومشيت في ممرٍّ ضيق أعد الغرف. وجدت باب الغرفة الخامسة مفتوحًا وقد استقرَّ جسم أريول البدين في أقصاها خلف مائدة تصميمات. وقفت لحظةً أرقبه يعمل في هدوء وطمأنينة، ثم ناديت عليه مُشيرًا بأصبعي إشارةً لم يكن لها بالتأكيد أي معنًى، وإن كنت أُريد أن أقول إني سآتي في الغد. التفت ناحيتي، ثم ابتسم وعاد إلى عمله.

غادرت المبنى وانطلقت سيرًا على الأقدام إلى الاستراحة. أخذت حمَّامًا وأفطرت، وأحضر لي فقير ترمسًا مليئًا بالشاي حملته إلى سعيد، وأخذت له معي مجلتَين مصوَّرتَين وكتاب «ميكل أنجلو».

كانت درجة حرارته قد انخفضت، لكن روحه المعنوية كانت في الحضيض.

ابتدرني قائلًا: أريد أن أسافر اليوم.

وضعت الترموس إلى جواره وجلست على حافة الفراش المقابل. قلت: ولكنك صرت أحسن حالًا، وزال الخطر فيما يبدو لي.

– لا أريد أن أموت في هذا المكان اللعين، سأسافر اليوم أو غدًا.

– والفيضان؟

– سأتركك تستمتع به، وبرحلة «أبي سنبل» أيضًا. بوسعك أن تبقى كما تشاء في الاستراحة.

صببت له كوبًا من الشاي، وطلب مني أن آخذ بطاقة الطائرة من حقيبته وأحجز له مكانًا على أول طائرة من فندق «جراند أوتيل».

أعطيته المجلَّتَين وكتاب «ميكل أنجلو» فقلَّب صفحاته وقال: من قال لك إني أعبأ بتماثيل هذا اللوطي؟

قلت: أنت مخطئ. لم يكن لوطيًّا.

قال: كان عنِّينًا إذن.

قلت: ولا هذا.

قال: إذن ماذا كان؟

قلت: هل يجب أن يكون شاذًّا؟

قال: لا تقل لي إنه كان طبيعيًّا.

قلت: لمَ لا؟ لقد كان دائم التنقُّل عازفًا عن تكوين أسرة، وكان النحت يستهلكه تمامًا. كان مثل كثيرين غيره. مجرَّد إنسان وحيد.

استعدت منه الكتاب، وأعطاني مفتاح حقيبته فعدت إلى الاستراحة وأخرجت بطاقة الطائرة الخاصة به. وضعتها في حافظة جلدية وخرجت إلى الطريق الملتهب.

لحقت بسيارة رُكَّاب عند موقف رجل البوليس الحربي، ووجدت مقعدًا خاليًا فجلست وأنا أهنِّئ نفسي بأنه لم تبقَ أمامي سوى مشكلة العودة، لكننا لم نكد نبلغ «السيل» حتى أعلن السائق فجأةً أنه لن يواصل المسير.

غادرت السيارة خلف رُكَّابها، ووقفنا في الطريق نُتابعه وهو يعبر الجسر ويقف أمام إحدى العمارات حيث يسكن فيما يبدو.

عبرت الجسر خلف السيارة، وألفيتني فيما يشبه السوق؛ فقد افترش عشرات الباعة الأرض أمام مختلِف العطارة والحلي والبخور.

رأيت زنجيًّا فارع الطول يقترب من أحد الباعة واضعًا يده في وسطه باستعلاء. كان يرتدي جلبابًا أبيض يصل إلى قدمَيه الحافيتَين، وكان شعره طويلًا يتدلَّى على كتفَيه مجدلًا في ضفائر رفيعة للغاية، وبرزت منه عصًا حديدية غريبة الشكل، وحول خصره التفَّ حِزام عريض من الجلد.

اقتعد الزنجي الأرض إلى جوار أحد الباعة، ومدَّ يده إلى رأسه فسحب العصا وهرش بها، ثم أعادها إلى مكانها، وجرى بينه وبين البائع حديث بلغة غير العربية. اشترى في نهايته موسًا وترترًا، ودفع الثمن من حافظة جلدية أخرجها من صدره.

عبرت الجسر من جديد عائدًا إلى الطريق الرئيسي، ووقفت قرابة الساعة ألوِّح للسيارات المارة بلا فائدة، وظهرَت أمامي بغتةً سيارة رُكَّاب أبطأَت من سرعتها فقفزت إليها، وما لبثت أن ضاعفت سرعتها وإذا بها تعود إلى الموقع.

نزلت في «كيما» وعبرت الطريق إلى النادي الروسي. مشيت عدة خطوات حتى محطة الخط الفرعي بين «كيما» وأسوان، ووقفت نصف ساعة حتى جاءت سيارة أقلتني إلى فندق «جراند أوتيل».

كان صيام جالسًا في رُدهة الفندق مع شاب مصري يرتدي قميصًا حريريًّا وعوينات شمسيةً ذات سطح شديد اللمعان يحول دون رؤية عينيه. حجزت لسعيد من مكتب

الاستقبال في طائرة الغد، ثم انضممت إليهما، وقدَّم لي صيام رفيقه على أنه أحد موظفي المطار.

سألني صيام عن سعيد، وتبادلنا أنباء الوباء، وقال موظف المطار إنه متأكِّد أن تفجيرًا ذريًّا تمَّ في الصحراء الغربية هو السبب في كل هذا.

سألته في غباء: ومن الذي قام بالتفجير؟

خلع نظارته وتطلع إليَّ بعينَين عسليتَين تنطقان بالاستهجان الشديد: نحن بالطبع.

ظهرَت في مدخل الفندق فتاة أوروبية رشيقة في رداء أبيض تعلَّقت بذراع شاب مصري طويل القامة. تابعناهما بأبصارنا وهما يصعدان الدرج، وقال صيام بصوت خافت: ربما كانت زوجته.

أضاف موظَّف المطار بعد أن أعاد نظارته إلى عينَيه: ابن بلدنا يقوم بالواجب الآن.

قلت: ما زالا على السلَّم.

قال: ليس هناك أجمل من ذلك على السلَّم.

ظهرت الفتاة ورفيقها بعد لحظات وشرعا يهبطان الدرج، وعلَّق موظَّف المطار: كانت جولةً سريعة.

قلت لصيام إن سعيدًا لن يتمكَّن من الذهاب إلى «أبي سنبل»، وإني سأذهب بمفردي.

قال إنه لا يوجد مكان لي.

قلت: ولكنك وعدتنا.

قال: وماذا أفعل؟ هناك وفد من مصلحة الآثار لا بد أن يكون في «أبي سنبل» هذا الأسبوع.

قلت: وما العمل؟

قال: انتظر الرحلة التالية بعد أسبوعَين.

قلت: ولكني لا أستطيع الانتظار طول هذه المدة.

قال: إذن سافر على أحد الصنادل التي تنقل الأسمنت ومواد البناء، وسأعطيك خطابًا لزميل لي هناك حتى يساعدك.

لم أعلِّق بشيء، واستأذن مني بعد لحظات ليلعب البلياردو مع رفيقه. ظَلِلت في مكاني بعض الوقت، ثم خرجت إلى الطريق، ووقفت أسفل شجرة صنعت فروعها العجفاء شيئًا من الظل، وجعلتُ أُلوِّح للسيارات المارة حتى كَلَّ ساعدي. كانت الحرارة شديدة، وأصبحتُ بعد قليل عاجزًا عن التحديق المتواصل إلى كل سيارة تظهر على مبعدة.

أغلقت عينَي وفكَّرت بأن أقضي فترة الظهيرة في أحد الأماكن المعشوشبة بالمدينة، وتناهى إلى سمعي صوت فرامل سيارة ففتحت عينَي ببطء. رأيت سيارة جيب عسكرية تقف أمامي مباشرة.

أدركت الموقف عندما لمحت شخصًا يقترب من السيارة جريًا. سألت الجندي الذي كان يقودها عمَّا إذا كان ذاهبًا إلى الموقع، فأومأ إليَّ أن أصعد. قفزت إلى السيارة من فُتحَتِها الخلفية وجلست بجوار قفصَين من الدجاج والحمام.

انطلقَت السيارة في طريق اصطبغ باللون الأحمر القاني، ولفح الصهد وجهي فأغلقت عينَي وأقمت حافظتي الجلدية أمام وجهي.

توقَّفَت السيارة أمام المسجد، وحانت مني نظرة إلى القفصَين فرأيت الحمام يرتعد، وتجمَّع الدجاج في ركن القفص مبتعدًا عن عدة دجاجات استلقت على جوانبها، ورأيت عيونها قد ضاقت وصارت مسحوبةً لا تكشف إلا عن جانب ضئيل من حدقاتها.

قفزت من السيارة وناديت على الجندي ليُنقذ دجاجة، وولول هذا صائحًا: مش بتاعي ده بتاع الضابط. حيخرب بيتي لو حصله حاجة.

مشيت متثاقلًا حتى الاستراحة، واتجهت إلى غرفتي وأنا لا أرى شيئًا أمامي. أفرغت بقايا الترموس في كوب رفعته إلى شفتي، ولحظت أن يدي ترتعش.

ذهبت إلى سعيد بتذكرة الطائرة بعد الظهر. كان يقرأ روايةً سوفياتيةً بالعربية لبوريس بوليفوي. رويت له ما حدث مع صيام، فقال: هذا الرجل غريب. لا أدري ماذا يريد. لقد وعدته بمقالة عنه في المجلة ... ماذا يريد أكثر من هذا، نقود؟

قلت: لا أظن. لعله يستمتع فقط بممارسة سلطة المنح.

قال: وماذا ستفعل الآن؟

قلت: سأبحث عن أحد الصنادل التي حدَّثني عنها وأسافر عليها.

تطلَّع إلى ذقني التي حلقتها بعناية منذ قليل: أنت ذاهب الآن إلى تانيا ... وسأقضي المساء كله بمفردي.

أشرت إلى رواية بوليفوي وقلت: يمكنك أن تواصل القراءة.

ضحك وقال: هل تعرف ماذا حدث للجندي العائد من الجبهة في هذه القصة؟

قلت: لم أقرأها.

قال: تئويه امرأة غريبة في منزلها. ماذا تظنهما فعلا؟

قلت: هذا يتوقَّف على سنها.

قال: تصوَّر أنهما قضيا الليلة يقرآن تاريخ الحزب.

قلت: سأمضي الآن ... وفي الصباح سأعد لك حقيبتك.

قال: لولا قعدتي هذه ما كانت أفلتت مني هذه المرأة. أنا دائمًا سيئ الحظ.

قلت: بالعكس. أنت محظوظ للغاية. بوسعك الآن أن تكتب سلسلة مقالات بعنوان بين الحياة والموت في السد، ولن يجرؤ أحدٌ على اتهامك بالكذب.

قال: أُراهن أن صاحبتك تانيا مصابة بالسل. ألم ترَ كيف هي نحيفة؟

قلت وأنا أتجه إلى الباب: لا بأس. سأروي لك في الصباح كل ما سيجري الليلة.

* * *

عثرت على منزل فاليري بسهولة، وفتح لي الباب مرحِّبًا، فدلفت إلى صالة توسَّطتها المائدة المعدِنية المعهودة تُحيط بها عدة مقاعد. جلست في مواجهة خارطة كبيرة للعالم وأوضحت له سبب حضوري بمفردي. كانت هناك علامات باللون الأحمر أُضيفت إلى الخارطة حول بعض المدن في كلٍّ من الهند وغانا وكوبا وتنزانيا والعراق، وقال فاليري إن له أصدقاء من أيام التلمذة في هذه الأماكن.

تطلَّعتُ إلى الحائط الآخر فرأيت شيئًا أشبه بجريدة حائطية لصقت بها صور فتيات شبه عاريات منتزعة من المجلات الأوروبية. سألته باسمًا: وهذه؟

احمرَّ وجهه وقال: ليست لي. إنها تخص زميلي في المسكن.

طرق الباب فقام فاليري وفتحه. ظهرت تانيا في بلوزة بلون عينَيها. تبادلنا التحية، ثم جلسَت إلى جوار فاليري واشتبكت معه في حديث سريع بالروسية، ولحظت أن وجهها يبدو منتعشًا مجرَّدًا من آثار الإرهاق المعهودة.

تشاغلتُ بدراسة الخارطة وتوزيع القارات والمحيطات، بينما أذني على نبرات صوتها، وتحوَّلَت إليَّ تانيا فجأةً قائلةً بالإنجليزية: آسفة. لقد كنا أمس في حفل أقمناه لبعض القادمين الجدد، وكان فاليري يروي لي ما حدث بعد انصرافي.

ومالت إلى الأمام بلهفة: قبل الحفلة رأيت فيلم جسر واترلو. لا يمكنك أن تتصوَّر كم بكيت.

تطلَّعتُ إليها مدهوشًا: بكيت؟!

قالت بلهجة جادة: أجل ... أنا أبكي أيضًا عندما أتفرَّج على الأفلام المصرية؛ ولهذا أُحبها.

انطلقت أضحك وهي تتأمَّلني في انزعاج بدأ يتحوَّل إلى غضب. مددت يدي ووضعتها على يدها قائلًا: لا تغضبي. لم أقصد الإساءة إليك.

انحسر غضبها وقالت باسمة: هناك طبعًا شيء من السذاجة في هذا البكاء، لكن هذا هو ما يحدث. ربما لأني إنسانة غير سعيدة.

بدا على فاليري أنه غير راضٍ عن اتجاه الحديث. لم أعبأ به بل سألتها: لماذا؟

هزَّت كتفَيها وقالت: لا أعرف، ربما لأني قلقة، أو أني لم أكتشف نفسي بعد، وربما كنت متقلِّبة المزاج.

قلت: كثيرون كذلك.

قالت: ولكني أحسد هؤلاء الذين يبدون راضين عن أنفسهم وعن كل شيء حولهم.

لزمنا الصمت لحظة، ثم سألتها عن أبوَيها.

قالت: أمي ماتت أثناء الحرب. قبل نهايتها بشهور. قتلها جندي ألماني أثناء انسحاب الألمان. تصوَّر؟ كان مختبئًا بين بعض الأشجار وخرجت هي تجمع بعضًا من نبات عش الغراب، وربما خشي أن تراه فتصرخ، أو ربما ظنها جنديًّا. المهم أنه صرعها.

– وأبوك.

قال لها فاليري شيئًا بلهجة حادة، فهزَّت رأسها في عناد دون أن تنظر إليه. قالت: أبي لم أرَه مطلقًا؛ فقد اعتقلوه قبل أن أولد بشهر، وظلَّ في المعتقل حتى مات.

تأمَّلتها حائرًا، ثم سألت: من هم الذين اعتقلوه؟

أجابت: رجال ستالين. من غيرهم؟

عدت أسأل: وماذا فعل؟

– لا شيء. هل تظن أنه كان من الضروري أن تفعل شيئًا لتُعتقل؟

– ربما كان ضد الاشتراكية.

– لم يكن أكثر منه إخلاصًا وإيمانًا بالحزب وستالين نفسه.

– إذن كيف؟

هزَّت كتفها: هذه قصة أخرى.

هبَّ فاليري واقفًا في عنف وقال إنه سينزل ليشتري شيئًا.

قلت عندما غادر المسكن: يبدو أن حديثنا لا يعجبه.

قالت: إنه يشكو من إفراطٍ في إحساسه الوطني. وهو يعتقد أن هذه الأشياء يجب ألَّا تُقال للأجانب.

– ألَا تخشَين أن يسبِّب لك بعض المتاعب؟

قالت: لا أظن؛ فنحن أصدقاء.

تناولَت الترانزستور وجعلَت تعبث به قائلةً إنها تود أن تسمع إحدى أغاني البيتلز، وسألتها عن أحب أغنية لديها، ففكَّرت لحظة، ثم قالت: أغنية فرنسية اسمها: لا تقل لي سأحبِّك غدًا. قبِّلني الآن.

نهضت واقفةً وأشعلت سيجارة، ثم جلست من جديد، وساد بيننا الصمت حتى عاد فاليري بزجاجتَين من البيرة المثلَّجة وضعهما أمامنا، ثم أحضر من الداخل ثلاثة أكواب وطبقًا من السلاطة الخضراء وآخر من البطاطس المسلوقة.

دار الحديث ونحن نشرب البيرة حول يوفتوشنكو وشعره، وقال فاليري إنه يحبُّه لموسيقى شعره وليس لمضمونه. سألته عن السبب فلم يجب، وقالت تانيا: لقد كان يوفتوشنكو شيئًا فيما مضى، أما الآن فقد أصبح يفضِّل الموضوعات السهلة الآمنة.

بدأ فاليري يتحدَّث عن الوضع السياسي في مصر وكيف أننا قطعنا خطواتٍ جبارة، وبدأنا نبني الاشتراكية. اعترضته بيدي قائلًا إني لا أُريد الحديث في السياسة.

تطلَّعَت تانيا إليَّ مبهوتةً وسألت: لماذا؟

قلت: لقد مَلِلت ترداد نفس الأشياء. دعونا نتحدَّث في شيء آخر. ليحدِّثنا فاليري عن فتاته.

احمرَّ وجهه، وصفَّقت تانيا بحماسة قائلة: أجل احكِ لنا.

قال: ليست لدي واحدة محدَّدة.

قلت: لا أتصوَّر أنك لا تحب.

قال: أنا أحب عملي، وليس عندي الوقت لشيء آخر.

خاطبته تانيا: ولكنك ستجد الوقت بعد عام أو عامَين لتتزوَّج كي تهرب من ضريبة العُزَّاب وتحصل على مسكن.

انهمك فاليري في إخلاء المائدة، ثم استبدل غطاءها بآخر من المشمَّع المنقوش بزهور كبيرة ملوَّنة، وحمل الغطاء الأول إلى الداخل.

مالت تانيا برأسها فوق المائدة وأسندت خدَّها إلى الغطاء وهي تتطلَّع إليَّ باسمة. تأمَّلت شعرها الذي انتشر فوق الغطاء الملوَّن محيطًا بوجهها، وانتقلَت عيناي إلى شفتَيها المنفرجتَين وعينَيها اللتَين صارتا شديدتَي اللمعان.

تذكَّرت أن الغد هو الجمعة، ففكَّرت أن أعرض عليها أن نتقابل، لكن فاليري عاد في هذه اللحظة واستقرَّ إلى يميني مشعلًا سيجارة.

هبَّت تانيا فجأةً واقفةً قائلةً إنها ستعد لنا شايًا، واتجهَت إلى المطبخ فقمت خلفها قائلًا لفاليري إني سأساعدها.

كان المطبخ الصغير في حالة فوضى تامة، ووقفت في المدخل أرقبها وهي تُشعل موقد الغاز، ولمحتني هي فقالت غاضبة: أرجوك أن تعود إلى الصالة؛ فلست أُحب رؤية الرجال في المطبخ.

انضممت إلى فاليري وجلسنا في صمت نصغي إلى موسيقى راقصة من الترانزستور، وعادت تانيا بالشاي بعد لحظات، ثم أحضرت الفناجين وإناء السكر وهي تهتز على نغمات الموسيقى. تولَّيت أنا وضع السكر في الفناجين وصب الشاي. قلَّبت السكر بينما تانيا ترقص في منتصف الصالة وقد رفعت وجهها نحو المصباح وأغلقت عينَيها في نشوة.

كفَّت عن الرقص واقتربت مني مادةً يدها لتأخذ كوبها. قلت لها: انتظري حتى يذوب السكر.

قالت وهي تحرِّك قدمَيها مع الموسيقى: لا أستطيع الانتظار.

شربنا الشاي ونحن نصغي للموسيقى، وساد بيننا الصمت بعض الوقت، وبدت تانيا فجأةً ساهمةً مقطبةً وقد فقدت كل حيويتها، وظهرت الغضون الخفيفة من جديد حول شفتَيها.

قرَّرت الانصراف فلم يعترض أحد، وقالت تانيا إنها ستنصرف بدورها. غادر ثلاثتنا المسكن، وانتظرنا أنا وتانيا على الدرج حتى أغلق فاليري بابه بالمفتاح. لحظت أنه نسي النور مضاءً بالداخل. قلت له فقال وهو يهبط الدرج خلفنا: أنا أترك النور دائمًا مضاءً لأني أكره دخول المسكن في الظلام.

قلت وأنا أخطو إلى الطريق إني أفعل مثله.

رافقتنا تانيا إلى منزلها، وعندما مررنا بالمنزل الذي يسكن به ياكونوف رأيناه واقفًا في ظلمة المدخل يدخِّن، وابتسم لنا ابتسامته الصافية وهو يضحك ضحكاته الصغيرة الخجولة، وكان يبدو ثملًا.

تبادل فاليري معه بضع كلمات، وانتهزت الفرصة لأسأل تانيا في صوت خافت إذا كان يمكن أن نلتقي في الغد.

أجابت على الفور: لا أعرف. لا أعتقد لأني سأكون متعبة.

قلت: ولكننا اتفقنا على القيام بجولة في المدينة.

قالت: لا أظن أن هذا ممكن.

ثم أضافت: سأكون في النادي بعد غد. تعالَ إذا كان لديك وقت.

أنهى فاليري حديثه مع ياكونوف، ولوَّحنا له بأيدينا، ثم واصلنا السير حتى منزل تانيا. انتظرنا حتى صعدت، ثم عدنا أدراجنا، وأصرَّ فاليري على مرافقتي إلى محطة السيارات وبقي إلى جواري حتى جاءت سيارة المهندسين وصعدت إليها.

* * *

القسم الثاني

تكاثف الغبار وأشرفت قافلة القلابات على هُوة المحجر الهائلة التي تألَّف جدارها من ثلاثة طوابق، برز من كلٍّ منها شريط ضيِّق من الأرض، استقرَّت فوقه حفارة كبيرة نُقشت الحروف الروسية التي تشكِّل اسم الاتحاد السوفياتي على صندوقها، الذي كان يدور فوق محوره في حركة سريعة، وجرسه يدق محذِّرًا، وتدور معه الذراع الطويلة التي تنتهي بالكباشة ذات الأنياب الحديدية البارزة، وتزمجر الآلة، وتُصر تروسها، ثم يتوقَّف الصندوق عن الدوران وتمتد الذراع إلى الجبل وقد ازدادت طولًا على طول حتى تصطدم بسفحه الجرانيتي أكثر الصخور شيوعًا، وأساس القارات جميعًا الذي تكوَّن من مواد مصهورة صعدت من أعماق الأرض وتجمَّدت عندما تعرَّضت للجو، فتبلورت معادنها وتلاصقت دون أن تترك مكانًا لفراغات الهواء، فأصبحت وسيلة الضغط الأولى في بناء السد بعد أن استُخدِم في بناء خزان أسوان، ونحت منه مختار تمثال نهضة مصر، وقبل ذلك نحت منه الفراعنة أبا الهول، ومِن تَرسُّب فتاته تكوَّن الحجر الرملي الذي بنى منه رمسيس الثاني سلسلة معابده على شاطئ النيل، بعضها شُيِّد تشييدًا، والبعض الآخر نُحت في الصخر الحي، وتصدَّرته تماثيل فرعون في حجم خرافي يتطلَّع باسمًا إلى حيث تُشرق الشمس؛ لأنه كان يخشى غروبها في العالم السفلي، وتضرَّع لأمون: استجب لابتهالاتي يا أبي وسيدي. اجعل الخصوبة تتفتَّح في كل أعضائي، ولعل في مقدورك أن تمنحني الملك لمائتي عام وقرنًا بعد قرن. هبَّت الرياح محمَّلةً بالرمال، وعندما اصطدمت بالجبل حطَّت حملها الذي تراكم فوق واجهة المعبد فحماه من عبث اللصوص وأنقذه من أن يتحوَّل إلى كنيسة على يد الأقباط ومسجد على يد المسلمين، وصان لنا التماثيل سليمةً إلا من آثار التعرية المتواصلة، فتغيُّر درجات الحرارة بين الليل والنهار يُحدث تمدُّدًا وانكماشًا

في الصخر يؤدِّي إلى تفكُّكه وتفتُّته، وتكتسح الرياح والأمطار الفتات وتُسقطها عند أقدام المرتفع التالي، وما تلبث إفرازات الحيوانات وبقايا النباتات أن تنضمَّ إليها، وتتحوَّل هذه الرواسب المفكَّكة الرخوة إلى صخور متماسكة بتوالي تراكمها، وتستوي طبقات تظهر فيها آثار نقط الأمطار وأرجل الحيوانات وكل ما وقع من أحداث، ثم تجف فتنكمش ويتضح ما بها من مواطن ضعف تتكسَّر عندها إلى زلط ورمال متنوِّعة الأحجام والأشكال تتراوح بين الخشن والناعم. تنطلق بها شاحنات الماز والبيجماز والكراز إلى جسم السد، فتدور كل منها حول نفسها وتتراجع بمؤخِّرتها، ثم يرتفع صندوقها تدريجيًّا، وتتساقط حمولته في ضجة وغبار حتى يُصبح الصندوق في وضع شبه عمودي على السيارة، ويخلو تمامًا، وعندئذٍ يعود إلى وضعه الأفقي في بطء، بينما تمضي العربة خفيفةً سريعةً لتأخذ مكانها من جديد أسفل الكباشات التي تخطئ الهدف أحيانًا؛ فترتفع في الهواء فارغة، ولكنها توالي العمل حتى تنتزع القشرة الصخرية عن سفح الجبل، وتتكشَّف للعيان طبقات الطمي ذات الألوان الحمراء والصفراء والزرقاء تبعًا للأكاسيد المكوِّنة لذراتها الرِّخْوة التي تنهار تحت أبسط ضربة، وتتخذ هيئة حبيبات متناهية في الصغر بينها مسافات دقيقة للغاية، إذا ما أُضيف إليها قليل من المياه تكوَّنت منه بتأثير الجذب الجزيئي بينهما أغلفة ثابتة تحول دون مرور الماء خلال الحبيبات، وبذلك تتحوَّل المادة الهَشَّة إلى عنصر قوة وتماسك يؤلِّف ذلك الحائط المنيع في قلب السد المسمَّى بالنواة الصمَّاء التي تمتد منها فرشة أفقية في جسم السد الأمامي المُطل على البحيرة، وأخرى رأسية تحت سطح الماء وداخل الطبقات الرسوبية المكوِّنة لقاع النهر حتى الأساس الجرانيتي الصلب، مؤلِّفةً الحاجز الرئيسي في وجه جريان الماء المستمر الذي يجرف أمامه كل شيء من صخور تمثِّل الشيء الحقيقي غير المجرَّد الذي لا يُناقش من أي نقطة إلى الرمال التي تحمل آثار الأحداث هي وطبقات الطمي تصعد فيها الكباشات مخلِّفةً في حائط الجبل جراحًا طوليةً تُشبه آثار أصابع هائلةً لسجين عملاق حاول في لحظات يأسه أن يتسلَّق الحائط، فحفرت فيه أظافره مسارات لها كما فعلت الأظافر القذرة للحارس العجوز في ظهورنا، وقد أرسلوه يداوي جراحنا لنتلقَّى المزيد. أمَّا شهدي فلم يكن بحاجة إلى مداواة، وعبثًا حقنوه بالكورامين وقد أشفقوا أن يُفلت بهذه السهولة، لكن الحياة قد فارقت الجسد العملاق، وأغمضت عينَيه في سبات الراحة العميق كما رقد المسيح في حجر أمه، وهو ما لم يفعله نحَّات من قبل «ميكل أنجلو» الذي أدرك منذ البداية أن الأمر سيكلِّفه حياته كلها، لكن ما من إثارة محمَّلة بخطر الموت تفوق إنسانًا وحيدًا يسعى ليخلق شيئًا لم يوجد من قبل. فتفتَّت الصخر تحت ضرباته

كما يتفتَّت الكعك، بينما الْتحم إيقاع الحركة الداخلية لتنفُّسه بالحركة الصاعدة الهابطة للمطرقة في يده وهو يزلق الإزميل في الثلم الذي صنعه في الصخر، وأرسل وقع الضربات موجاتٍ من القوة صعدت في ذراعَيه إلى كتفَيه وصدره، وهبطت إلى حجابه الحاجز وساقَيه وقدمَيه، وتعلَّم أن الصخر هو السيد وإذا ما ضرب في المكان الملائم كشف عن نفسه للفنان الذي يعرف بالأوضاع الدقيقة لتمثال الرجل بتركيبات لا تقوى النيران على حرقها، ولا تستطيع المياه إذابتها، وربما ذابت آلام السياط في الأصابع التي تحسَّست الصخر لتشكِّل صورة رمسيس إلهًا بين الآلهة المنتظرة في المعابد، حتى يحقنها الخبراء لتقاوم الزمن دهرًا آخر هي وصور التعذيب والقتل وأكاذيب رمسيس ومزاعمه، وصخور السد التي يحقنونها بطبقة رفيعة من مزيج أربع مواد؛ اثنتَين منها من روسيا تُخلطان برمال وطمي مصر الممتدَّة من أدناها إلى أقصاها مجموعة من القرى المظلمة ترتعش في جنباتها ذؤابات مصابيح الزيت، والمدن المتشابهة بسجونها التي تقع عليها أشعة الشمس في نفس الاتجاه وتتسلَّل إلى زنازينها في نفس الموعد دون أن تُفلح في تبديد البرد الجاثم. وعبثًا حاولت أن أبعث الدفء إلى شفتَيها وقالت إنها خائفة، فأطفأنا النور ووقفنا في الظلام نُنصت إلى أصوات الشارع، وميَّزَت ضحكة ياكونوف وقالت إنه عائد ولا شك من اجتماع متأخِّر، بُحثت فيه مشاكل الحقن في النواة الذي كان من عشر سنوات يُعتبر أعجوبةً تُداني ذلك العمل من أعمال الخلق الذي لا بد فيه من الطعنة، الاختراق، النبض المتوتِّر، الحفر إلى أعلى نحو قمة جبارة من الامتلاك الكامل، فعل الحب نفسه، الجماع بين النماذج الذهنية والأشكال الكامنة في الصخر. وقالت نييت، فلم أعبأ وواصلت نزع الرداء، فقالت يجب ألَّا تفعل، لكنها حرَّكت فخذَيها تُساعدني على انتزاع القطعة الأخيرة، وقالت شيئًا بالروسية، ثم بالإنجليزية، لكني لم أعِ؛ فقد كان بصري مُعلَّقًا بفتحة الممرِّ الضيق الذي يمتد بطول جسم السد، ويبدو من الخارج كقطار طويل موشك على التحوُّل في إحدى المنحنيات وقد بدت فواصل عرباته التي كان بعضها لا يتعدَّى هياكل حديدية تُغطِّيها صناديق خشبية يجري ملؤها بالخرسانة، بينما تجلب قلابات زيل الرشيقة الطمي تُكوِّمه على جانبَيه، ويتولَّى الصعايدة رشَّه بخراطيم المياه، ثم تقترب منه البلدوزرات وقد ارتفعت دروعها الأمامية كأنها جيشٌ من المحاربين يستعد القتال، وتتقدَّم فوق التراب، ثم تهبط الدروع في بطء حتى تلامس الأرض، وتبدأ في دفع الطمي وتمهيده حتى تدكه الهراسات، وعمَّا قريب ترتفع أكوام الرمال والطمي حتى تُغطِّي إلى الأبد ممرَّات التفتيش الثلاثة التي ستُصبح الطريق الوحيد إلى قلب السد، حيث تبقى حيةً أجهزة تمتص ما قد يتسرَّب إليه

من مياه، وتقيس ما قد يتعرَّض له من تطوُّرات، أمَّا الآن فليس بها غير آلة التخريم الدقاقة التي ترتعش في ذبذبة متواصلة وعمودها يتحرَّك صعودًا وهبوطًا متقدِّمًا إلى أسفل داخل ماسورة عمودية من الصلب وصاح العامل محذِّرًا فقد وقعت قطعة حجر على العمود، ولا بد من الاستعانة بقليل من الديناميت لتفتيتها، وهي مشاكل مألوفة تُقابل التخريم في الأرض غير المتجانسة التي تنوَّعت مكوِّنات المعادن في بلوراتها، يتحطَّم بعضها إذا ما ضُرب الإزميل في الصخر ضربةً عشواء، ولم أفهم حتى كرَّرت أنها تتألم دائمًا منذ كانت المرة الأولى قبل سنوات، ولا بد من الرفق؛ فالمادة الغنية الدافئة تفقد توهُّجها أمام التعنيف والهرولة، وتلتفُّ الصخرة بنقاب حجري صلب يمكن تحطيمه بالعنف، لكن لا يمكن إرغامها على أن تُعطي؛ فهي تستسلم للحنان. يرتجف فاستبدلوه بآخر أكثر سمكًا ينتهي بما يشبه الكرة، وعاد العمود يهبط، وتزداد إشعاعًا ولمعانًا. وتلمَّسَت أصابعي سطوح الجسد العاري وثناياه حتى حرَّكَت رأسها في بطء، وشعرت بشفتَيها تلينان، وأخذ جسدها يتلوَّى تحت أصابعي، وانفرجت ساقاها، وهناك كانت مبتلةً أيضًا. وتوقَّفت الآلة عن الحركة، وسرَت فيها رعشة خاطفة تكرَّرت عدة مرات، وأخرجوا العمود وهو ما زال بالحفرة، بينما صعدت الكباشة في الصخور التي فتَّتتها أصابع الديناميت بعد قرون من فعل الرياح التي تكتسح ما يقابلها من رمال وحصًى، وتضرب به صخور الجبال في عنف فتأكل في جنباتها وتجعل فيها بروزات ونتوءات تاركةً الحصى الملقى على الأرض في شكل أهرامات مثلثة صنعه اتجاه هبوبها، وربما كان هذا هو السبب في أن الفراعنة عندما أرادوا أن يصونوا قبورهم أبد الدهر بنَوها في شكل الأهرامات الذي اتخذته رءوس الروافع الثلاثة العملاقة فوق مبنى الأنفاق المرتفع أحد عشر طابقًا. عامًا بعد عام سيرتفع السد كله ليصبح في مستوى هذه القمة، أمَّا الآن فهو بعدُ هياكل حديدية وأخشاب وأسمنت ودرجات حديدية رفيعة وأسياخ مُشرَّعة وجدران عالية مائلة ومواسير حمراء وأخرى سوداء سميكة تمتد بعرض السد وثالثة رفيعة تنتصب عموديةً عليه هي أعمدة آلات التخريم التي يخرجونها بسرعة من الحفرة، بينما يسيل الماء ممزوجًا بالطمي من الكرة المثبتة في أطرافها، وعندما يتم إفراغ الكرة تمامًا من محتوياتها تُعاد إلى الحفرة من جديد، وتتكرَّر العملية والعمود يتقدَّم نحو الأعماق حيث تغلي الحمم وتتحرَّك المادة المصهورة حركةً بطيئةً بحثًا عن موضع ليِّن تنطلق منه ضاغطةً على طبقات الأرض الخارجية، فتتثنَّى جبالًا ووهادًا وطرقات متعرجةً منحدرةً نقلت خطواتي فوقها في إعياء بين قطع الصخور التي تدحرجت من حول الكباشة دون أن تستقر فيها، حتى اصطدمَت أسنانها

بواحدة كبيرة، ودار صراع عنيف بين الحديد والجرانيت، كانت الغلبة فيه للآلة، واستقرَّت قطعة الصخر في قاع الكباشة التي دار بها صندوق الحفارة في حركة سريعة إلى اليسار مقتربًا من مؤخِّرة قلَّابة وهو يدق جرسًا حادًّا بإلحاح جعلنا نرتجف ونلتصق في الظلام منصتين وقد سرَت البرودة في أطرافها حتى توقَّف رنين الجرس، وسمعنا صوت خطوات تهبط السلم الذي قادتني درجاته الحديدية الضيقة إلى حيث جلس الصعيدي المعمَّم القرفصاء وسط الخراطيم والكابلات واللمبات والأدوات الكهربائية، إلى جوار زير امتلأ بالماء وبرزت منه زجاجات الغازوزة، وأمامه موقد جاز يحمل براد الشاي وحوله عشرات الصعايدة الذين يحملون الأتربة في المقاطف ويرشُّون الطمي بالماء يتناولون منه أكواب السائل الأسود، ويتطلَّعون إليه في بلادة بينما يجذب قلمه من ثنايا عِمته، ويسجِّل لكلٍّ منهم حسابه في كراسة بالية قذرة؛ فما زالت الأرقام والحروف لديهم ألغازًا غامضة، والفرصة قد فاتتهم إلى الأبد وإلا لكانوا عرفوا طريقهم إلى الفصول التي خرَّجت آلاف العُمَّال المهرة والملاحظين، يُديرون اليوم حفارات الديزل الكهربائية والبلدوزرات والهراسات والرافعات الهوائية والرافعات الكهربائية وأجهزة الحقن، يُخرجون قضيب التخريم عندما يصل إلى العمق المطلوب ويستبدلونه بماسورة مزركشة بثقوب على أبعاد متساوية تغلِّفها أغطية من المطَّاط، يدفعون إلى داخلها بأنبوب الحقن الذي يحمل ثقوبًا مماثلة، ويُديرونه قليلًا حتى يسد بعض الثقوب في جدار الماسورة الأولى، ويصبح مواجهًا لثقوب أخرى، بينما يستقبل خليط الحقن تدفعه إليه المضخَّة الماصة الكابسة فينتفخ المطَّاط الذي يغلِّف ثقوبه كما ينتفخ الجلد الذي يغلِّف طبقة الشحم المتراكم فوق جسد مقاول الأنفار وقد جلس إلى مقود سيارته وبجواره زوجته السمينة، يلتف الذهب حلقاتٍ حول ساعدَيها، وهؤلاء هم الذين سيحكموننا، وقد سبقتهما سيارة رحلات قادمةً من كامبريدج أحاط بها ثلاثة من السياح الإنجليز رفعوا كاميراتهم إلى عيونهم وقبل ذلك جاءوا غزاةً ومحتلين، وصعدت جحافلهم إلى أعالي النيل تنشر الموت والفناء، وامتزج ماء النهر بدماء الألوف الذين سقطوا برصاصهم عبر المستنقعات والغابات والسهوب والطرقات المتعرِّجة الضيِّقة التي تتتابع صعودًا وهبوطًا، تزحف فوقها الشاحنات والقلابات المحمَّلة بالصخور والزلط والرمال والطمي، والأخرى الفارغة تنطلق خفيفةً سريعةً وتتقدَّم من خراطيم المياه بمؤخِّرتها بعد أن ترفعها إلى أعلى ليتسنَّى للعامل الواقف على درَج بجوار الخرطوم أن يغسلها جيدًا لتمضي بعد ذلك إلى موقعها تحت الخلاط أكثر نشاطًا فوق طرقاتٍ لم تكن هنا بالأمس، وستردم في الغد صانعةً طرقاتٍ جديدة مضيت فوقها حائرًا دائخًا أبحث عن مداخل

الأنفاق الستة، مارًّا بروسي يرتدي قميصًا ملوَّنًا وقبعةً سميكة من الفلين، ويتدلَّى من كتفه ترموس كبير امتلأ بالشاي أو الماء المثلَّج، جعلني منظره أشعر بعطش لم يروِه منظر المياه التي انبثقت تحت أقدامي فجأةً في مجرًى ضيق بين حائطَين من الصخور الحادة غير المتساوية التي استسلمت في مكان وقاومت في مكان آخر، صانعةً القناة التي أُجبر النهر ذاتَ صباح أن يتحوَّل إليها، فعرف لحظةً قصيرة مرعبة من الظلمة المفاجئة بعد رحلة شمس طويلة مرحة عندما ارتطمت مياهه بجدار النفق واصطدمت بقواعد التوربينات ثم اجتازت البوابات، ليجري مكسورًا هادئًا مستكينًا تحت عدد لا حصر له من الجسور الحديدية والخشبية، تتسرَّب قوته خلال آلاف القنوات التي يلعب فيها الصبية عرايا، وتستقر في قيعانها قواقع البلهارسيا مخترقًا المدن بلا صوت حتى يدفن نفسه في البحر الواسع، وهو الذي وُلد من ضجة وهدير أتاني من على بعد عدة أقدام، حيث وقف عدد من المهندسين الروس والعُمَّال المصريين يُطِلون على مياه الفيضان العالية السمراء تنحدر إلى القناة الضيقة من النهر الذي ارتفع بمياهه إلى حد البيوت يضرب بها العتبات برفق مجبِرًا خمسين ألفًا من سُكَّانها على الرحيل، حاملين أكياسًا من تراب الوطن وحجارته، تاركين خلفهم فُوَّهات سوداء تزحف إليها المياه حتى تغطيها تمامًا وتختفي الأرض التي ظلَّت قرونًا منجمًا للذهب، والرجال ينتشرون في أرجاء المدن خدمًا وبوَّابين، بينما تنتظرهم نساؤهم في رعب أعوامًا تتلو أعوامًا في قرًى لا تضم سوى العجائز، ستتحوَّل إلى بحيرة هائلة تقام عليها مصايد الأسماك ومصانع التعليب، وتنطلق منها الشاحنات السريعة فوق طرق ممهَّدة تُشرف عليها واجهة مبنى الأنفاق بفُوَّهاتها السوداء التي تُشبه أطلال معبد فرعوني ارتقيت إليها سلَّمًا حديديًّا رفيعًا حتى ضرب الهواء، وصوت تشي تشي قوي كالهواء المضغوط ساقي من فتحة في ماسورة، وتساقطت قطرات من المياه فوق رأسي إلى أن صرت في مدخل النفق أواجه رنينًا هائلًا مفاجئًا كاصطفاق ألواح هائلة من الحديد، وتشبَّثت بسلَّم حديدي ضيق الْتصق بجدار النفق المائل إلى أسفل، وهبطت فوق درجاته معطيًا ظهري للجدار الذي انحدرت عليه بجواري قطع من الزلط والأسمنت في قليل من المياه. بللت ملابسي وانتشر الظلام رويدًا رويدًا حتى اختفى الضوء الآتي من خلفي، وامتدَّ لسان منه أمامي تلاشى عندما انتهى السلَّم والجدار المائل، وامتدَّ النفق في مستوًى أفقي إلى ما لا نهاية. كتلة من الظلام أتتني عبرها أناتها متتابعةً وقد الْتفَّ ساقاها حول وسطي تجذبانني في إصرار، وتناثرَت حولي جنيهات ذهبية متطايرة من الدائرة الحديدية في السقف التي زحف العُمَّال كالعناكب في المسافة الضيقة بينها وبين الجدار، يحملون

شعلات الأكسجين الساطع، تُطلِق عند اللحام عاصفةً طاردَتني وأنا أتقدَّم ببطء شديد إلى أعماق الأسطوانة الهائلة حتى تبيَّنت فجأةً المصابيح الصغيرة المثبتة فوق الجدران على مسافات متباعدة فلا تكاد أشعتها الواهنة تبلغ قلب الظلام الذي بزغ منه بلدوزر هادر يرتج فوق جنزيره، ودرعه الأمامي مشتبك بالصخور يدفعها ويكوِّمها إلى جانب الجدار أمام حفارة وقفت على مبعدة وقد اختفى جسدها في ظلام النفق، ولم تظهر منها سوى ذراعها المنتهية بالكباشة حامت فوق كوم الصخور، ثم انقضَّت عليه كالصاعقة، فارتجَّ الصخر وارتجَّت الحفارة بكاملها، ونشبت معركة مدوية حينًا صامتةً حينًا آخر، كان لها نهاية واحدة محتومة؛ فقد ارتفعت الكباشة بحمل الصخور ودارت بسرعة ناحية اليمين، ثم توقَّفت وكشَّرت عن ابتسامة كبيرة انفصل فيها فكُّها الأسفل، وتساقطت قطع الصخور والرمال في قُمع كبير مثبَّت في كسارة فتتتها إلى زلط صغير انزلق على سيرٍ من المطاط إلى ماسورة ستقذف به إلى الخارج، بينما الكباشة ما زالت تُطل على القُمع من أعلى وقد تدلَّى فكُّها متأرجحًا في حركة بطيئة مسترخيةً مرةً إلى الأمام ومرةً إلى الوراء، تسيل منه بقايا أتربة، ثم عاد الفك إلى موضعه واستطال عنق الكباشة وهي تدور عائدةً لتنقَضَّ على كوم الصخور، لكنها ارتطمت بأرضٍ فارغة إذ أخطأ السائق الحساب، وجعلت تتطوَّح فوق الأرض يمنةً ويسرةً من أثر الصدمة، ثم ارتفعت عنها قليلًا لتقترب منها مرةً أخرى خافضةً الرأس، وأخذت تنطحها وتُزيح الأحجار بصدغها، ثم تحمل بعضها ولكنها لا تمتلئ، فتعاود كحت الأرض وتكويم الصخور وكبشها، وتصبَّب العرق على وجهي وغطَّى جسدَينا وامتلأت أذناي بالهدير المكتوم، مختلطًا بصرير الكباشة بجرس الحفارة بأنفاسها اللاهثة والتصقت بالجدار مفسحًا المجال لطابور من العُمَّال يحملون أخشابًا على أكتافهم تبعتهم شاحنة تحمل أنبوبةً طويلةً ذات درجات حديدية رفيعة مثبتة على جدارها تؤدِّي إلى منصة في قمتها، وتوقَّفت الشاحنة وارتفع ظهرها فرفع السلم التلسكوب رأسه حتى ارتطم بسقف النفق، وتأوَّهت فجأةً وقد تصلَّب جسدها فتقدَّمت بحذرٍ بين صناديق مغلقة عليها جمجمة التحذير من الاقتراب وداخلها المحوِّلات التي تغذِّي الحفارات والكسارات والمصابيح العاملة داخل النفق تمتد منها على الجدران إلى أعمق أعماقه الأسلاك التي كانت توصل عندما بدأ حفر الأنفاق بأصابع الديناميت، وتوضع في الخروم التي صنعتها آلات التخريم، ثم تُنسف ويرفع حطام الصخور الناتج بواسطة الحفَّارات إلى القلابات إلى الخارج، ثم تُزال الأحجار المخلخلة ويُبطَّن موقع الحفر بالخراسانة المسلَّحة التي تنهمر مرةً واحدةً من قُمع الخلاطة الضخم فوق ظهر القلابة، فترجها رجًّا وتُشبِّث إطاراتها القوية بالأرض

في يأس، ويتراقص السائق على مقعده، ثم تستكين وتسترخي أسفل القمع الذي تتساقط منه بضع ذرات أخيرة. تتحرَّك القلابة على أثرها مبتعدةً في جُهد لتنساب واحدةٌ أخرى، وينطلق طابور القلابات يئن ويلهث بين عنفوان الحركة الأولى وحشرجة الحركة الرابعة المسماة بالعجوز، ثم يُصب في الفُوَّهة السوداء الهائلة، لكن أطنان الخرسانة لم تحُل دون انهيار النفق، وكان أعتى الرجال يبكي أمام الكارثة؛ فقد عجزت كل الدراسات عن معرفة طبيعة الجبل؛ لأن مصر كانت مسرحًا لتفاعلات بركانية عنيفة كوَّنت في تربتها الْتواءات وفيالق شديدة لم تكن تتكشَّف إلا أثناء التخريم عندما تتعرَّض للجو فقاعات الهواء التي لا تُرى من الخارج؛ لهذا علَّموه منذ الصغر كيف يتنبَّأ بوجودها عندما يطرق الصخور بمطرقته فتعطي القطع الصلبة صوتًا كرنين الأجراس، أمَّا المعيبة فيكون رجعها باردًا، وتعيَّن عليه أن يقضي الليل إلى جوارها بعد أن غطَّاها ليقيها من البرد، وفي الفجر انحنى فوقها يتأمَّلها في ضوئه الذي جعلها تبدو شفافة، وكان هذا هو الموعد الذي ينهار فيه النفق دائمًا عندما يلين الصخر بتأثير البرد فيقبر أسفله ورديات كاملة من الرجال لا يصعد منهم أحد، وكان الكل مستعدًّا لأن يضحِّي بحياته في بساطة؛ فلم يكن هناك وقت للتفكير، ويوم تحويل مجرى النيل كانوا شعلةً من الحماسة، وشعروا بزهوة الفخر؛ لأن مصر قالت لا لدول لم تتعوَّد أن تسمعها، أمَّا نحن فكنا نلوك في الظلام حكايات معادة، وضوء ضعيف يتسلَّل من القُضبان التي تقف حاجزًا بيننا وبين الفعل، وعنده كان العمل في الاسكتشات، ومع النماذج هو التفكير، أمَّا الفعل فكان النحت مباشرةً بالضربة الحية التي ينفذ بها الإزميل إلى أعماق الرخام، ويصعد في المادة الحية الدافئة وقد ألقى النحات بجسده كله خلف المطرقة والإزميل يتقدَّم مخترقًا طيات المادة الطيِّعة حتى يبلغ الذروة، ويتدفَّق سيل قوته ورغبته وعاطفته في الشكل الذي يريده، وتستجيب قطعة الصخر فتعطيه من أتونها الداخلي وسيولتها حتى يلتحم النحَّات بالصخر ويصبحان شيئًا واحدًا بعد أن تبادلا العطاء مثلما يحدث لقضيب الحقن عندما يدور بسرعة حول نفسه ويكاد يشتعل هو والبلف من الحرارة، ويندفع الخليط داخله إلى أن تنتفخ به الأغلفة المطاطية التي تغطِّي ثقوبه، ويتزايد ضغطه عليها حتى يخترقها، وينتشر في التربة ملتقيًا بالخليط المتدفِّق من الثقوب الأخرى، ملتحمًا به في ستارة صلبة تمتد أسفل النواة الصمَّاء داخل الطبقات الرسوبية المكوِّنة لقاع النهر، حتى الأساس الجرانيتي الذي تكوَّن عندما خرجت الحمم من أفواه البراكين وسالت على جوانبها، ثم بردت وتجمَّدت صخرًا لا يستسلم إلا للمهارة والحب الذي جاش في الصدر عندما انقسم النفق فجأةً إلى نفقَين يؤدِّي كلٌّ منهما

إلى توربينة من توربينات المستقبل، وظهر بشير ضوء في نهايتها وقفزت من فوق إفرازات آدمية وأنا أحبس أنفاسي عن رائحتها، وكدت أتعثَّر في قطعة ضخمة انتزعَتها المياه الهائجة يوم التحويل ١٤ مايو ١٩٦٤ من مدخل النفق، وحملتها إلى القرب من مخرجه، وأصبحت أخيرًا في الضوء والهواء الطلق الحار والشمس اللاسعة إلى جوار شابٍّ روسي يغطِّي رأسه بخوذة من البلاستيك، ويُشير بيده إلى عامل مصري تعلَّق بسقَّالة فوق فُوَّهة النفق الفاغرة التي ابتلَّت جوانبها، وردَّدت طرقات «كيما» ذات المنازل المتوازية أصوات باعة الخبز واللبن المصريين ينادون بالروسية «خليب مالاكو»، فجاءنا الصوت عبر النافذة المغلقة التي يعلوها صندوق جهاز التكييف، وكادت تفقد معالمها بعد أن تلاشى ضوء الغسق، وانفردت النجمة الكبيرة بصفحة السماء وفي ضوء القمر، ضربنا قطع الزلط الواحدة بالأخرى فتوَّلد عنها ذلك الشرر الملوَّن الرائع، وأتت من النافذة المفتوحة التي تصدرَّتها قُلة الماء همهمةٌ بعيدة هادئة هي أصوات الأَسرة في الصالة المضاءة التي يلتمع بلاطها النظيف، ويفصلها باب عن دورة المياه كان زجاجه ما زال سليمًا لأن الشرخ حدث بعد ذلك وحمل إلينا الهواء صوتًا نائيًا عذبًا بالروسية، وقالت إنها ضواحي موسكو بالليل عندما تتكسَّر على طرقاتها أوراق الخريف وتتراكم فوقها طبقات الجليد، ثم تتنفَّس الحياة في البراعم الدقيقة، ويصبح الليل كله فجرًا، وهي المهرب من المدينة ذاتها بشوارعها الفسيحة المتدرِّجة صعودًا وهبوطًا ومبانيها الضخمة المجرَّدة من الجمال، وأنفاقها الهائلة، وكتلها البشرية المتدافعة عند أبواب المترو والمسارح والمطاعم والمحلات أسفل الشعارات المكرَّرة والأفيشات الضخمة لأناس يبتسمون في سعادة، بينما يتطوَّح السُّكارى عند مفارق الطرق، أو يركعون على الأرض في عرضها، أمَّا النساء فيغرقن تعاستهن في الطعام، وكلنا بدأنا بأحلام عريضة وثقة لا حدَّ لها، وضاعت بهجة الطفولة والشباب بين قنابل الطائرات وعربات السجون والصور الغامضة عن الجنس الآخر، تُجمع خفيةً وتُدس في مكان ما في متناول اليد كلُّ واحدة منها وعد بتلك اللذة الغامضة بين الساقَين، حتى تفجَّر الينبوع فأصبح للأسى معنًى. كلمة واحدة كانت كافيةً لفتح الجرح الذي لا يندمل، فإشارة اهتمام قد ترقِّي إلى مرتبة العاطفة المفتقدة، وهناك لذة لا تُدانيها لذة في حفر الجرح الغائر إلى الأعماق حتى يترسَّب الحزن طبقات من الصخور المفتَّتة، والرمال تكوَّمت تِلالًا إلى جوار مخرج النفق تحت أقدام درَج عمودي ضيِّق صعدتُ عليه أربعين درجةً حتى بدأتُ ألهث، وكدتُ أفقد توازني عندما نظرت إلى أسفل ورأيت الدائرة الخرسانية الكبيرة تُحيط بها شبكات من الأسلاك والقضبان الحديدية أُشرعت أطرافها المدبَّبة في الهواء، لكن رأسه تجاوزتها ارتفاعًا، والتفَّت

أصابعه الطويلة حول أسنَّتها، وكان عبثًا أن راح يجادل بالمنطق ويتساءل كيف يمكن أن يتآمر أحد ضد حكومة تبني السد، ففي الأعلى أسند الجنرال قائد الجيوش البرية خدَّه إلى راحته اليمنى مستمتعًا بالموقف؛ لأن كل شيء كان جاهزًا على الأوراق، والحكم معدًّا للتنفيذ، وقديمًا نصح ميكيافيلي بقتل بروتس وأبنائه، وعندما حلَّت بالنحات لعنة محكمة التفتيش بسبب قديسيه وشهدائه العراة لم يجده دفاعه بأنها الصورة التي خلق بها الرب آدم. ألم يقل لورنزو إن قوى التدمير تسير دائمًا في أعقاب الخلق والإبداع وانتقلت من درج خشبي إلى آخر حديدي، وهبط بالقرب مني وعاء حديدي ضخم يحمله خُطَّاف رافعة هائلة توقَّف لحظةً متمايلًا، بينما تبادل عشرات الناس المجهولين المتفرِّقين وسط المئات إشارات خفيةً تحرَّك الوعاء على أثرها قليلًا ناحية اليمين، ثم اتجه إلى اليسار وواصل الهبوط حتى استقرَّ وسط دائرة التوربين، ومدَّ أحدهم يده فجذب أحد جوانب الوعاء فانهالت الخرسانة في المكان الذي ستُصنع فيه أرخص كهرباء في العالم حتى تختفي الآلات اليدوية، وتُضاء مصر من أدناها إلى أقصاها، وتموت وحوش الليل، وبلغت قمة الدرجات فقفزت إلى الشرفة الصغيرة المُطِلة على مخرج القناة من فوق بوابات الأنفاق الضخمة التي يجب أن تُفتح اليوم لتمرَّ منها مياه الفيضان العالية وإلا اجتاحت المحطَّةَ كلها وأساساتها. ومضيتُ بمفاصل مرتعشة متشبِّثًا بحاجز حديدي ساخن فوق جدار مرتفع متحاشيًا التطلُّع إلى أسفل، حيث استقرَّت على جانبَي الجدار اثنتان من قواعد التوربينات فاغرتا الفاه، حتى بلغتُ نهاية الجدار وصعدتُ درجًا حديديًّا، ثم ارتميت فوق شريط من الأرض المترَّبة تراكمت فوقه أكوام الأسلاك والأخشاب والآلات المختلفة، وأشرفتُ من مأمن على القاع الذي تجمَّع فيه عددٌ من الصعايدة يقودهم عامل وضع فوق رأسه غطاءً معدِنيًّا أحمر اللون قد يكون روسيًّا أو مصريًّا، ويجمعون كلَّ ما تناثر في قاع حوض التوربين من قِطع الحديد والأخشاب والعِدد والأجهزة في وعاء حديدي كبير لم ينتظره خُطَّاف الرافعة حتى يمتلئ، فمضى يحمل هو أيضًا مجموعةً من القضبان الحديدية حُزِمت بالحبال، وارتفع من القاع حتى أصبح فوق الشرفة، وخفض الواقفون هناك رءوسهم حتى مرَّ الخطَّاف من فوقهم، وصاح أحد المهندسين بجانبي على عُمَّال القاع أن يصعدوا قبل أن تدهمهم المياه، فجرى بعضهم يتسلَّق السلَّم الحديدي الرفيع الذي حمله إلى جدار جرى فوقه إلى سلَّم آخر عريض، بينما تزاحم الباقون على قاعدة السلَّم الرفيع، وحاول أحدهم أن يصعده من جانب فكاد يقع، وتدلَّى منه آخر متأرجحًا في الهواء، وفضَّل ثالث أن يتسلَّق الجدار بقدمَين كالمخالب، وتبقَّى ثلاثة من الصعايدة في قاع الحوض يجمعون في بطء ألواحًا

من الأخشاب، ثم قاموا بحزمها ووقفوا ينتظرون الخُطَّاف ليحملها، وانبطح إلى جواري مُصوِّر روسي ينتظر في صبرٍ ليُصوِّر لحظة اندفاع المياه من النفق إلى الحوض ومنه إلى الخارج حيث ستنطلق دائمًا في وفرة تروي أرضًا جديدةً سينتفخ جسدها المتعطِّش للمياه، وتُعطي بدل المرة مرتَين في مأمنٍ من نزوات حابي الذي وُلد من الشمس عبر سيل من الأمطار فصار قبل قرون إلهًا ابن إله، بل أبو الآلهة عندما يُعلن الكاهن في صحن المعبد وسط البخور أنه سيأتي في موعده بعد أن كاد يفقد نفسه في العالم الآخر مع بقية الآلهة، التي قرَّر رمسيس أن ينضمَّ إليها في قدس الأقداس حيث كانت تجري الشعائر السرية في الظلام بعيدًا عن الشعب، فسهر الفنانون على أضواء مصابيح الزيت يعملون بالمطارق والأزاميل وأدوات الصقل والنقش، يحفرون بالضربة الحية من أعلى إلى أسفل، وعيونهم تحاول أن تتبيَّن مسبقًا الشكل الذي يحتويه الصخر؛ فهذا الفن لا يُتيح لهم ترف الخطأ والتصحيح، وخاطبهم قائلًا أمامكم الطعام والشراب وكل ما تشتهيه الأنفس، لتقولوا إن حُبَّكم لي هو الذي يدفعكم للعمل من أجلي، فأضفَوا على وجهه المتغضِّن سمات الشباب الدائم، وارتعدوا من الرهبة والإيمان أمام الابتسامة الخفيفة التي نحتوها بأصابعهم فوق الشفتَين الحسيتَين، ثم غمسوها في دمائهم وكتبوا اسم ستالين على الجدران وهم سائرون إلى حتفهم بأمره، وتفطَّرت أكبادهم عندما سمعوا بموته، فتجمَّعوا من كل حدب وصوب للوداع الأخير، وما لبث الرجال الذين أودعهم وراء القضبان بالملايين أن خرجوا للنور بوجوه شاحبة صفراء وشفاه جافة، وكانوا يحتشدون من البقاع كافةً ليتقرَّبوا إلى المعبود، وعلى الباب ينتظر الكهنة في مآزرهم الطويلة وصدورهم العارية؛ فهم وحدهم الذين يتمتَّعون بحق دخول قدس الأقداس حيث استقرَّت حتحور الفاتنة في تاجٍ من قرص الشمس يُحيط به قرنا بقرة، وقالت إنها المرحلة الأولى هي التي خلقت تلك الشبكة من التجاعيد الغائرة في وجه الروسي القصير أبيض الشعر الذي بنى العديد من السدود وتعرَّض للعديد من الأخطار، وكم ترك من ذاته في كل منعطف! كم من المساومات الصغيرة والكبيرة اضطُر لها ليُنقذ جلده! أمَّا هو فلم يبغِ سوى أن يكون نحَّاتًا، لكن الظروف أجبرته على أن يكون رسَّامًا ومهندسًا ومعماريًّا وشاعرًا، وقضى نصف حياته العملية بعيدًا عن الصخر الذي عشقه، وهو ما كان يدفعه لليأس الذي عرفه أول مرة في الصغر عندما حطَّموا له أنفه، وجعله هذا يعشق الجمال والصحة في الآخرين، ويقف مبهوتًا أمام الحفريات الناطقة بأن اليونانيين تعلَّموا أُسس النحت من المصريين الذين تركوا وراءهم آلاف التماثيل الضخمة ملقاةً في وجه الصحراء. اسمي أوزيمانديا‌س ملك الملوك، ولم يبقَ إلا ذلك التمثال غطَّته

الرمال حينًا من الدهر، والآن تُهدِّده المياه التي ستجتاح آثار ما تعرَّض له المسيحيون الأوائل من تعذيب، وتملأ الأحواض الجافة التي تُحيط بها سُفوحٌ شرسة تلسعها شمسٌ حارقة أدارت رأسي وامتصَّت كل بلل في حلقي؛ فتشقَّق لساني من العطش كما تشقَّقت الأراضي بعد ما جفَّت؛ إذ تراءت ليوسف البقرات السبع العجاف، وأكل الناس الجيف والميتات، ولم يبقَ لخليفة مصر سوى ثلاثة أفراس جُعلت على هيئتها تلك الروافع الحمراء التي تحرَّكت على قضبان مثبتة فوق أرض تستعد لرفع أبواب الأنفاق، وظهر اسم جمال عبد الناصر مُسجَّلًا فوقها بالطباشير، وتحته وقف صعيدي يبيع الماء البارد في قُلَّتَين من الفخار، وفي قاع الحوض بدأ فك السلالم وتقطيعها بالأوكسجين إلى أجزاء رفعها الخُطَّاف إلى أعلى حيث جرى لحامها على الفور، ولم يتبقَّ إلا السلَّم الحديدي الرفيع الذي بدأ فكُّه، ودوَّى جرس الرافعة الهوائية التي أرسلت خُطَّافها من جديد ليعود بسلَّم خشبي حلَّق فوق رءوسنا، بينما تجمَّع الصعايدة فوق الشُّرفة يتفرَّجون، وتزاحم الروس بقبَّعاتهم الثقيلة معتمدين على السياج الساخن بأيديهم، وتوتَّرت أصابع الروسي المنبطح بجواري فوق كاميرته، وكنا نبسطها أمامنا ظهرًا لبطن حتى يهبط عليها عبد السلام أفندي بسن المسطرة، ثم يستقر خلف مِنصته العالية رافعًا يده إلى فمه يقضم ما تكوَّن على سطحها من قشور جلدية ابيضَّ لونها من أثر الطباشير، وهو حجر جيري تكوَّن من رواسب الحيوانات والنباتات الميتة، ثم يرفع عصاه يتتبَّع بها على الخارطة مجرى النهر الذي خاض سلسلةً من المعارك منذ وُلد في أعالي الجبال، حتى جاءنا متعبًا منهوكًا، وانتهت مقاومته هنا فجرينا بين ضربات العصى الغليظة حتى الساحة التي استوى في أقصاها جنرال آخر بملابسه العسكرية والشارة الحمراء الناطقة بعلو رتبته، وحوله النظارة الذين جاءوا خصوصًا ليشهدوا الحفل من خلف عوينات سوداء، فتسمَّرَت عيناي على أُصبع مبلَّلة بالدماء في قبضة سمينة شقَّت الهواء، ثم تكوَّمنا على الأرض الحجرية ننزف من دون الجسم العملاق، والوجه الذي لم تشوِّهه آثار الجدري، وكان يكره التشويه في الجسم الإنساني، ولو أُتيح له لصنع مثل النحات أجسامًا عملاقةً تتفجر قوةً وصحةً وجمالًا، لكنه رقد على الأرض عاريًا كواحد من تماثيله الضخمة أسقطته قُوَى التدمير داود العملاق بِرقبته القوية والعروق النافرة في ساعدَيه ويدَيه اليسرى التي انفرجت وارتفعت قدمها قليلًا عن الأرض متحفِّزةً للفعل، ووجهه الذي استدار في حِدَّة إلى اليسار، مقطَّب الجبين، في عينَيه الخوف والتردُّد والشك؛ فهي اللحظة التي اتخذ فيها قراره بقتل جالوت، ومن وهب نفسه للفعل باعها لسيد عنيد لا يرحم، يسلبه حريته، لكن الفعل هو الطريق إلى

الحرية. وأنشد دواد ملكًا على مزموره: يا بني البشر، حتى متى يكون مجدي عارًا؟ فقد كان وقت في المساء عندما رأى المرأة المستحمة واضطجع معها، وعندما حبلت استقدم من الحرب زوجها الذي أبى أن يستمتع بها، بينما رفاقه يُواجهون الموت في الصحراء، فبعثه بمكتوب إلى قائده أن يجعلوه في وجه الحرب الشديدة، ويرجعوا من ورائه ليضرب ويموت، ولعله لقي حتفه وهو يردِّد بوجد اسم مليكه ذلك الذي صوَّره «ميكل أنجلو» في شباب كلٍّ منهما عملاقًا للروح والجسد، مؤمنًا بقدرته على قهر ما شاء، أمَّا موسى فقد صوَّره ناضجًا بقدرة داخلية على تحريك الجبال وقيادة الأمم وقد تجلَّى في عينَيه الناريتَين الغضب على تمرُّد شعبه، أم هو رعب الإدراك المفاجئ بأنه ضلَّلهم في البرية أربعين سنةً من الحرمان والعطش والجوع، عبر طريق لا يستغرق اليوم أكثر من ثلاثة أسابيع. وقال الرؤساء إن ما تجلَّى من حكمة السلطان وأمانته وإيمانه يجعله في غير حاجة إلى مشورتهم. وانتهت رحلة النحات قبل أن يبلغ التسعين بأسبوعَين، شهد خلالها الحروب والثورات، وتعرَّض فيها لنزوات البابوات وأهواء الكرادلة، لكنه كان يسير دائمًا في جنازاتهم بعد أن ينحت لهم قبورهم، وصار الصخر هو الشيء اليقيني في عالم تسوده الفوضى، والفن هو أرفع تعبير عن الحرية، وأسبل عينَيه في سُبات الراحة الأخير، مثل مسيحه الذي استقرَّ في حِجر أمه وقد انحنى فوق يده المستقرَّة على قلبها، وعلى وجهها الحزين تساؤل يائس عن جدوى هذا كله، فعلى مرمى البصر جرى النيل عند مخرج قناته الجديدة في هدوء، وظهر قارب وحيد ركن إلى الشاطئ عند الحنية التي تلتحم فيها القناة بالمجرى القديم، وشبَّ المصوِّر الروسي برأسه، وتوتَّر جسده استعدادًا للعمل؛ فلم يعد بالقاع غير شخص واحد جعل يصعد بسرعة الفأر درجات حديديةً صغيرةً تُركت في جدار الحوض، ثم ظهر خلفه فأر آخر، وعلى حافة ضيقة للغاية في مستوى رأسي وقف روسي يُلوِّح بيده يمينًا ويسارًا وهو يصرخ، وينحني بجسده إلى الأمام، ثم يعود إلى الوراء مُعرِّضًا نفسه للسقوط في أية لحظة، وارتعشت مفاصلي وتجمَّدت يداي على الأرض، ثم أطبقت قبضتَيها على حفنة تراب، وتحتي مباشرةً كانت مياه الفيضان متحفِّزة تقرع الباب، وعندما تُرفع البوابات الحديدية ستندفع إلى الأمام، ولا بد قبل ذلك من إدخال المياه إلى الأحواض بالعكس حتى تصبح في مستوى منسوبها، ثم يُفتح لها الباب حتى لا يُحدث اندفاعها ضغطًا يُحطِّم الجدران كما حدث مرةً من قبل، وجرت الرافعة الحمراء التي اتخذت شكل الجواد على قضبانها؛ فهي التي سترفع البوابات الخارجية الهائلة لتدخل المياه بالعكس. وتسمرَّت عيناي على البوابة التي كانت في مجال رؤيتي، وتوهَّجت أمامي حُمرة طلائها البالي وسط

جدران وقيعان شديدة الجفاف تكاد تشتعل من حرارة الشمس، وران صمت مطبق على المكان، وتعلَّقت العيون بذلك الخط الرفيع الذي ظهر أسفل البوابة عند الْتقائها بالقاع، وفجأةً سال منه قليل من الماء، وصفَّقت الأيدي، واهتزَّت أعطافي لرؤية المياه، وربما كان العطش هو السبب، وتسمَّر الفأر على السلَّم يتطلَّع إلى المياه مبهوتًا وقد سحره منظرها، وواصلت البوابة ارتفاعها، واتسع الخط الرفيع أسفلها، ثم اندفعت المياه في دوي عاصف، وسرعان ما غطَّت قاعَ الحوض وهي تقفز إلى أعلى، ثم تهبط ثانيةً في انطلاق تحوَّل إلى شيء كالبغتة عندما اصطدمت ببوابات النفق الداخلية التي تنتظر خلفها مياه الفيضان متحفِّزة، وحاولَت أن ترتدَّ من حيث جاءت، لكن البوابة كانت تواصل الارتفاع ومزيد من المياه يتدفَّق منها صاخبًا مرعدًا حتى أدركَت أنها محاصرة، فتحوَّلت في غضب حائر عاجز تُهاجم الجدران المحيطة بها، وامتدَّ منها لسان خاطف صوب الفأر المسمَّر على السلم، وتوهَّجت في عينَي ألوان الطيف وقد تجمَّعت على حافَّة الحوض، وامتزجت خضرة حديقة المعمل على الضفة الغربية بصفرة الرمال والسيارات والأكشاك، وسواد أعمدة التخريم والآلات، وزرقة صخور الجرانيت، ورمادية الشاحنات والقلابات، وحمرة الرافعة الضخمة والفناطيس الثلاثة المنتصبة، وبرتقالية قلابات البادفورد، وبياض مبنى المباحث، بينما تندفع في شدة ويتطاير رذاذها في الهواء منعقدًا فوق الرءوس التي شرعت تجري مُهلِّلةً في كل اتجاه.

القسم الثالث

الفصل الرابع

أشار لي عباس أن أجلس وهو يقول بصوته المتكاسل: لقد بعثتُ إليك لأني لم أرَك منذ سافر سعيد.

قلت: كنت أبحث عن صندل يحملني إلى «أبي سنبل».

قال: وماذا فعلت؟

قلت: وجدت واحدًا سيسافر بعد أيام.

قال: إذن لن تبقى هنا طويلًا؟

قلت: أبدًا. في اللحظة التي سيقوم فيها الصندل سأكون فوقه.

سأل: ومتى تعود؟

أجبت: لا أعرف، لكني سأعود إلى أسوان ومنها إلى القاهرة مباشرةً ولن تراني هنا.

استرخى في مقعده ومرَّ بيده السمينة على فارق شعره: ألم يوحشك سعيد؟ ليته ما سافر فموجة الوباء قد انحسرت فيما يبدو.

– طبعًا وحشني. عندما كان هنا كنت أشعر بالاطمئنان، أمَّا الآن فأنا أشعر أني مُتطفِّل، وأنتظر أن أُطالَب في أية لحظة بمغادرة الاستراحة.

قال: إنها غلطتك. لماذا لم تفعل مثل سعيد؟

قلت: ماذا تعني؟

قال: ألم يقل لك إنه ذهب إلى المباحث وسوَّى أموره معها؟

قلت: أية أمور؟ إنه لم يفعل أي شيء يعرِّضه للمأخذ. لقد كان يقوم بعمله فقط.

قال: هذا مفهوم، لكن المباحث تُحب دائمًا أن تكون هناك خيوط متفاوتة الطول تربط بينها وبين مختلِف أنواع الناس.

انهمك في تقليب بعض الأوراق أمامه وساد بيننا الصمت. قال بعد لحظة: سأقول لك خبرًا خاصًا ليس للنشر. اليوم سقط لوحٌ من الأسمنت على عامل روسي فصرعه، وربما كان أحد عُمَّالنا هو المسئول عن هذا الحادث.

– كيف؟

– لا أعرف التفاصيل؛ فهذا هو كل ما سمعته بالتليفون هذا الصباح.

تطلَّعت إلى الجهاز الذي استقرَّ على يمينه. سألته إذا كان متصلًا بالهيئة مباشرةً فأجاب بالإيجاب.

قمت قائلًا: الأفضل أن أذهب إلى الهيئة بنفسي فربما كان هناك ما يصلُح للنشر.

خرجت إلى الطريق ومشيت إلى مكتب البريد. أعطيت أحد الموظفين رقم المكتب الذي تعمل به تانيا فطلبه وناولني سماعةً يتدلَّى منها سلك مهترئ.

جاءتني أصوات متشابكة تتحدَّث الروسية. طلبت من أحدهم أن يصلني بتانيا، فاستفسر عمَّا أُريده بلهجة عدائية. أوضحت له أني صحفي وأن الأمر يتعلَّق بموعد مع أبراسيموف.

سمعت صوت تانيا أخيرًا، وعندما عرفتني اضطرب صوتها. سألتها عمَّا حدث فقالت: لا شيء. أنت تريد موعدًا مع مستر أبراسيموف؟

قلت: أنا أريدك أنت. لقد انتظرتك أمس أمام المنزل ولكنكِ لم تأتِ ... أين كنت؟

قالت في صوت ذي صبغة باردة رسمية: فيما بعد. مستر أبراسيموف مشغول اليوم.

قلت: سآتي إلى منزلك بالليل.

سألت: بمفردك؟

أجبت: أجل.

قالت: متأسفة. أنا متعبة. سأراك فيما بعد.

قلت: غدًا الجمعة، نلتقي في المساء.

قالت: لا أظن، سأقضي اليوم كلَّه في حمام السباحة وسأكون متعبة.

سمعت صوت إغلاق الخط وظَلِلت برهةً أُنصت إلى طنينه الفارغ، ثم أعدت سماعتي بدوري وعدت إلى الاستراحة.

أشعلت سيجارةً وتمدَّدت على الفراش، ثم غادرت الفِراش ومضيت إلى الخارج. وقفت أمام الاستراحة في الشمس، لكن الحرارة أجبرتني على العودة إلى الداخل.

استجمعت طاقتي بعد قليل ووضعت قُبعتي على رأسي وخرجت. انحدرت إلى الطريق الرئيسي ووقفت في الشمس حائرًا، وأخيرًا قرَّرت النزول إلى أسوان.

اتجهت إلى حيث يقف جندي البوليس الحربي عادة. وجدت هناك جنديًّا رقيقًا شاحب البشرة. عرَّفته بنفسي فطلب مني أن أقف بعيدًا عنه حتى لا يتجمَّع الناس من حولنا.

ابتعدت عنه بضع خطوات ووقفت أنتظر بجوار عددٍ من العُمَّال والصعايدة. أقبلَت علينا سيارة بوكس من طراز فورد تابعة للشركة، فتنحَّى الجندي عن طريقها، وعندما حاذتنا أشار إليها إشارةً واهنةً بأصبعه فواصلت السير دون أن تتوقَّف، وجاء في أعقابها أوتوبيس أخضر اللون من سيارات الأقاليم لم يكن به موضع لقدم، ثم ظهرت سيارة رمادية تابعة للهيئة توقَّفت بعد أن تجاوزتنا بخطوات. أشار الجندي لي ولمن يقفون حولي إشارته الواهنة أن نركب، فجرينا خلف السيارة، لكنها استأنفت سيرها قبل أن نتمكَّن من اللحاق بها.

خطوت عائدًا في بطء إلى موقفي السابق وأنا أتذكَّر الجندي الآخر المتلئ رجولةً الذي كان يحرِّك أصبعه في الهواء حركةً مسرحيةً قويةً فيخشع أجدع سائق وتقف أية سيارة على مسافة ربع كيلو من أصبعه. تكرَّرت مهزلة الأصبع الواهن مرةً أخرى حتى يئست من الركوب فعدت إلى الاستراحة.

أدرت جهاز التكييف وأظلمَت الغرفة، ثم بحثت عن فقير ليجلب لي شيئًا مُثلَّجًا، ووجدته خلف المبنى منهمكًا في تقشير كوم من البطاطس.

قال عندما رآني إن أحد موظفي الشركة كان هنا منذ قليل، وسأل عن موعد مغادرتي الاستراحة.

سألته في إعياء عمَّا إذا كان يعرف هذا الموظَّف من قبل.

قال: أول مرة أشوفه. قال إنه يشتغل في الشركة، وفي الأول سألني عن مواعيد خروجك واللي بيزوروك.

عدت إلى الغرفة واستلقيتُ على الفِراش أدخِّن، وجاء فقير بعد لحظة فأخذ الترموس وملأه بالليمون المثلَّج.

* * *

ذهبت إلى «كيما» في المساء بعد أن حلقت ذقني بعناية، ووجدت شقة تانيا مظلمة، ولم يستجب لي أحد عندما دققت الجرس، فانتقلت إلى الشارع المجاور وصعدت إلى مسكن فاليري.

كان الضوء يبدو من أسفل الباب. ضربت الجرس عدة مرات، ثم ألصقت أذني بثقب المفتاح، لكني لم أسمع حركةً بالداخل، وتذكَّرت أنه يترك النور مضاءً عندما يغادر المسكن.

مشيت في الشارع الفرعي الذي يفصل بين مجموعتين من العمارات المتوازية. مررت بفريق من الأطفال الروس يلعبون وقد عرَّوا النصف العلوي من أجسادهم، وأتاني من أحد الشوارع الجانبية صوت بائع لبن صعيدي ينادي بالروسية: مالاكو.

لمحت مجموعةً من الشبَّان الروس بينهم فتاتان طويلتان بجوار أحد الأكشاك التي تبيع السجائر والبيرة. اقتربت منهم لكني لم أتعرَّف على تانيا أو فاليري، واتجهت إلى النادي وأنا أتلفَّت حولي بين الحين والآخر أملًا في أن ألمح أحدهما.

كان النادي هادئًا على غير العادة. كانت هناك بضع عائلات روسية جلسَت في الحديقة بصمت، وفي الداخل كان الرجال الذين تناثروا حول الموائد يتطلَّعون أمامهم بوجوم. تذكَّرت حادث الصباح فتراجعت في هدوء.

مضيت في الطريق الرئيسي حتى السينما. كانت تعرض فيلمًا مصريًّا يُدعى «أيامنا الحلوة». وقفت على الناحية الأخرى من الطريق أتأمَّل مدخلها الخالي، ثم استدرت عائدًا إلى النادي.

ابتعت زجاجة بيرة من الداخل، ووقفت حائرًا أبحث عن مائدة خالية، ثم حملت زجاجتي إلى واحدة جلس إليها ثلاثة شُبَّان أحدهم مصري وأمامهم عدة زجاجات فارغة. هززت رأسي للمصري محييًا، فرحَّب بي ودعاني للجلوس إلى جواره، وتعارفنا فعلمت أنه يدَّعي أنور، وأنه من خريجي مركز تدريب المطرية، ويعمل كهربائيًّا في محطة التشغيل، ثم عرَّفني بالروسيَّين اللذَين يعملان معه. اتضح أن أحدهما أوكراييني وليس روسيًّا. كان ضخم الجسم، يكشف قميصه المفتوح عن صدر كثيف الشعر يحمل وشمًا أخضر، أمَّا الثاني فكان من سيبيريا.

أحنى لي الأوكراييني رأسه الضخم واضعًا يده على صدره وقال: منيه أوتشين برياتنا.

قال أنور: يقول لك إنه مسرور بالتعرُّف إليك.

لم يبدُ على السيبيري أنه يشعر بوجودنا أو يعبأ به، وقال لي أنور إن الروس جميعًا حزانى بسبب زميلهم، وإن السيبيري خفيف الدم عادةً ويجيد كلماتٍ كثيرةً بالعربية، ويقدِّم نفسه للمصريين على أنه صعيدي متزوِّج من ثلاثة، مُلقِّبًا نفسه بمحمود رمضان.

كان السيبيري فعلًا ببشرته التي لفحتها الشمس وعوده النحيل أقرب إلى شاب من الصعيد. كان وجهه يحمل تعبيرًا ساخرًا ثابتًا، وبدا على النقيض من الأوكراييني الضخم الذي ربض إلى المائدة يتطلَّع أمامه في هدوء شديد ودعة.

سألت أنور عمَّا إذا كان يعرف الروسية فقال إنه قضى عشرة شهور تدريب في مدينة ستالينجراد التي تسمَّى الآن فولجا جراد.

قال السيبيري فجأةً شيئًا بالروسية وهو يرفع كوبه إلى شفتَيه، وأوضح لي أنور أنه يقترح أن نشرب نخب لقائنا.

أفرغنا أكوابنا، ثم ملأناها ثانية وأعدنا الكرة بعد لحظات، وقام الأوكراييني فأحضر أربع زجاجات جديدة، واتصل بيننا حبل الحديث وأنور يقوم بمهمة الترجمة. حدَّثنا الأوكراييني عن زوجته التي ستأتي بعد أسبوعَين، وقال إنه سافر خصوصًا منذ شهرَين ليتزوَّجها، وسخر منه السيبيري متعجِّبًا من هذا الذي يقطع كل هذه المسافة من أجل امرأة، بينما النساء حوله في كل مكان.

روى السيبيري كيف قرَّر أن ينسب لنفسه ثلاث زوجات؛ كلما تعرَّفت بأحد العُمَّال المصريين ذكر لي أنه مُتزوِّج باثنتَين أو ثلاثة، وأدركت أنهم يتفاخرون بتعدُّد زوجاتهم، ويتباهَون علينا بعددهن.

فرغَت الزجاجات فقمتُ وابتعت أربعًا أخرى، وشربنا نخب الروس والأوكراييين والصعايدة والبحاروة والنوبيين والأوزبيكيين، وروى لنا السيبيري نكتة المغامرة النسائية التي قام بها خروشوف وعبد الناصر عندما كان الثاني في موسكو، وكيف أجمعا على رأي واحد بشأنها.

بدا وجه الأوكراييني شديد الاحتقان كأنما تجمَّع به كل ما في جسمه من دماء، وقلت لأنور: إنه ثمل تمامًا. فقال إن الروس في بلادهم يسكرون بشدة لكنهم يعملون على الأقل أضعاف ما نعمل، وأهم ميزة لديهم هي الصبر، أمَّا نحن فكسالى لا صبر لدينا نُريد أن نحصل على كل شيء دون مجهود وبالفكاكة.

أمَّنت على حديثه، فقال: العامل منا كان يرفض رفع الكابل من الأرض على أنه من عمل العتَّالين، في حين أن الروسي مهما كان مركزه لا يترفَّع عن شيء مطلقًا.

أحنينا رأسَينا فوق الشراب وقد ران علينا حزن جارف. سألته عن الفتيات الروسيات فقال في لوعة إنهن يتعاملن مع الرجال في بساطة، ولا يُعقِّدن الأمور مثل فتياتنا.

شعرت برأسي يدور، وأحضر أحدنا عدة زجاجات جديدة، وبدأت أحكي لأنور عن تانيا سائلًا إياه الرأي، فقال في حكمة مستوحيًا تجاربه في مدينة الفولجا: الفتاة الروسية تُحب سماع كلمة الزواج.

قرَّرت أن أذهب إلى تانيا وأعرض عليها الزواج، وعندما حاولت الوقوف لم أتمكَّن، وانهرت في مقعدي.

واصلنا الشراب، وأحسست أن أنور يقول لي أشياء هامة لكني كنت عاجزًا عن استيعابها، وتنبَّهت إلى أنور يكاد يحملني على ذراعه. كنا نقف أمام سيارة جيب في عرض الطريق، وتعاون أحد الجالسين في صندوقها الخلفي مع أنور على حملي إلى داخلها.

اعتمدت برأسي على كتف الجالس بجواري ورحت في النوم، وأفقت على هزَّات رفيقي، فتحاملت على نفسي وغادرت السيارة، وقادتني قدماي إلى الاستراحة.

استيقظت قرب الظهر غارقًا في عرقي. اكتشفت أني لم أُدِر التكييف قبل النوم، وشعرت على الفور بصداع حاد.

جلست على حافة الفراش واضعًا رأسي بين يدَي، وأحضر لي فقير ترموس قهوة. شربت عدة أكواب وابتلعت قرصَين من النوفالجين، ثم ارتديت ملابسي ووضعت رداء استحمام ومنشفةً في سلة من القماش، وضغطت قبعتي على رأسي، ثم انطلقت إلى الخارج.

وجدت سيارةً ذاهبةً إلى «السيل» فقفزت إليها، وغادرتها أمام النادي الروسي في «كيما»، ومضيت على قدمَي إلى حمام السباحة فولجته بعد أن ابتعت تذكرة.

خلعت ملابسي وارتديت المايوه، ووقفت أتأمَّل الموجودين الذين انتشروا حول الحوض فوق السور الحجري وتحت المظلات. كانت الرؤية صعبةً بسبب أشعة الشمس؛ فجعلت أبحث عن مظلة، وشعرت بالأنظار تتجه إليَّ وتتابعني.

وجدت مائدةً خاليةً كانت مظلتها مغلقة. جلست إليها دون أن أبسط المظلة، وشعرت بأن الأنظار ما زالت مُسلَّطةً عليَّ.

أشعلت سيجارةً كان لها طعم الأشياء المحروقة، وأخذت أتأمَّل المستحمِّين. كان أغلبهم من الروس. تأكَّدت بعد قليل أن تانيا غير موجودة، أمَّا فاليري فربما كان في الماء أو ممدَّدًا بعيدًا فوق السور؛ فقد كان هناك كثيرون في مثل قامته وحجمه.

وزَّعت اهتمامي بين مدخل الحمَّام والتعليقات الصادرة من مجموعةٍ من الشبَّان المصريين تجلس خلفي. كانوا جُلهم في ملابس الطريق الكاملة، وكانوا يتابعون فتاةً روسيةً متناسقة الجسم ارتدت لباس استحمام أرجواني اللون. كانت دائبة الحركة بين الماء ومجموعات الشبَّان الروس التي تناثرت أسفل وفوق السور، وسمعت أحدهم يُقسم أنه رأى شعر ما بين فخذَيها.

ظهرت تانيا بعد ساعة، ورأيتها تتجه إلى الكبائن بصحبة فتاة سمينة، ثم عادت في لباس أخضر اللون من قطعة واحدة وقفزَت إلى الماء.

نهضتُ واقفًا وسرت إلى الناحية الأخرى من الحوض حيث المياه غير عميقة، فنزلت إلى الماء وجعلت أسبح قليلًا، ورأيتها تُغادر وتجلس على السور في الناحية المقابلة لمظلتي ولم يبدُ عليها أنها لحظت وجودي.

صعدت من الماء ووقفت أمام مائدتي أجفِّف صدري وساقي، ولمحت صديقتها تنضمُّ إليها فوق السور، ثم قامت فجأةً وقفزت إلى الحوض.

ألقيت بالمنشفة فوق المائدة، ودرت حول حافة الحوض متجهًا إلى حيث تجلس تانيا، وشعرت بأنظار الشبَّان المصريين تتبعني.

رأيتها ترفع رأسها في مواجهة الشمس وتغلق عينَيها، وعندما اقتربت منها بدا لي وجهها شديد الشحوب وقد ظهرت الغضون حول شفتَيها.

جذبت مقعدًا من أسفل مظلة مجاورة وجلست أمامها، وفتحت هي عينَيها فظهرت عليها البغتة عندما رأتني، وأسرعت تضع نظارةً شمسيةً وهي تتطلَّع حولها في اضطراب، وفي هذه اللحظة اقترَبت منا صديقتها والماء يتساقط من جسدها، ووقفَت إلى جوارها تتأمَّلني من خلف عوينات سوداء ذات إطار أحمر قبيح.

قدَّمتني تانيا إلى صديقتها في لهجةٍ من تقول: هذا هو الذي حدَّثتك عنه. وتمدَّدت الصديقة على السور إلى جوارها. فكَّرت أنها في الأغلب لا تعرف الإنجليزية، وبوسعي أن أتكلَّم مع تانيا بحرية، فقلت لها إني ذهبت إلى منزلها مرةً أخرى بالأمس.

قالت: ما كان يجب أن تفعل.

قلت: لماذا؟

لم تُجِب.

تطلَّعت إلى لباس استحمامها الذي ظهر عليه القِدَم وبدا مُهدَّلًا على جسدها. سألتها: أين كنت؟

أجابت: ذهبت مع فاليا إلى أسوان وقضينا الليلة في كازينو على النيل.

سألت: من يكون فاليا؟

قالت: ألَا تعرف؟ إنه اسم الدلع لفاليري. وأمالت رأسها على كتفها وتطلَّعت إليَّ باسمة. شعرت برغبة جارفة في أن أُقبِّل شفتَيها المنفرجتَين.

تلفتُّ حولي فرأيت الأنظار متجهةً إلينا. كانت المجموعة المصرية قد كفَّت عن متابعة ذات المايوه الأحمر وركَّزت انتباهها على ابن بلدها الذي جرؤ على العبور إلى الناحية الأخرى من الحوض.

قلت: هذا مكان غير مناسب للحديث. هل أراك الليلة؟

تلاشت ابتسامتها وقالت في وجوم: في وجود فاليري.

قلت منفعلًا: ما هي حكاية فاليري هذا؟!

قالت: إنه أعز أصدقائي.

قلت: لكني لا أريد أن أراه.

قالت في حماسة: إنه شخص ممتاز وقد ساعدني في بداية مجيئي.

قلت: إنه شديد الثقة بنفسه ولست أُحب هذا النوع.

قالت: بالعكس هو ضعيف جدًّا وهو يتظاهر بهذه الثقة ليحمي نفسه.

انحنيت عليها ولمست ركبتها بأصبعي: تانيا أرجوك. لم أتِ لأناقش شخصية فاليري. قولي لي، ما الذي حدث؟ أنت لست كما كنت في آخر مرة ... فماذا حدث؟

قالت: لم يحدث شيء.

قلت: إذن لماذا؟ ...

قالت: لا فائدة من أن نلتقي مرةً أخرى؛ فأنت ستعود إلى القاهرة، وأنا سأرحل بعد عدة أشهر، والرسائل لا معنى لها وتُصبح بعد قليل زائفة.

قلت: ربما كنت مخطئة. اسمعي. دعينا نلتقي هذا المساء ونتكلَّم في الأمر.

قالت: كلا. لا أريد. لقد ضقت ذرعًا بكل العلاقات.

تكلَّمت صديقتها لأول مرة وقالت بالإنجليزية لتانيا: ماذا قلت؟

كرَّرت تانيا الجملة. وتحوَّلت إليَّ الأخرى قائلة: لقد ضاقت بك. ثم أضافت: إنها مزحة فلا تغضب. واعتدلت جالسة، ثم قامت واتجهت إلى الحوض.

قامت تانيا بدورها وسارت إلى مائدة مجاورة فأخذت من عليها علبة سجائر وكتابًا، وعندما عادت تبيَّنتُ في الكتاب طبعةً شعبيةً بالإنجليزية من رواية «وزارة الرعب» لجراهام جرين.

قالت وهي تقلِّب صفحات الرواية: سأمتنع عن التدخين من غدٍ وأركِّز على تحسين إنجليزيتي.

نادت عليها رفيقتها من الحوض، فوضعت علبة السجائر والكتاب جانبًا ومضت إلى حافة الحوض، ثم قفزت إلى الماء وخرجت بعد قليل فوقفت تجفِّف نفسها أمام مائدة جلس تحتها رجلان روسيان.

لمحت أنور فجأةً يقترب مني، وجذب مقعدًا وهو يحيِّيني ويسألني عمَّا فعلته بالأمس.

قلت: وصلت الاستراحة بمعجزة.

قال وهو يبتسم مشيرًا إلى الحوض: وكيف الحال؟

قلت: لا بأس. اسمع عندما تجيء أرجو أن تتركنا.

قام أنور على الفور وسار مبتعدًا. بعد لحظة أقبلت تانيا على مهل برفقة صديقتها، وتهالكتا على السور، وقالت الصديقة كم أنا عطشى!

قلت إني سأُحضر لهما شيئًا يُشرب. ذهبت إلى البوفيه فابتعت ثلاث زجاجات دافئةً من المياه الغازية، ولمحتهما تغادران السور وتجلسان إلى مائدة بصحبة روسي، فابتعت زجاجةً رابعة، وقفلت عائدًا بالزجاجات وأنا عاجز عن الرؤية في الشمس. وضعت الزجاجات على المائدة، ثم قدمت واحدةً إلى كلٍّ من تانيا وصديقتها، ووضعت أخرى أمام الرجل فلم يعبأ بي، وواصل حديثًا كان يدور بينهما، وسمعت اسم أنور يتردَّد وكلمتَي: «أرابيسكي» و«باروسكي».

حملت زجاجتي وجلست أمامهم على حافة السور، ولحظت أن أنظار الموجودين حولنا من روس ومصريين مُسلَّطة علينا.

نهضَت تانيا بعد أن انتهت من زجاجتها فتمدَّدت على السور بالقرب مني، وقفزت صديقتها إلى الماء، بينما ظلَّ الرجل في مكانه دون أن يلمس زجاجته. كان يضع نظارةً شمسيةً ذات عدستَين عاكستَين كالمرايا تجعل من المستحيل رؤية عينَيه، لكن وجهه المتجهِّم كان ناحيتي.

برز رأس الصديقة من الماء بجوار حافة الحوض، ونادت على تانيا وقالت لها شيئًا بالروسية في لهجة حادة. اعتدلت هذه جالسة، ثم قالت لي: سأنزل الماء.

قلت: ألن أراكِ مرةً أخرى؟

قالت بلهجة قاطعة: كلا.

وقفت قائلًا: حسنًا. سأذهب. وأشرت بيدي مودِّعًا لصديقتها، فقالت هذه: أتمنَّى لك حظًّا سعيدًا.

حملت زجاجتي الفارغة إلى المائدة فوضعتها بجوار زجاجة الروسي التي لم تُمَس، ومددت يدي إليه مودعًا فتجاهلني.

شعرت بالدماء تندفع إلى وجهي. لم أدرِ ماذا أفعل؟ فاغتصبت ضحكةً وأمسكت بساعده الأيمن وأجبرته على أن يبسط كفَّه وتصافحنا.

مضيت إلى المدخل فارتديت ملابسي، ولحق بي أنور متسائلًا عمَّا حدث، ولماذا انصرفت هكذا سريعًا، فقلت إن لدي موعدًا.

غادرت الحمَّام ودُرت حول سوره الخارجي في اتجاه الطريق العام. مررت بمحطة الخط الحديدي فتحوَّلت إليها وصعدت الدرجات المؤدِّية إلى رصيفها. اكتشفت أن حافة السور التي كُنَّا نجلس فوقها أصبحَت في مجال رؤيتي، فوقفت أتطلَّع إليها منتظرًا القطار، ورأيت تانيا من بعيد ممدِّدةً فوقه، ثم قامت وجلست على مقعد من القماش، وبعد قليل عادت تستلقي على السور، ووقفت أتطلَّع إليها حتى جاء القطار.

* * *

قبة الجامعة تربض في الظلام بغير أثر لضجة الصباح، وأمامها يقبع نصب الشهداء، ويمتد الشارع العريض الخالي من الكائنات تحف به الأشجار وأعمدة النور الشاهقة الارتفاع التي أغرقت المنطقة في ضوءٍ أقوى من القمر، وعلى اليمين تهتزُّ أشجار حديقة الحيوانات في غموض، وعبر الترام تصل الشوارع الجانبية المظلمة إلى شاطئ النيل، وهنا يلسع البرد الأنوف ويدفع بالأيدي إلى الجيوب، ومع ذلك يمكن المشي ساعات، وفي مناطق الضوء يمكن أن تلتقي العيون، وفي مناطق الظلام يمكن أن تتلامس الأكتاف. الطائر الصغير ما زال يحبو على الأرض، وليس من سبيل غير الانزواء في ركن الأوتوبيس الأنيق الذي خلا من الركَّاب، والاستسلام لصفعات الهواء البارد التي أثارها انطلاق السيارة الخفيفة مسرعةً إلى حيث ينتظر العجوز في لفاعته الصوفية وقد استقرَّ فوق فِراشه ملتجئًا إلى كتب الأولين، وخطوتان فوق بساط ممزَّق تؤدِّيان إلى الفراش الحديدي الصغير الذي تفكَّكت أسلاك مرتبته المعدِنية، فأسفل أغطيته يمكن البكاء بلا توقُّف.

* * *

انطلقت في الطريق المعتاد الذي يمر بمحطة الكهرباء، وعندما بلغت جسم السد تحوَّلت إلى اليسار ومضيت فوق قطع ضخمة من الصخور الرمادية التي ظهرت بها عروق حمراء وبيضاء، وتذكَّرت أن هذه المنطقة كانت تغطِّيها الرمال منذ أيام.

كان بوسعي أن أتبيَّن مبنى الهيئة ناحية اليمين على الشاطئ المقابل، وبدا أشبه بعلبة صغيرة من الكرتون، وفي امتداده يسارًا كان هناك معبد «كلابشة» الذي يتجلَّى هو الآخر للرائي من أية نقطة في الموقع.

انتهت الصخور فجأةً ووجدتني أخوض في رمال اختلطت بقطع الزلط الصغيرة، وما لبث الزلط أن اختفى، وأصبحت أسير في مستوًى واسع من الرمال الخالصة.

أرهقتني أشعة الشمس الملتهبة، فاحتميت بظل عربة «ماز» كانت تُفرغ حمولتها من الطمي، ووقفت أجفِّف عرقي وأرقب بلدوزرًا يتقدَّم من شحنة الطمي رافعًا درعه الأمامي قليلًا عن سطح الأرض. توقَّف البلدوزر أمام كوم الطمي، وهبط درعه حتى لامس الأرض، ثم تحرَّك البلدوزر من جديد فاكتسح درعُه الطمي دافعًا إياه إلى الأمام، وظهر فجأةً عدد من الصعايدة يحملون خراطيم المياه، ومضَوا خلف البلدوزر يرشون الطمي الممهَّد بالماء.

انتهت مهمَّة «الماز» فابتعدت عنها، وانطلقت السيارة تترنَّح في شبه طريق حتى اختفت عن مجال رؤيتي، لكن صوت محرِّكها ظلَّ يأتيني تتغيَّر نغمته كلما تغيَّرت السرعة، وميَّزت كلًّا من عنفوان الحركة الأولى وحشرجة الحركة الرابعة التي يسمُّونها بالعجوز.

كان البلدوزر ما زال مستمرًّا في تمهيد الرمال، وكانت الضجة الصادرة عنه وحيدة النغمة لا تتغيَّر ارتفاعًا أو انخفاضًا، ولا تتوقَّف إلا عندما يرفع السائق يده عن مقبض ويضعها على مقبض آخر فيرتفع الدرع الأمامي عن سطح الأرض، ثم يتغيَّر اتجاه البلدوزر ويهبط الدرع من جديد فتعود الضجة.

شهدت بلدوزرًا يجر ضاغطًا أسطوانيًّا كبيرًا جعل يدكُّ الطمي. تبعه آخر يجر صندوق الصخور الغريب، وظهرت في أعقابهما فرقة الهراسات.

واصلت السير بجوار ماسورة رفيعةٍ بيضاء اللون مؤلَّفة من عديد من الالتواءات والانحناءات، وانبثق تحت قدمَي فجأةً جانب من ماسورة تجريف فتتبَّعتها، لكنها ما لبثت أن اختفت أسفل طبقات الطمي.

انحدرت بي الأرض إلى مستوًى من الرمال، وبرزت للعيان نهاية ماسورة التجريف السوداء. كانت الرمال تنساب منها مختلطةً بالماء، وكان ثمة مضخة كبيرة تسحب المياه إلى ماسورة تمتد في اتجاه مجرى النهر.

عبرت كومًا من المواسير الصغيرة المفكوكة، ومررت من أمام كشك خشبي أصفر اللون بدت داخله منطقة رائعة من الظل، وعلى مقربة وقفت حفَّارة تدلَّت كباشتها الفارغة. كانت الحروف الأولى من اسم الاتحاد السوفياتي واضحةً على جدارها، وتحتها كتب أحدهم بطلاء أسود «عاش جمال عبد الناصر».

عدت أدراجي بضع خطوات إلى الكشك، ووقفت في مدخله حتى تعوَّدَت عيناي الظل. كانت هناك مائدة خشبية فوقها بضع ملفات انكبَّ عليها شاب مصري.

رفع رأسه إليَّ متسائلًا فقلت وأنا أخطو إلى الداخل: دخت من الشمس. هل يمكن أن أستريح عندك قليلًا؟

أشار إلى مقعد أمامه قائلًا: تفضَّل.

جلست واضعًا قبعتي على ساقي، وأحسست به يتأمَّل ملابسي، وعندما تطلَّعت إليه حوَّل بصره إلى الورق المنتشر أمامه.

كان يرتدي قميصًا هفهافًا ويتصاعد منه عطر فاخر، وأحاطت بمعصمه ساعة ذهبية، ووشَّى وجهه الوسيم بنوع الطبقة التي انحدر منها.

تشاغل بتقليب أوراقه، ثم رفع وجهه وسألني: صحفي؟

أومأت برأسي. عاد إلى أوراقه، ثم تركها واستند بمرفقَيه إلى المائدة.

– أخذت أحاديث كثيرة؟

أجبت: يعني.

قال: وأكَّدوا لك جميعًا أنهم سعداء بوجودهم هنا في هذا الجحيم؟

قلت: لم يقل أحد إنه يود الرحيل.

قال: وماذا يحدث لو قال لك أحد إنه موجود برغمه. هل تستطيع أن تنشر كلامه؟

قلت: لم يحدث هذا بعد.

قال: وإذا حدث؟

قلت: لا أعرف. لا أظن أن أحدًا سيقول ذلك.

مال على المائدة ورفع يده إلى صدره فدقَّ عليه: أنا أقول لك.

تطلَّعت إليه صامتًا.

قال: لست أريد البقاء هنا لحظةً واحدة.

قلت: وماذا يقيِّدك بالبقاء؟

بسط ذراعَيه حوله في حركة مسرحية: أمر تكليف يا بيه. لو تحرَّكت من هنا دخلت السجن.

قلت: لكن التكليف على ما أظن لمدة معيَّنة.

قال: أربع سنوات.

قلت: ستمر بسرعة، ثم إنك ستستفيد كثيرًا.

قال: وسأخسر كثيرًا. عندما جاءني أمر التكليف كنت قد بدأت أقف على رجلي. كان عندي مكتب هندسة وكنت أكسب، وفي خلال هذه السنوات الأربع كنت سأعوِّض شيئًا ممَّا أخذته الحكومة.

تطلَّعت إليه عاجزًا عن الفهم، فابتسم قائلًا: لم أُعرِّفك بنفسي. وذكر اسمًا يوحي بأنه لإحدى العائلات الإقطاعية القديمة.

قال: هل تنشر كلامي؟

قلت: لا أظن.

قال: ألم أقل لك؟

نهضت واقفًا وأنا أقول: سأتركك الآن، وربما التقينا فيما بعد.

كان لا يزال يبتسم في شيء من السخرية وهو يرد: كما تحب.

غادرت الكشك ومررت بالحفارة التي تحمل اسم جمال عبد الناصر، وواصلت السير بين قطع الصخور الضخمة المتعدِّدة الأشكال والألوان. أدركت أني خلَّفت جسم السد الرئيسي ورائي وبدأت أهبط جزأه الأمامي.

أشرفت بعد قليل على شبه خليج يفصل بين السد على يميني والأنفاق على يساري. كان هناك كوم من الأخشاب طافيًا فوق سطح الماء، وبدا المكان غارقًا في هدوء شامل، وتعلَّق بضعة عُمَّال بواجهة مبنى الأنفاق فوق السلالم والسقالات وانهمكوا في أعمال اللحام، وفي أعلى استقرَّت الروافع التي طُليت هياكلها باللون الأحمر الفاقع، واتخذت قممها شكل الأهرامات.

سِرت على حافة الخليج في مساحة من الصخور الدقيقة الحجم تتخلَّلها الرمال، ومضى بعض الوقت قبل أن أبلغ المجرى الرئيسي للنهر.

وقفت أتأمَّل مياهه تنساب في هدوء وتراخٍ. كانت المياه عاليةً بعض الشيء عن المعتاد وقد اتخذت لونًا بنيًّا داكنًا من أثر الغرين الذي جاء به الفيضان، وركن إلى الشاطئ قارب صغير بمجذافَين، وغير بعيد جلس رجل القرفصاء يقضي حاجته.

بدأت الرمال تحت قدمَي تترك مكانها لصلصال جافٍّ حفر فيه الجفاف خطوطًا في أشكال هندسية متكرِّرة. انحنيت وتناولت قطعةً من أهم مادة يتكوَّن منها السد وضغطتها بين أصابعي فتفتَّتت وتحوَّلت إلى تراب.

تحوَّلت أرقى جسم السد من جديد جاعلًا المعبد وجهتي، وتجاوزت مساحةً واسعةً من المياه الناعمة، تلتها صخور ضخمة يكاد حجم الواحدة منها يبلغ حجم غرفة واسعة في منزل قديم. بلغت شبه هَضْبة استقرَّ في أعلاها كوخ خشبي مفتوح الجوانب ذو سقف من الخيش تدلَّت بداخله قطع من اللحم المذبوح مغطاة بقماش، وجعل الجزَّار يصب عليها الماء من جردل معدِني.

شعرت بقدمَي شبه متصلِّبتَين، وألفيت ساعتي قد الْتصقت بجلد معصمي. تطلَّعت إلى المياه التي كان الجزار يصبُّها بوفرة على اللحم، ثم حوَّلت بصري إلى الأريكة الخشبية

التي احتلَّها زبائنه، عندئذٍ لمحت مخلَّفات السيارات المتناثرة التي تحوَّلت إلى مقاهٍ لشرب الشاي.

تقدَّمت من أقرب سيارة وأحنيت قامتي لأمرٍ من تحت حاجز لعله كان فيما مضى يحمل القُماش الذي يغطِّي مؤخِّرتها، وتهالكت على قطعة من الحجر إلى جوار عدد من الصعايدة في جلابيبهم المغبرة.

كان برَّاد الشاي الكبير مستقرًّا فوق موقد كيروسين أمام البائع الذي لفَّ رأسه بعمامة بيضاء ضخمة وجلس القرفصاء مسندًا ذراعَيه إلى ركبتَيه وعيناه لا تُفارقان فتحة البراد، وبدأ البخار يندفع في قوة منها، لكن البائع لم يحرِّك ساكنًا، وبعد قليل رفع البرَّادَ وصبَّ منه سائلًا أسود في كوبات صغيرة الحجم.

تناولت كوبي وانتظرت لحظات، ثم أخذت منه رشفة، وتكشَّف السائل الأسود عن شاي حِريف الطعم. انتهيت من كوبي بسرعة شاعرًا بعطشي قد تضاعف، فطلبت من البائع كوبًا آخر، وكان منهمكًا في تسجيل حساب الزبائن في كُرَّاسته.

أعاد البائع البرَّاد إلى مكانه فوق الموقد، وأشعلت سيجارةً وأنا أُصغي لحديثٍ يدور بين الصعايدة حول «الطريشة».

كان أحدهم يُقسم إنه رآها تقفز على رَجل يمتطي جملًا فتلدغه ويسقط جثةً هامدةً في الحال، وقال إن طولها لا يزيد عن نصف ذراع، وإنها عمياء تسعى على الرائحة، وجادله الثاني قائلًا إنه رأى واحدةً ميتة، وتبيَّن أن رأسها يعلوه قرنان صغيران، وأسفل كل قرن عين صغيرة للغاية بلا جفون، وأكَّد أنها مبصرة، وتساءل ثالث عن الفرق بينها وبين الثعابين، فقال الثاني الذي صار المرجع الأساسي في الأمر إن لون جلدها أصفر مزركش بنقط بنية فاتحة.

تناولت من البائع كوب الشاي الثاني وارتشفته وأنا أتذكَّر ما سمعته من أن العلاج الوحيد المعروف للدغة «الطريشة» هو بتر العضو المُصاب في الحال قبل أن يتسرَّب السم إلى باقي الجسم.

انتهيت من الكوب فأعدته إلى البائع وأعطيته قرشَين، وظَلِلت في مكاني بلا حماسة للنهوض.

تحاملت على نفسي بعد لحظات وغادرت السيارة. جعلَت قِمم الروافع التي تعلو مبنى الأنفاق من ورائي واتجهت صوب المعبد.

دقَّقت النظر في الصخور والرمال التي تتابعت تحت قدمَي وأنا أفكِّر فيما سمعته عن «الطريشة»، وأخذت أستعرض الأعضاء التي يمكن بترها من الجسم والأخرى التي يستحيل معها ذلك أو لا يمكن الحياة بدونها.

بدا المعبد أشبه بالسراب؛ فكلما أشرفتُ على أحد التلال الصخرية أو الرملية خُيِّل إليَّ أني أصبحت قريبًا منه، وأن الخطوة التالية ستضعني على بابه، ومضت ساعتان كاملتان قبل أن أَبلغ الشاطئ الغربي الذي يقوم المعبد عليه. كانت هناك عدة قوارب وباخرتان صغيرتان وواحدة كبيرة تحمل اسم رمسيس، وكانت بيضاء الطلاء أنيقة الشكل، وعلى سطحها استلقى نوبيان في جلبابَين أبيضَين نظيفَين، وكان أحدهما يُنصت إلى راديو ترانزستور في يده، بينما انهمك الثاني في حياكة طاقيته.

وقفتُ أتأمَّل النوبيَّين اللذَين ران عليهما هدوء لم يبدِّده صوت الراديو، ثم تحوَّلتُ أعبر الممشى التقليدي المنحدر الذي يفضي إلى المعبد.

كان مدخل المعبد يتصدَّره عمودان تعلوهما زهرة اللوتس ويتوسَّطهما قرص الشمس، وكانت هناك لافتة تحمل تاريخ فَكِّه ثم إعادة تركيبه في مكانه الجديد.

دلفتُ إلى صحن غير مسقوف حفلت جدرانه بنقوش الآلهة. كان أحدهما قد زُيِّن وجهه بمنقار كبير وأحاطت به مفاتيح الحياة، ودارت بالصحن عدة أعمدة ذات تيجان على هيئة الزهور، ونقوش يحمل بعضها طابعًا مسيحيًّا. كانت كل الجدران والأعمدة تحمل آثار أرقام رُسمت بالطباشير على مسافات متساوية، ورموزًا أخرى حديثةً بالطباشير لعلَّها من مُخلَّفات عملية الفك والتركيب.

اجتزت الفناء إلى بهوٍ مسقوف أدَّى بي إلى بهوٍ ثان، ثم غرفة كبيرة في الخلف. كانت الغرفة خاليةً تمامًا يحمل جدارها الخلفي نقوشًا عديدة، وتبيَّنت صورة «إيزيس» الجميلة التي كشفت عن ثديَين ممتلئَين بارزَي الحلمتَين.

أدركت أني أقف في قدس الأقداس مقر الإله الذي لم يكن يحظى بدخوله إلا صفوة الكهنة، وحيث كانت الشعائر السرية تتم في الظلام بعيدًا عن الشعب.

* * *

«فيتطهَّر الكاهن في البِركة المقدَّسة ويشعل المبخرة، ويتقدَّم نحو المذبح مطهِّرًا الأماكن الملحَقة به برائحة البخور. هنا يرقد التابوت الذي يحوي التمثال الخشبي المذهَّب للمعبود، ويفض الكاهن الختم المصنوع من الطين، ويسحب المزلاج ويفتح المصراعَين فيظهر التمثال

المقدَّس، عندئذٍ يسجد الكاهن ويبخِّر التمثال ويدهنه بالطيب ويسبِّح بالأناشيد التعبُّدية، ويهب الكاهن الحياة للتمثال بأن يقدِّم إليه عين «حورس» التي انتزعها منه عدوُّه «ست» وعثرت عليها الآلهة، ويُتبع العين بتمثال آلهة الحقيقة ابنة «رع»، ثم يسحب المعبود من التابوت ويبدأ في تزيينه؛ فيبخِّره ويُلبسه ثيابه ويُعطِّره، ثم يعيده إلى داخل التابوت، ويضع أمامه كل أنواع الأطعمة، وبعد تمام التطهير النهائي بالنطرون والمياه والتربنتينا يغلق التابوت ويسحب المزلاج ويضع الختم، ويتراجع الكاهن إلى الخلف ووجهه للإله مُزيلًا آثار خطواته.»

* * *

لمحت بابًا صغيرًا في أحد جدران الغرفة فاتجهت إليه، ودلفت منه إلى ممرٍّ دائري عاد بي إلى البهو الأول.

عثرت على درج جانبي ارتقيته. كان ضيِّقًا يأتيه الضوء من كُوَّات في جدرانه عبارة عن فجوات طبيعية مائلة في مكان الْتقاء أحجار البناء، وانتهى بعد أربعين درجةً ببابٍ وضعني على سطح المعبد. اتجهت إلى الحافة التي تُطل على النيل، ووقفت فوق الواجهة مباشرةً أتأمَّل السد، ورأيت قِمَم الروافع الثلاثة التي تعلو مبنى الأنفاق قد اتَّحدت في هرم واحد.

عُدت أهبط الدرج، ثم غادرت المعبد من فجوة في جدار فنائه. كدت أتعثَّر في رجل يرتدي جلبابًا أو عمامةً استلقى على الأرض، ونهض الرجل مضطربًا وهو يفتِّش في جيبه، وأخرج بضع أوراق وهو يقول: تذكرة؟

قلت إني لا أريد، فتطلَّع إليَّ في بَلَه، ثم حوَّل بصره إلى الثغرة التي بزغت منها. تركته يتأمَّلها وانطلقت في طريق منحدر أفضى بي إلى آخَر شبه دائري مضيت فيه جاعلًا قمم الروافع قبالتي.

توقَّفت بعد فترة أمام كباشة استقرَّت على الأرض، بينما كانت إحدى القلابات تقترب منها بظهرها، ثم ارتفع الظهر وانهمرت حمولة الأسمنت في الكباشة، ومسح العامل الواقف إلى جوار الكباشة عرقه وجعل يُشير بيدَيه لسائق الحفارة، وارتفعت الكباشة في الهواء، ثم قامت بدورة كاملة قبل أن تختفي عن بصري خلف تلٍّ من الأتربة.

بلغت بداية المستوى الرئيسي في السد. مضيت فوق الطريق شبه الممهد وأنا أتلفَّت بحثًا عن سيارة، ومرَّت بي عربة بارفورد قذفَت في وجهي بعادمها الثقيل، ثم أغرقتني في عاصفة من الغبار بعد أن ابتعدت.

لمحت بعد عدة خطوات شاحنةً تجمَّع على ظهرها عددٌ من العُمَّال، فصعدت إليها. انطلقت الشاحنة بمحاذاة ممرَّات التفتيش حتى بلغنا الضفة الشرقية، وإذا بها تتجه يسارًا وتُنهي رحلتها بعد عدة دورات في جاراج الحقن.

عدت أدراجي سيرًا على الأقدام حتى المستوى الرئيسي، ثم واصلت السير في اتجاه محطة الكهرباء. أشرفت على خلاطة الأسمنت فوقفت أتأمَّل طابورًا من سيارات «الماز» أسفل خرطوم تندفع منه المياه في شدة. كانت كل سيارة تتقدَّم من الخرطوم بظهرها وهي ترفعه إلى أعلى ليتسنَّى لعاملٍ وقف على سُلَّم بجوار الخرطوم أن يغسلها جيدًا بمياهه، عندئذٍ يهبط ظهرها وتنطلق خفيفةً إلى موقعها تحت قُمع الخلاط.

تعلَّقتُ بباب عربة ذاهبة في طريق الاستراحة، وعندما بلغنا الجاراجات أطاح الهواء بقبعتي. فكَّرت بأن أتركها وشأنها من فرط التعب، لكن السائق كان قد شهد الحادث فأبطأ السيارة، وقفزت إلى الطريق بينما استأنف هو سيره، فاستعدت قبعتي ومضيت على قدمَي حتى الاستراحة.

* * *

أحضر لي فقير في الصباح بعضًا من عُلَب اللحم والسمك المحفوظ وعدة أرغفة من الخبز، ووقف يتأمَّلني أُعِد حقيبتي وهو يهز رأسه في بطء.

قال: حتفوت على بلدي «بلانة».

قلت: هي قبل «أبو سنبل» والا بعدها؟

قال: بعدها.

قلت: يمكن، وأشوف البيت اللي انت كنت عايش فيه.

قال مواصلًا هزَّ رأسه: ما حتلاقيه. المية غطَّت كل حاجة.

رفعت عينَي إليه عندما لمست رنة الحزن في صوته. قلت بعد لحظة: لكن الكل بيقولوا ان المعيشة في القُرى الجديدة أحسن بكتير من القديمة؟

قال: والنيل؟ البيوت الجديدة بعيدة عنه خالص ... النيل ضاع منا خلاص. مش حنشوفه تاني أبدًا.

أغلقت الحقيبة فانحنى عليها ورفعها إلى كتفه. تبعته إلى الخارج بعد أن تأكَّدت من وجود خطاب صيام إلى زميله في جيبي.

كانت الشاحنة التي أرسلها لي عباس يقودها سائق نوبي. جلست إلى جواره بعد أن أعطيت فقير نصف جنيه. انطلقنا في طريق متعرِّج مرصوف إلى الميناء الذي أُقيم على الشاطئ الشرقي في نقطةٍ تواجه مرسى الباخرة رمسيس ومعبد «كلابشة». وصلناه بعد دقائق فألفيناه مرسًى صغيرًا يضم سفينةً قديمةً مهجورةً استقرَّ الصندل إلى جوارها.

مضيت إلى كشكٍ خشبي يحمل اسم الشركة صاحبة الصندل، بينما سار السائق بخطوات متمهِّلة إلى حيث يدور الشاطئ صانعًا خليجًا صغيرًا.

سألته: أنت متأكِّد من الموعد؟

قال: ما تبقَّى من شحنٍ لن يستغرق أكثر من هذا.

قلت: بوسعي أن أنصرف الآن ثم أعود في الثالثة، فهل تضمن لي أنه لن يقوم قبل هذا الموعد؟

ضحك: كيف؟ ما أدراني ما سيحدث؟

وقفت حائرًا، ثم استدرت ومضيت إلى حيث وقف السائق. كان يتأمَّل عددًا من مراكب الصيد الصغيرة غطَّتها مياه الفيضان. قال عندما رآني: شايف مراكبنا. سابوها كده من غير ما يحاولوا يشيلوها، ولَّا شكينا قالوا اننا مالناش عندهم حاجة لأننا أخدنا التعويضات.

وقفنا نتأمَّل أشرعة المراكب التي برزت من المياه السمراء وجعلَت تتمايل يمنةً ويسرة، ثم استدرنا عائدين إلى الشاحنة.

قلت للسائق إني سأبقى، فساعدني على إنزال حقيبتي وانصرف. حملت الحقيبة إلى الكشك فوضعتها بجوار صبي أسمر اللون اقتعد الأرض أمام موقد الكيروسين المعهود. فوجئت به يقدِّم إليَّ كوبًا من الشاي، فاعتمدت بظهري على جدار الكشك ومضيت أرشف الشاي متأمِّلًا الصندل.

كانت هناك عارضة خشبية تصل بين الشاطئ وحافة الصندل، وفوقها تدافع عددٌ من الصعايدة ينقلون إليه أسلاكًا حديدية، ووقف يرقبهم رجل عريض طوى ذيل جلبابه ودسَّه في سرواله الطويل. كان وجهه يحمل الملامح النوبية وإن بدت بشرته قمحية، وسمعتهم ينادونه بعم مهدي.

انتهيت من كوبي فأعدته للصبي، وأعطيته قرشًا فرفض أن يأخذه قائلًا لي ضيف. حملت حقيبتي وعبرت العارضة إلى ظهر الصندل، ووجدت أكوام الرمال والزلط تكاد تغطِّي مساحته كلها، وكانت حركة الشحن المستمرَّة تَحول دون الاستقرار بينها.

لمحت سطحًا معدِنيًّا بارزًا على مقربة من أحد طرفَي الصندل بدا بمعزل عن كل ما يجري حوله، وفوقه استلقى شابٌّ في قميص من المربَّعات الملوَّنة وبنطلون من قماش

رخيص أزرق اللون. اتجهت إليه ورفعت حقيبتي فوضعتها فوقه. اكتشفت أن السطح ليس سوى ظهر القُمرة التي تضم المحرِّك، وكان ظهر الراقد إليَّ فلم أرَ وجهه، وبدا نائمًا.

جلست فوق حقيبتي معتمدًا بذقني على ركبتي، وأخذت أرقب حركة العُمَّال.

* * *

وصاح العُمَّال: «نحن نموت جوعًا ولا يزال أمامنا ثمانية عشر يومًا حتى الشهر القادم!» وتجمَّعوا في أحد الميادين على مقربة من أحد الصروح يصيحون: «لن نعود إلى أعمالنا. أبلغوا هذا إلى رؤسائكم المجتمعين هناك.» وتوجَّه الجائعون جماعاتٍ كبيرةً نحو الحوانيت، ولكنهم لم يُحاولوا اقتحامها، وقام أحدهم خطيبًا: «لقد جئنا يدفعنا الجوع والعطش، ولم تعد لدينا ملابس نرتديها، ولم يبقَ لدينا زيت ولا سمك ولا خضار. أرسلوا لسيدنا فرعون، أرسلوا لمليكنا وسيدنا حتى يعطونا ما يمكِّننا من الحياة.»

* * *

أحسست بمن يرقبني، والتفَتُّ إلى النائم فوجدته قد اعتدل على ظهره وطفق يتطلَّع إليَّ.

هززت رأسي مُحيِّيًا فاعتدل جالسًا، وانتصبت أمامي رأس حليقة كالسجناء والجنود، لكن شعر ذقنه كان طويلًا، ورأيت مصباحًا كهربائيًّا يتدلَّى من خصره، وإلى جوار المصباح مطواة.

عرَّفني بنفسه قائلًا إنه جوَّال ويُدعى ذهني، وذكرت له اسمي بدوري، وعندما سألني عمَّا أعمل قلت إني صحفي.

سألني باهتمام: فين؟

ذكرت اسم مجلة، فانفعل فجأةً وسألني عمَّا إذا كنت أعرف أحد كُتَّابها.

تطلَّعت إليه في حِدة، ثم قلت: أيوه أعرفه.

قال إنه تعرَّف عليه عندما كان في السجن.

سألته: وإيه اللي ودَّاك هناك؟

قال: كنت بأزور واحد قريبي.

قلت: ما قلتليش بتشتغل إيه.

قال: في شركة.

– هنا في السد؟

– لا، في القاهرة. أنا عضو كمان في جمعية الجوَّالة.

ومدَّ يده في جيبه فأخرج دفترًا أخضر قدَّمه إليَّ قائلًا إنها بطاقة عضويته في الجوَّالة. تناولت الدفتر وألقيت عليه نظرةً سريعة. كان يبدو جديدًا للغاية، وكانت الصورة الملصقة به تمثِّله بشعره المحلوق ونفس ملابسه.

قال: أنا قطعت حتى الآن عشرة آلاف كيلو، وقلت ما دام وصلت لهنا لازم أشوف «أبو سنبل». وانت؟

قلت له إن وجهتنا واحدة، وأعدت إليه البطاقة، ثم لزمت الصمت، وتابعت سربًا من الطيور البيضاء ذات الأجنحة السوداء كان يطير فوق سطح الماء مُتَّجهًا إلى السد.

اقترب منا عم مهدي فرحَّب بي قائلًا: أهلًا وسهلًا بالأفندي. ثم صاح مناديًا على صبي الشاطئ: شاي للأفندي يا وله.

سألته عن موعد قيام الصندل.

قال: قريب بإذن الله.

قلت: فاضل ايه؟

قال: مواسير الحديد والأخشاب، وبعدين الأدوات الصحية. مش حيخدوا كتير.

جاء الصبي بكوبَين من الشاي أعطاني أحدهما وقدَّم الثاني إلى عم مهدي، وقدَّم هذا الكوب بدوره إلى ذهني قائلًا إنه شرب لتوِّه، ثم غادرَنا عائدًا إلى موقفه بجوار العارضة الخشبية.

قال ذهني ونحن نرتشف الشاي: كنت خايف أبقى لوحدي على الصندل.

لم أعلِّق.

أضاف بعد قليل أن مجموعةً من الجوَّالة كانت معه بالأمس ولكنهم تخلَّوا عنه اليوم وفضَّلوا العودة إلى القاهرة.

ظهرَت في مدخل الميناء باخرةٌ تحمل العلم المصري توقَّفت لصق السفينة المهجورة، وما لبثت الحياة أن دبَّت في الأخيرة وتحوَّلت إلى مكاتب للجمرك والرقابة الصحية، وأصبحت معبرًا إلى الشاطئ لرُكَّاب الباخرة القادمة من السودان.

ظهر عددٌ من الأجانب على سطح الباخرة، وغادرتها فتاة شقراء رشيقة ترتدي بنطلونًا قذرًا من بنطلونات رعاة البقر، وبرزت في الطابق الأعلى للباخرة شقراء أخرى في رداءٍ قصير للغاية ووقفت على رأس السلَّم تتطلَّع في تردُّد إلى خمسة مصريين اعتمدوا على سور السفينة الأخرى تحتها مباشرة بطابقَين، ورفعوا رءوسهم إلى ساقَيها، وأخيرًا استدارت وجعلت تهبط بجنبها.

فرغ العُمَّال من نقل المواسير وبدءوا يجلبون الأخشاب، وانضمَّ إلينا فوق سطح المحرِّك نوبيان في جلبابَين نظيفَين من قماشٍ سميك داكن اللون، وكان كلٌّ منهما يحمل لفافةً من القماش.

كان أحدهما ممتلئًا شديد الوقار بادي الطيبة، وكان الثاني طويلًا نحيفًا شديد الخجل، وقدَّم لنا الوَقور نفسه على أنه يعمل في إدارة الشركة بـ «أبي سنبل» ويُدعى فهمي، أمَّا الخجول فكان اسمه أحمد ويعمل في الورشة الميكانيكية بـ «أبي سنبل» أيضًا، وكان الاثنان في زيارة زوجتَيهما وأولادهما في القرى الجديدة.

سألت فهمي عمَّا إذا كان المعبدان قد فُصلا عن الجبل، فأجاب: الشغل ماشي.

وجَّهت السؤال بطريقة أخرى: التماثيل الكبيرة اللي في وش المعبد زي ما هي والا شالوها؟

قال: التماثيل لسه موجودة.

مرَّ عم مهدي بجوارنا فتوقَّف يُحيِّي أبناء بلدته قائلًا: ماسكاجيرو.

وردَّ عليه الاثنان: ماسكاجيرو.

سألته عن الوقت الذي ستستغرقه الرحلة.

أجاب: المسافة مش كبيرة.

قلت: يومين ولا تلاتة؟

قال وهو يتحرَّك مبتعدًا: مش حيزيدوا بإذن الله.

قال ذهني: مش أكثر من يومين.

قال فهمي: أربعة عشان الصندل ما بيمشيش بالليل.

قال أحمد: الصندل سريع.

سألت فهمي عمَّن يكون عم مهدي، فقال إنه مساعد الريس.

قلت: وفين الريس؟

أشار إلى عجوزٍ ضئيل الجسم وقف في الطرف الآخر من الصندل وقد غطَّى رأسه بعمامة كبيرة بيضاء وبدت بشرته فاحمة السواد.

تجاوزت الساعة الثالثة وما زال العمل جاريًا في نقل الأخشاب، ولم يبدأ بعدُ في الأسمنت والأدوات الصحية، وجعلت أنقُل بصري بين العُمَّال والمياه العالية والمعبد الذي استقرَّ على الشاطئ الآخر.

اقترب مني فهمي زاحفًا فوق الصاج، وقال مُشيرًا إلى نقطةٍ في الماء على مبعدة خطوة واحدة من شاطئنا: شايف الفنطاس ده؟

كان هناك فنطاس من الحديد يعلو على سطح الماء وتحته عدة درجات حديدية رفيعة.

سألني: شايف كم سلمة؟

عددت ثلاث عشرة درجة.

قال: السلم ده فيه ميت سلمة. كلهم الوقت تحت المية. اللي انت شايفه ده كان شطنا قبل السد. كان بيوصل لغاية نص البحر.

انتهى نقل الأخشاب ورأيت مجموعةً من العُمَّال تحمل أكياسًا من الأسمنت إلى الصندل، وجاء في أعقابهم شخص أسمر البشرة يرتدي جلبابًا صوفيًّا داكن اللَّون ويحمل في يده سلَّةً مخروطيةً من القش اختفت محتوياتها خلف ورق الصحف، وفي يده الأخرى استقرَّت حقيبةٌ متوسِّطة الحجم.

تقدَّم منا الرجل في هدوء واضعًا حمله على أرض الصندل، ووجَّه إلينا التحية في لهجة صعيدية أصيلة.

أفسحنا له مكانًا بجوارنا، فتربَّع وأخرج علبة بلمونت دار بها علينا، ولاحظت عمامته البنية النظيفة وجلبابه الذي صُنع من قماشٍ غير رخيص جرى كيُّه حديثًا، ثم الحذاء ذا الرقبة. كان كل ما فيه ينطق بالاعتناء الشديد، وربما أيضًا بقيراطَين من الأرض.

دخَّنا ونحن نتأمَّل باخرةً خشبيةً متهالكةً تقترب من الميناء في بطء، ثم تتوقَّف خارجه، ولاحظت أن حركة الصعايدة قد هدأت عن ذي قبل، لكنهم كانوا ما زالوا ينقُلون أكياس الأسمنت.

قلت: الظاهر مش منقولين من هنا النهار ده.

قال ذهني: يمكن الصندل يبيت هنا.

أشار الصعيدي إلى الباخرة التي وقفت في عُرض النهر وقال: مش ممكن، لازم نخلِّي مكان للمركب.

شرع أحمد يفك لفافته وأخرج منها عدة أرغفة من الخبز المستدير، وبسط منشفةً نظيفةً على سطح الصاج ووضع الخبز فوقها، ثم أضاف إليه أربع بيضات مسلوقات وقطعةً من الجبن وبضع حبَّات من الطماطم، وبحث طويلًا بين محتويات لفافته حتى عثر على قطعةٍ صغيرةٍ مطويةٍ من الورق تكشَّفت عن حَفنةٍ من الملح المخلوط بالفلفل الأسود.

اعتدل فهمي بجوار زميله ودعانا إلى مشاركتهما طعامهما. اقترب منهما ذهني على الفور بينما أخرجت من حقيبتي علبة بولوبيف فتحها ذهني بمطواته، وجذب الصعيدي

سلَّته ونزع غطاءها مُخرجًا منها لفافةً من الورق وسكينًا، وفتح اللِّفافة، ثم قطع بالسكين جزءًا من قطعة لحم ظهرت عليها حبَّات الفلفل الأسود، ومزَّق جانبًا من لِفافة الورق وضع فوقها قطعة اللحم وأضافها إلى المائدة المشتركة، ثم قام إلى حقيبته ففتحها وأخرج منها رغيفَين من الخبز الشمسي السميك وضعهما أمامنا.

ناديت على رمضان أن يأتي لنا بالشَّاي، وسألت الصعيدي عن اسمه فقال إنه يُدعى جرجس، وأضاف أنه من سوهاج ويعمل في «أبي سنبل».

قلت: تبقى تعرف أحمد وفهمي؟

حرَّك رأسه حركةً خفيفةً لم أفهم معها إذا كانت إجابته بالإيجاب أو النفي، وصدرت عن أحمد همهمة غير مفهومة. سألتهم عمَّا إذا كانوا يعيشون في عنابر، فقال جرجس إنهم يُقيمون في خِيَم لأن العنابر لم ينتهِ بناؤها بعد.

لاحظت أن العمل يجري الآن في نقل الأدوات الصحية، وخلا الشاطئ إلا من بضع أحواضٍ من الخزَف.

هبطت من فوق القُمرة، واعتمدت على حافَّة الصندل. أخرجت منديلي ودلَّيته في الماء، ثم عصرته ومسحت به وجهي وعنقي، ودرتُ حول القُمرة حتى أصبحت في الناحية الأخرى المطلَّة على الشاطئ. رأيت الصعايدة قد شمَّروا ملابسهم وغاصوا في الماء يغتسلون، ولمحت رمضان بينهم. كان الكشك مغلقًا، ورأيت عاملًا يحمل آخر قطعةٍ من الأدوات الصحية ويعبر بها العارضة، ثم يضعها على الرمال ويتهاوى إلى جوارها مجفِّفًا عرقه بساعده.

اختفى عم مهدي في باب القُمرة، وما لبث صوت المحرِّك أن ارتفع، ثم توقَّف وعاد يتردَّد من جديد في خفقات مضطربة حتى استقرَّ أخيرًا على نغمته العالية، وظهر الريس عند مقدمة الصندل.

انتهى رمضان من الاغتسال، فأسرع إلى الكشك وتناول من الأرض موقد الكيروسين وكُرَّاسة، ثم عاد جريًا إلى الصندل فقفز إلى سطحه. كان الصندل قد تحرَّك بالفعل، وسقطت العارضة الخشبية في الماء.

أشعلت سيجارةً وأنا أتأمَّل الشاطئ والصعايدة الذين قاموا بشحن الصندل وجلسوا الآن بلا حركة يرقبون ابتعاده. تحوَّلت أرقب الناحية الأخرى. رأيت أننا نسير بعرض المجرى في حذاء السد ونقترب بسرعة من الشاطئ الآخر أسفل المعبد، وسرعان ما رَسَونا بجوار الباخرة رمسيس.

سكت صوت المحرِّك واختفى الريس في قاع الصندل، ولحق به عم مهدي، ثم ظهر الاثنان من جديد وقد استبدلا ملابسهما، وبدا الرَّيس شخصًا آخر في رداءٍ أسود مهيب وعمة بيضاء تعدَّدت لفائفها فوق رأسه.

عبر الرَّيس إلى الشاطئ ومشى بنشاطٍ وهو يلوك شيئًا بين فكَّيه الخاليَين من الأسنان، وخلفه انطلق عم مهدي في رداء مماثل منتعلًا حذاءً، وجاء في أعقابهما رمضان في جلباب أبيض نظيف وصندل، وانطلق الموكب الثلاثي على الشاطئ يتقدَّمه الريس ملوِّحًا بيدَيه يرد تحية بحَّارة رمسيس، وعدد من النوبيين والصعايدة يشربون الشاي على الشاطئ، وسرعان ما اختفى الثلاثة عن الأنظار.

صعدت فوق القُمرة وأنا أسأل: هم راحوا فين؟

أجاب جرجس: روَّحوا.

قلت: روَّحوا على فين؟

قال: على أسوان.

قلت: يعني إيه؟ إحنا مش حنمشي النهار ده؟

قال فهمي: لا حنبيِّت هنا. الدنيا خلاص ليلت.

شعرت بدمائي تفور.

قال فهمي: لو كنَّا فضلنا في الناحية التانية للصبح كانت الشركة تكلفت عشرين جنيه.

قلت: طب ليه ما حدش قال؟ أنا كنت افكر اننا ماشيين النهار ده.

قال جرجس: أنا ظنيت انك عارف، ما دام الميكانيكي ما ظهرش يبقى مفيش سفر.

سألت: أي ميكانيكي؟

قال: اللي حيشغل الموتور.

– وعم مهدي؟

قال فهمي: عم مهدي مساعد الريس ومالوش دعوة بالموتور.

جلست فوق حقائبي وأشعلت سيجارةً جديدة، وعندما انتهت هبطت إلى مرحاض صغير بجوار باب القُمرة. غسلت وجهي وأسناني، وتبعني الآخرون، ثم غادرنا الصندل إلى غُرزة الشاي الصغيرة على الشاطئ.

سألني ذهني ونحن نشرب الشاي عمَّا إذا كنت سأبقى طويلًا في «أبي سنبل».

أجبت: حسب الظروف.

– وحتنزل فين؟

قلت: في استراحة الشركة.

وتمنَّيت لو كنت واثقًا من ذلك حقيقة.

قال: وبعد كده؟

قلت: بعد كده؟ حأرجع.

قال: مش رايح السودان؟

قلت: السودان؟ ليه؟

قال: المسافة بين «أبو سنبل» والحدود ما تزيدش عن ثلاثين كيلو.

قلت بعد فترة: ولو حبيت أروح ما معيش بسبور.

ضحك قائلًا: ومين عاوز بسبور عشان يعدي الحدود؟

انتهينا من أكوابنا فاقترح جرجس أن نشرب دورًا آخر، وتباريت أنا وهو في تقديم السجائر للجميع.

عدنا إلى الصندل فاستلقينا فوق ظهر القُمرة. انتحى أحمد طرف السطح ورقد على جنبه واضعًا رأسه على ساعده، وبسط فهمي بطانيةً على الناحية الأخرى ونام فوقها، وحذا الصعيدي حذوه، ثم دعانا أنا وذهني لأن نرقد فوق بطانيته.

رقدنا تحت شمس المغيب، وردَّد ذهني بصوت خشن أغنيةً لعبد الحليم، فسألته إن كان يعرف أغاني سيد درويش أو عبد الوهاب القديمة، لكنه لم يكن يذكرها، وحاولنا معًا أن نستعيد كلمات ولحن «ياما بنيت قصر الأماني» ولكننا فشلنا.

قال جرجس: أجولكم على لغز والشاطر يفسره.

قال ذهني: قول يا عم.

قال جرجس: يبجى إيه أخف الخفيف وأتجل التجيل؟

فكَّرت وقلت: الرمل.

قال ذهني: الهوا.

ضحك جرجس وقال: أخف الخفيف هو كلام الحبيب، وأتجل التجيل كلام العدو.

فكر لحظة، ثم استطرد: طب فسروا ده: شاب ركب أبوه ولبس أمه وأكل الحي من الميت.

لم أستطِع أنا وذهني أن نفكِّر بإجابة، وقال جرجس: مفيش أبسط من كده. شاب رهن أبوه عشان يركب جمل، ورهن أمه عشان يلبس، ولَّما جاع شق بطن الجمل فلجى فيه جنين صاحي أكله.

أشعلنا سجائرنا، وتأمَّلت سفح السد الذي ساده الهدوء التام. جعل ذهني يترنَّم مردِّدًا «يا ليل يا عين»، فسأله جرجس عمَّا إذا كان يعرف قصة هذه العبارة، وعندما أجاب هذا بالنفي اعتدل جالسًا في حماسة، وروى لنا كيف انطلق شخصٌ يُدعى «ليل» سائحًا في البلاد بحثًا عن صديق، وعثر عليه الملك وهو يُغربل الرمال، فسأله عن السبب، فقال إنه يبحث عن صديق، وعندئذٍ اصطفاه الملك صديقًا.

وقرَّر الملك ذات يوم أن يسافر للحج، فقطع ليل شخصيته ووضعها في علبة وأغلقها وأعطاها للملك دون أن يُطلعه على محتوياتها، وطلب منه أن يرويها من ماء زمزم.

قاطعته متسائلًا عمَّا يعني بشخصيته.

قال: لا مؤاخذة قضيبه.

ومضى جرجس فروى كيف سافر الملك وبدأت الملكة تراود ليل مهدِّدةً إياه بأن تتهمه لدى الملك، وقال لها ليل إنه لا يستطيع أن يخون صديقه، فأرسلت إلى الملك أنه حاول اغتصابها، وعاد الملك مسرعًا فأرسل في طلب كلٍّ من السياف وليل، وعندما مثل هذا أمامه سأله عن العلبة وطلب منه أن يفتحها، فتأكد الملك من إخلاصه وقال له إنه يئس من صحبة الناس وإنه سينطلق منه في البلاد سائحًا.

وفي الصحراء برزت لهما جنية رائعة الجمال. كان الملك نائمًا فحاولت أن تغوي ليل ليقتله ولكنه لم يستسلم لإغرائها. ونام ليل فظهرت للملك ونجحت في إغرائه بقتل ليل ففعل، ثم طلبت منه أن يفقأ عينه اليمنى فانصاع لها؛ وعندئذٍ اختفت، وجعل الملك يبحث عنها بعينه اليسرى بلا جدوى، فجلس يندب حظه ويردِّد باكيًا: «يا ليل يا عين.»

كان الظلام قد انتشر تدريجيًّا، وظهرت فوق السد أضواء المصابيح الكهربائية. وصلت إلى مسامعنا أصوات الشاحنات والقلابات التي تعمل فوقه دون أن نراها، وعلى اليمين تبدَّت حفارة كانت كباشتها تدور حولها بسرعة كأنما أفلتَ عقالُها.

أخرجت من حقيبتي وسادةً صغيرةً من المطَّاط وضعتها تحت رأسي، واستلقيت في مواجهة السد، واستقبلت على وجهي نسمةً خفيفةً هبَّت فجأة.

أغمضت عينَي وشردت وأنا أُصغي بنصف انتباه لذهني وجرجس يغنِّيان معًا: «يا بهية وخبريني على اللِّي جتل يسن».

* * *

الحياة أصبحت مثيرةً كما لم تكن من قبل، والورق الأبيض يتحوَّل في الغرفة الصغيرة فوق السطح إلى سلاح بلا طلقات. الخطر في كل لحظة، وكل ركن، وكل مهمَّة فيها انتصار، لا

ينازع على العدو الرابض في الظلام، وتستيقظ المدينة في الصباح لتقرأ الرسالة المسطورة، لكن كلمةً واحدةً كانت كافيةً لفتح الجرح الذي لا يندمل؛ فإشارة اهتمامٍ قد ترقى إلى مرتبة العاطفة المفتقدة، وكيف يمكن تفسير الابتسامة والنظرة واللمسة؟ أو التعبير عمَّا يجيش به القلب؟ ولم يبقَ إلا التجوال على غير هدًى في الشوارع التي تغشاها على أمل لقاء بالمصادفة، فمن السهل تبيُّن القامة الممشوقة وجدائل الشعر الأسود المسترسلة على الظهر، ولا بد أن يعكس زجاج المحلات تلألؤ العينَين العسليتَين الضاحكتَين، والبصر يمتد في لهفة إلى كل ركن وفي كل اتجاه، وفي المقاهي تجمَّع الناس يُتابعون أنباء تأميم القناة، لكن الأذن تتلهَّف على نُواح المغنِّين، ويتراءى وجهها في الصباح والمساء، في النوم واليقظة، وهناك لذَّة لا تدانيها لذة في حفر الجرح الغائر إلى الأعماق حتى تترسَّب الأحزان طبقات.

* * *

فتحت عينَي فطالعتني النجمة الوحيدة وسط السماء. رفعت ساعدي وألقيت نظرةً على ساعتي. وجدتها السابعة والنصف.

ظَلِلت أتأمَّل النجمة التي انفردت بصفحة السماء، وغفوت على صوت جرجس يقول: اللي يعيش ياما يشوف، واللي يمشي يشوف أكثر.

استيقظت في الليل فطالعتني آلاف النجوم المتناثرة المتباينة الأحجام. رفعت رأسي قليلًا وتطلَّعت أمامي مباشرة، فتراقصت في عينَي أضواء السد، وأتتني ضجة العمل واضحةً كما لو كنت أنام فوقه.

غفوت، ثم استيقظت مرةً أخرى على صوتٍ حادٍّ صادر من ذهني الذي كان ينام إلى جواري. ظَلِلت يقظًا حتى أدركت أن مصباحه المدلَّى من خصره يرتطم بسطح القُمرة كلما تقلَّب.

في الفجر سمعت أحمد يقوم شاكيًا من البرد وينام بجوار فهمي، وبدأت أشعر أنا الآخر بالبرد، فأخرجت من حقيبتي ملاءةً التحفت بها جيدًا.

امتلأ جسدي برضوض عديدة من أثر الصاج الصلب، وتزايد شعوري بالبرد فتطلَّعت إلى ساعتي. وجدت أننا نقترب من السادسة، فقرَّرت النهوض.

رأيت فهمي وأحمد قد تمدَّدا متقابلَين على جنبَيهما تُغَطيهما بطانيةٌ واحدة أحكماها حول جسدَيهما، وأبعداها عن وجهَيهما بمرفقَي ساعدَيهما المرفوعَين فوق رأسَيهما. التحفت بالملاءة ونزلت إلى مرحاض القُمرة، فتبوَّلت وشربت، ثم أشعلت سيجارة، ومضيت إلى حافة الصندل المواجهة للسد فجلست فوق صندوقٍ من الحديد.

كان ضوء النهار ينتشر حولي بسرعة، لكن المصابيح الكهربائية كانت ما تزال مشتعلةً فوق السد، وظهرت عربة وحيدة مهجورة في أقصاه عند الحنية التي تفصله عن قناة التحويل.

شعرت بحركة خلفي في النهر، فالتفتُّ لأرى طابورًا من مراكب الصيد الشراعية يقترب في هدوء عائدًا من رحلة كل ليلة. استقرَّت المراكب إلى جوار الصندل، ثم تجمَّع الصيادون في إحداها والتفُّوا حول موقد كيروسين انهمك أحدهم في إشعاله، وأحاطه آخر بحاجزٍ من الصفيح يحجب عنه الهواء. ظلُّوا يرقبون الموقد في صمتٍ حتى انتهى إعداد الشاي، فصفَّ أحدهم عددًا من الأكواب الزجاجية أمامه وصبَّ فيها الشاي، وعندما شربوا تفرَّقوا من جديد في مراكبهم دون أن يتبادلوا كلمةً واحدة.

انحنى صياد نوبي في مركب قريب مني على قاعه، وأخرج سمكةً في حجم الكف مال بها على حافَّة المركب وضربها في الماء عدة مرات، ثم تناول خرقةً من القماش دعَك بها السمكة وقذف بها إلى سلة من الليف تحت قدمَيه، وتناول سمكةً أخرى.

راقبته وهو ينتقل بسرعة بين قاع المركب وحافَّته ومن سمكة إلى أخرى، وشعر هو بي فرفع رأسه إليَّ عندما رآني في الملاءة البيضاء التي لم تظهر منها سوى عويناتي. تجمَّدت يده فوق السمكة التي كان يدعكها، وتطلَّع إليَّ مبهوتًا، ثم عاد إلى عمله.

هبَّت عليَّ نسمة باردة، فغادرت مكاني ودُرت حول الصندل وجلست في الناحية الأخرى أسفل القُمرة، وأحكمت الملاءة حول جسدي وأنا أتشمَّم رائحتها النظيفة، وبعث في ملمس الملاءة ورائحتها شعورًا بالانتشاء فتحسَّست ساقي الساخنة.

* * *

الصور مخبَّأة في كراسات الجبر والهندسة وكتب التاريخ والجغرافيا. يجري جمعها عامًا بعد عام، وكل يوم يجري التقليب بينها خلسة. كل واحدة وعد بتلك اللذة الغامضة في صدر المرأة وبين ساقَيها، والكلمات ليس لها بعدُ معنًى ملموس، وإن كانت تدفع بالدماء إلى العروق حتى تفجَّر الينبوع فأصبح للأسى معنًى.

* * *

رفعت رأسي فجأةً إلى أعلى، فرأيت وجه فهمي يُطل عليَّ من فوق سطح القُمرة. قال عندما التقت أعيننا: صباح الخير.

أبعدت يدي عن ساقي قائلًا: يسعد صباحك.

كانت الشمس قد بدأت ترسل أشعتها، وتراجع فهمي هابطًا إلى سطح الصندل من الناحية الأخرى ليغتسل، وقمت خلفه فغسلت أسناني. انتظرنا حتى انتهى الباقون من الاغتسال، فغادرنا الصندل إلى البر وجلسنا في مقهى الأمس.

أخرج جرجس من جيب جلبابه عِدة قطع من البسكويت الصعيدي وزَّعها علينا، وجعلنا نغمس البسكويت في الشاي ونحن نرقب شجارًا عاليًا يدور بين ثلاثةٍ من البحَّارة الصعايدة على ظهر «رمسيس» وصبي نوبي كان منهمكًا في تنظيف سياجها. أدركت بعد لحظة أن الأمر لا يتعدَّى مزاحًا من جانب الصعايدة الذين لم يُخفوا إعجابهم بوجه الصبي الوسيم وجسمه الممشوق.

أصرَّ جرجس على أن يدفع حساب الشاي، وعدنا إلى الصندل، وما إن استقرَّ كلٌّ منَّا في مكانه حتى ظهر الريس على الشاطئ متقدِّمًا في نشاطٍ وتحت ذراعه لفافة من القماش وخلفه موكب الأمس.

* * *

الفصل الثالث

كان موكب الرَّيس سرور يضم عدة وجوه جديدة؛ ثلاثة من البحَّارة في لبدهم المخروطية والميكانيكي ومساعده، وكان الميكانيكي طويل القامة يرتدي قميصًا وبنطلونًا وينقُل قدمَيه في بطء، واختفى هو ومساعده الصبي في قُمرة المحرِّك على الفور.

استقرَّ عم سرور بجسمه الضئيل وحركاته العصبية في مقدِّمة الصندل يتطلَّع إلى الأفق، وخلفه وقف مساعده عم مهدي، وانتحى البحَّارة الثلاثة ركنًا على الرمال وسط الصندل.

تحرَّكنا أخيرًا ودار الصندل تاركًا السد من خلفه، وشرع يقترب من الضفة الشرقية للنهر، فتبدَّت لنا بضعة بيوت متناثرة فوق مرتفع صخري بعيد عن الشاطئ. كانت أشبه بخطٍّ من الجدران البيضاء تتخلَّله فتحات سوداء، وعندما أصبحنا في محاذاتها تكشَّفت الفتحات عن أقبية مجوَّفة تعلو أسطح البيوت، ولم يكن هناك أثر لشيء حي.

عاد الصندل يبتعد عن الضفة الشرقية متجهًا إلى وسط المجرى، وأحاطت بنا عشرات من الجزر الصغيرة، وتكلَّم أحمد فجأةً قائلًا إنها بقايا البيوت التي غمرتها المياه.

سألت فهمي عن الأقبية التي تعلو الأسطح، فقال إنها مجرَّد فراغات للتهوية. خلَّفنا القرية الغريقة وراءنا واقتربنا من الشاطئ الشرقي مرةً أخرى. سرنا في محاذاة صفَّين من المرتفعات الصخرية تُغلِّفها قشرة ناعمة من الرمال والأتربة. لم يكن هناك أثر لتلك الصخور الشرسة البارزة التي تسود منطقة السد حيث أُزيلت قشرة الجبل.

أشرفنا بعد قليل على قرية ثانية تتألَّف من مجموعات من البيوت تعلو بعضها تلك الأقبية المجوَّفة، كان بعضها الآخر يبدو أقرب إلى رسوم الأطفال.

كانت البيوت متناثرةً فوق حافَّة الماء مباشرة، ولصقها من الخلف كان يمتد الشاطئ الجبلي.

* * *

ارتفع بمياهك إلى حد البيوت
واضرب بها العتبات في رفق
ولتتعانق أنت وهي معًا
ولتناجها، وتهمس في أذنها وحدك؛
فقد تركناها لك،
بلدنا يا نيل
ورحلنا نحن.

* * *

تساءل ذهني: أمال السوق كان فين؟

قال فهمي: سوق؟ ما كانش عندنا. البضايع كانت بتلف بيها مراكب.

قلت: ليه هو ما كانش فيه سكة عربيات؟

قال فهمي: الناس اللي كانت عايشة هنا عمرها ما شافت عربية.

قلت: طب وكانوا عايشين إزاي؟ فين الزراعة؟

قال: كان فيه، إنما البحر هنا ضَيِّق خالص. ولَّما علُّوا الخزان أول مرة غرقت الزراعة والسواقي. ما فضلش إلا حاجة بسيطة.

مرَّ بنا مركب صيد عائد إلى أسوان، واستدرت أُتابعه ببصري فرأيته يختفي خلف حَنية في النهر، ووراء هذه الحَنية كانت الضفتان تلتقيان في خط واحد من الجبال المتجهِّمة.

أبطأ الصندل سرعته ومضى يدور في بطء حول كتلةٍ ضخمة من الصخور برزت وسط المجرى، وبدت لي الصخور في صورة جماعة من المماليك الذين لجئوا إلى النوبة فرارًا من مذابح محمد علي وقد تجمَّعوا لبحث أمر خطير، وأحنَوا رءوسهم التي تغطِّيها غمائم ضخمة.

انحنى بنا النهر ليضعنا تحت أقدام قرية تتألَّف من بيوت عائمة تُحيط بها المياه من كل جانب. كانت البيوت كلها تحمل طلاءً أصفر اللون فيما عدا منزلًا واحدًا كبيرًا ذا سور حجري بدا أشبه بالقصر، طُلي بلونٍ أبيض، تعترضه مثلثات داكنة فوق النوافذ.

سقطت أشعة الشمس فوقنا عمودية، ولم تكن ثمة وسيلة لتفاديها. المكان الوحيد الذي كان يمكن أن يقينا منها هو الكهف الذي قبع فيه الميكانيكي ومساعده، أو المظلة التي أقامها عم سرور من قطع الخيش فوق مقدِّمة الصندل، ولم يكن جرجس يعبأ بالشمس التي عجزت عن اختراق عمامته الثقيلة، وكان النوبيان أيضًا بمأمن منها، أمَّا قبعتي المصنوعة من القش فقد فشلَت في حمايتي من الأشعة النارية، ولم يبدُ على ذهني أنه يبالي بالشمس رغم أنه كان عاري الرأس حليقها.

تحوَّل السطح المعدِني الذي تكوَّمنا فوقه بمرور الوقت إلى لوح ملتهب أصبح من العسير الجلوس فوقه أو السير عليه بغير حذاء.

في الواحدة والنصف أصبحنا أمام «بيت الوالي». كانت البلدة الصغيرة تمتدُّ على حافَّة الماء وقد تناثرت وسطه قمم أشجار النخيل، وحفر الماء لنفسه طريقًا داخل البلدة، وحول المعبد الذي استقرَّ بعد نقله على مسافة آمنًا من زحف النهر.

لم يكن بوسعي أن أتبيَّن شيئًا من أول معبد أمَر رمسيس الثاني بنحته في الصخر، وسجَّل على جدرانه تفاصيل حمْلته على النوبة.

* * *

«فلم يكد الأمر يستقرُّ للملك في الداخل حتى سار جنوبًا فأعاد الأمن إلى ربوعه، وكان عهد خلفه معروفًا بالهدوء والسلام إذ عُنِي بتشييد المباني والمعابد، إلا أنه من الثابت الآن أنه أرسل أيضًا إحدى الحملات إلى النوبة، ولو أن هذا لا يُغيِّر من حقيقة اهتمامه بالبناء وجَلْب المحاصيل منها. ودعت ظروف المحافظة على السلام من جاء بعده إلى إرسال حملة بحرية إلى النوبة عادت بسبعة آلاف أسير ومائة ألف رأس من الماشية. وعملت مصر وقتها على استرضاء القبائل النوبية والتعامل معها تجاريًّا واقتصاديًّا، إلى جانب روابط المصاهرة، فضلًا عن استخدام القوات النوبية في الجيش المصري. واضطرَّت الظروف ملوك الأسرة التالية إلى إعادة غزو النوبة وفتح مناجم الذهب. وأمر الملك بتسجيل حملته على جدران المعابد، فنقش الفنَّانون موكبه سائرًا فوق جُثث النوبيين وقد عُلِّق زعماؤهم في مقدِّمته.»

* * *

دوَّى صوت انفجار قريب وانقطع ضجيج المحرِّك، وفوجئنا بالمياه تصعد إلينا فوق سطح القمرة.

قفز جرجس واقفًا وهو يقول: ماسورة التبريد طقَّت.

راقبت المياه التي انتشرت فوق الصاج وهي تجف سريعًا بتأثير سخونته، ثم تبعتُ الآخرين إلى قاع الصندل الذي توقَّف عن السير.

كان البحارة الثلاثة قد بسطوا صحيفةً فوق الرمال ووضعوا فوقها طعامهم، ولمحت حبَّات البصل التي انداحت جوانبها كاشفةً عن قلوبها، وأتتني رائحته المثيرة.

وجَّه أحدُهم التحيةَ إلى فهمي ودعانا إلى مشاركتهم، فشكرناهم، وسألت فهمي عنه فقال إنهم خفراء في «أبي سنبل».

ارتفع صوت المحرِّك من جديد، واستأنف الصندل سيره فعدنا إلى أماكننا، وتولَّى جرجس إعداد المائدة التي أضاف إليها كلٌّ منَّا شيئًا عدا ذهني.

قال جرجس ونحن نأكل إنه يخشى أن يطالبه المصري بنقود.

سألته: أي مصري؟

قال: الميكانيكي. المصريين دايمًا كده.

أشرت إلى حيث كان الثلاثة بمعزل عن ناظرنا وسألته: ودول كمان؟

قال: أبدًا. دول فلاحين. الميكانيكي ابن البلد ولابس أفرنجي.

أزلت بضع فُتات من الجبن سقطت على قميصي، وأخرج جرجس من سلَّته برَّادًا صغيرًا قديمًا وضعه أمامي في زهو، وأتبعه بصندوق صغير للشاي ومنديل احتوى على قليل من السكَّر وملعقة وكوب من الزجاج. حمل الشاي والسكر في يد والبرَّاد في اليد الأخرى، وهبط إلى سطح الصندل قائلًا إنه سيُعد الشاي عند الميكانيكي.

كان المجرى دائم الانحناء، وشعرت أننا نتجه يسرة، وظهرَت يمنةً قرية صُنعت منازلها من الصلصال، ورُسمت على جدرانها نقوش بيضاء تمثِّل ورق اللعب.

عاد جرجس حاملًا برَّاد الشاي وكوبَين آخرَين من الزجاج قال إنه أخذهما من الميكانيكي، وإنه دعاه ليشاركنا شرب الشاي.

أقبل الميكانيكي فأفسحنا له مكانًا بيننا، واقتعد الأرض متربِّعًا وبدا رجلًا هادئ الطبع خجولًا بعض الشي في الحلقة الرابعة.

صبَّ جرجس الشاي، وتطوَّع ذهني بأن يحمل كوبَين إلى كلٍّ من الريس ومساعده. سألت الميكانيكي عمَّا إذا كان من القاهرة، فقال إنه من قرية خارجها، وقال إنه يعمل في هذه المنطقة منذ بدأَت عمليات إنقاذ الآثار، وشارك في نقل أغلب المعابد.

استفسرت منه عن العمل في تقطيع المعبدَين، فقال إن الواجهة ما زالت كما هي، وإنهم ربما بدءوا في تقطيعها في الشهر القادم.

مررنا ببضعة بيوت على الضفة الشرقية انهارت واجهاتها الأمامية وظهرت الغرف الداخلية الفارغة كأنها عائمة فوق سطح الماء. قال فهمي إنها قرية «كلابشة»، فاعترض الميكانيكي قائلًا إننا تركنا «كلابشة» خلفنا منذ نصف ساعة، أمَّا هذه فهي «دندور»، وأضاف: كان هنا معبد ع الشط الغربي، وكان بتوع الآثار مهتمين به لأنه كان فيه آثار كنيسة وجامع.

أشرفنا على قرية جديدة عندما صبَّ جرجس الدور الثاني. كانت واجهات منازلها خاليةً من أية نقوش أو زخارف، وقال الميكانيكي مُشيرًا بيده إلى نقطةٍ على الضفة الغربية وسط أطلال المنازل: دي «جرف حسين». بصوا بعيد هناك. أهو ده اللي فضل من المعبد.

لم أستطِع أن أتبيَّن البقايا التي أشار إليها، وقال إن معبد «جرف حسين» هو الوحيد الذي لم يتمكَّن الخبراء من نقله أو رفعه لأنه منحوت في الصخر الحي ومتآكل، لكنه نقل في صندله أجزاءً كثيرةً منه؛ منها ستة تماثيل لرمسيس الثاني.

راقبنا البيوت العائمة تتناقص حتى تلاشت، وشعرت فجأةً أن طنين المحرِّك الرتيب لا يُحتمل، فسألت الميكانيكي عمَّا إذا كنَّا سنواصل السفر بالليل.

قال: لا طبعًا. السفر بالليل خطر.

قلت: وحنقف فين؟

قال: الريس هو اللِّي يعرف. يمكن في وادي السبوع.

عدت أسأل: وإمتى نوصل وادي السبوع؟

نهض واقفًا وهو يقول: أحسن تسأل الريس سرور. يعطيكم العافية يا رجالة.

تبعت الميكانيكي إلى قاع الصندل بعد أن تصلَّبت ركبتاي من طول ثنيهما أثناء الجلوس. اقتربت من حيث جلس البحاروة الثلاثة على الرمال بمنأًى عن ضجة المحرِّك، وكنت عازفًا عن الحديث، فدرت بأكوام الرمال والزلط حتى أصبحت في الناحية الأخرى، وتهالكت خلفهم على الرمال.

تناولت قطعتَي زلط في يدي. كانت مكوِّنات كل قطعة واضحةً للرؤية على سطحها الأملس الذي تتدرَّج ألوانه وتتنوَّع بين الرملي والرمادي والأسود والأحمر، وما لبثت سخونة الرمال تحتي أن أجبرتني على النهوض، فوقفت في إعياء شاعرًا بأعين البحاروة الثلاثة على ظهري.

لمحت ذهني يُشير إليَّ فاتجهت نحوه. أمسك بساعدي عندما أصبحت بجواره وتلفَّت حوله هامسًا: الرَّيس سرور عاوز منَّا فلوس.

قلت: بتاعت إيه؟

قال: أجرة أو إتاوة. لمَّا ودِّيتله الشاي سألني عنك، وقال إنه خد مرة جنيه من واحد أفندي زيك.

– وقلتله إيه؟

ضحك وقال إنك في مهمة سرِّية، وأنا المساعد بتاعك، وعطيته صورة خطيرة عنك، فسكت على طول.

كانت الساعة قد بلغت السادسة، وبدأت أشعة الشمس تفقد جزءًا كبيرًا من قوتها، واتسع مجرى النهر فجأةً ولم يعد بإمكاني أن أرى تفاصيل الشاطئَين بوضوح، وما لبث المجرى أن ضاق وظهر أمامنا خطٌّ من الصخور الشرسة أعقبتها قرية طويلة امتلأت بالنخيل.

في السادسة والنصف عاد المجرى يتسع اتساعًا هائلًا، وأصبحنا نسير في شبه بحيرة. راقبت الشمس وهي تختفي خلف سحابةٍ داكنة صانعةً زجزاجًا ذهبيًّا في طرفها الأول، وضوءًا مكتومًا في الطرف الآخر، ثم تبدَّت لحظةً من خلال فجوةٍ وسط السحابة، ثم اختفت من جديد في ثناياها.

بدا الشاطئ الغربي مؤلَّفًا من مرتفعات صخرية صغيرة متناثرة كالكثبان أو الأثداء المتكرِّرة، أمَّا الشرقي فلم يبدُ منه لفترة طويلة غير مرتفع واحد، ثم ظهر كثيب عالٍ تلته أرض فضاء جاءت بعدها سلسلة من الهضاب الشبيهة بالشاطئ الغربي.

أوشكت الشمس على الظهور من طرف السحابة الأسفل، وما لبثت أن تجلَّت قوسًا متوهِّجًا كالبدر، وأخذت السحابة تتحلَّل أمام وهَجها حتى تلاشت، وتبدَّى قرص الشمس كاملًا.

كان القرص في البداية أصفر اللون، ثم ما لبث أن اكتسب لونًا برتقاليًّا وهو يهبط مقتربًا من الهضاب الصخرية حتى الْتقى بها، واستقرَّ القرص فوق قِمم الهضاب لحظةً كأنما سيتدحرج فوق خطِّها الممتد يسرة، لكنه واصل الهبوط بسرعة، واختفى نصفه خلف تلٍّ من الصخور، ثم حجبه تمامًا عن ناظرَينا، لكن وجوده كان ملموسًا فقد أحاط بهالةٍ من ضوئه.

تجاوزنا التلَّ الذي أعقبته فسحة من الأرض فتجلَّى قرص الشمس من جديد، ولكنه جعل يهبط في بطء خلف الأفق حتى لم تَعُد تبدو منه سوى حافته، ثم اختفى كلية.

أصبحنا نسير في بحيرة هائلة الاتساع، ومرَّ بنا عم مهدي ذاهبًا إلى المرحاض. سألته عن الساعة التي سيقف فيها الصندل بالليل، فأجاب وهو يلوك شيئًا ما في فمه: علم الله.

بصق في النهر سائلًا أسود، ثم رفع طرف جلبابه واختفى في المرحاض، وخرج بعد لحظات فدار حول القُمرة وجلس القرفصاء على حافة الصندل وشرع يتوضَّأ.

استعدَّ النوبيان للاقتداء به، بينما بقي جرجس ممدِّدًا على سطح القُمرة العاري مُغطيًا عينَيه بمرفقه.

قفزت إلى قاع الصندل ومضيت فاستلقيت فوق الرمال. كانت حرارة النهار قد أوشكت أن تتلاشى، وبعث فيَّ ملمس الرمال الدافئ شعورًا حسيًّا، وجاءتني أصوات البحَّارة الثلاثة من خلفي في حديث متقطِّع عن الزراعة، وفوقي امتدَّت صفحة السماء دانيةً شديدة الصفاء، وبدت ضجة المحرِّك نائية.

في السابعة والنصف تمامًا بزغت النجمة الوحيدة. خُيِّل إليَّ أنها كانت تتجه إلى الغرب، ثم توقَّفت، وفكَّرت بأن أقوم لأسأل أحدًا عنها؛ فلا بد أن الريس يعرفها، ولعلَّها تكون نجمة الشِّعرى اليمانية التي كانت تظهر لقدماء المصريين مع حلول الفيضان، أو الدب القطبي الشهير الذي يسترشد به البحَّارة والتائهون، لكني لم أجد حماسةً للقيام، وأحسست أن أية إجابة أحصل عليها لن تُغيِّر من الأمر شيئًا.

انفردت النجمة بالسماء طوال نصف ساعة إلى جانب القُمر الذي بزغ نصفًا، وفي الثامنة ظهرت مجموعة جديدة من النجوم الصغيرة المتناثرة، لكنها ظلَّت محتفظةً بمسافة واضحة لا تتغيَّر بينها وبين النجمة الكبيرة، واستمرَّ وضع هذه ثابتًا نصف ساعة أخرى، ثم اختفت.

تناولت قطعتَين متقاربتَي الحجم من الزلط. تحسَّست سطحهما الزجاجي الملمس وحوافهما المستديرة الناعمة، ثم ضربتهما الواحدة بالأخرى متوقِّعًا أن ينبثق منهما الشرر، لكن شيئًا من هذا لم يحدث.

* * *

حبات الزلط التي استقرَّت أمام المنزل تلتمع في ضوء القمر، وتلاشت الضجة التي كان يصنعها عُمَّال البناء في المنزل المجاور طول النهار، وأصبح مبنى مدرسة اليهود المقابل كتلةً من الظلام الصامت، والشارع يمتد صعودًا إلى مجاهلَ ينطلق إليها في الصباح المبكِّر عُمَّال مُسرعون ما زال أثر النوم في عيونهم، يحملون طعامهم في مناديل معقودة تحت آباطهم، يهبطون منها في المساء متثاقلي الخطى منهكين، يتبعهم جنود الإنجليز نشطين مشمِّري الأكمام يسيرون في مجموعات كدأبهم، وتوارى عن الأنظار الكنَّاس الوحيد الذي

كان هنا بالنهار، وكان قشُّ مكنسته لا يفتأ ينفصل عن يدها الخشبية فيقتعد الرصيفَ وينهمك في تثبيته بلفائف من الخِرَق، وقد تدلَّى ذيل طاقيته الصفراء على ظهره، والأرض لم تعد تُرسل لهيبًا، لكنها ما تزال دافئة، وما زال يمكن تبيُّن خطوط الطباشير التي صنعت مستطيلات متعاقبةً تنتهي بنصف دائرة. الشاطر هو الذي كان ينقُل بقدمه قطعة الطوب من مستطيل إلى آخر دون أن يمس خطوط الطباشير، وأغلب الأولاد انصرفوا ولم يبقَ إلا اثنَين أو ثلاثة من أخلص الخلصاء استلقَوا فوق الزلط والرمل، أو لعلهم بلا أهل، والأرجح أن قيظ اليوم قد ألان قلوب آبائهم الحجرية فسمحوا بالبقاء إلى هذا الوقت في الشارع، ومن النافذة المظلمة المفتوحة التي لا تعلو عن الأرض إلا بضع أقدام تأتي همهمة بعيدة هادئة هي أصوات الأسرة في الصالة المضاءة التي يلتمع بلاطها النظيف ويفصلها باب عن دورة المياه ما زال زجاجه سليمًا؛ فالشرخ حدث بعد ذلك، ولأن النظام كان ما يزال يسود البيت فلا بد وأن ينطلق في أية لحظة الصوت الصارم من النافذة آمرًا بالعودة، ولن تُفلح معه أية توسُّلات، ولن يكون هناك مفر من الاستجابة والمضي إلى الداخل في تثاقل للاغتسال ثم الالتجاء إلى طيَّات الفراش الذي يستقر بين النافذة وباب الغرفة، مرتِّبًا منسِّقًا يعلوه غطاء من الدانتيلا المتشابكة، أثار الالتفاف به عاريًا ذات مرة دغدغةً غامضة، وكل ما يمكن عمله الآن هو التوسُّل إلى الله في فسحةٍ من الوقت حتى يمكن حكُّ قِطع الزلط الواحدة بالأخرى؛ فربما تولَّد عنها مرةً ثانيةً ذلك الشرر الملوَّن الرائع.

* * *

جاءني صوت ذهني يدعوني لتناول العشاء، فمضيت إليهم وألفيتهم قد تحلَّقوا في الظلام حول إناء من الألومنيوم. أفسح لي ذهني مكانًا بجواره، ودسَّ جرجس في يدي قطعةً من خبزه المتحجِّر.

خلع ذهني مصباحه من خصره وأضاءه مسلِّطًا شعاعه على الإناء. غمسنا أصابعنا فيه واحدًا بعد الآخر، ثم شربنا الشاي وهبطنا إلى قاع الصندل فاغتسلنا وتبوَّلنا، وعندما عدت إلى سطح القُمرة ألفيت جرجس قد بسط بطانيته، فاستلقينا عليها ثلاثتنا بينما انتحى النوبيان جانبًا.

أخذ ذهني يردِّد مقاطع غير كاملة من أغاني عبد الحليم حافظ، واعتمد جرجس على مرفقه يُدخِّن مُجاريًا ذهني في الغناء بين الحين والآخر دون حماسة.

انتهزت لحظةً صمت فيها ذهني فطلبت من جرجس أن يحكي لنا عن قريته.

قال: لا. أحكيلكم حكاية.

قلت: يبقى أحسن.

انطلق جرجس يحكي إحدى حكايات الشاطر حسن، وأخذت أتنقَّل بعينَي بين آلاف النقاط البيضاء اللامعة المتناثرة على صفحة السماء، وأتاني طنين المحرِّك رتيبًا مملًّا.

حاولت أن أتذكَّر ممن سمعت حكاية الشاطر حسن لأول مرة، لكني عجزت وقرَّرت في النهاية أنها ربما كانت أمي. كان جرجس يصف الآن كيف وقف الشاطر حسن حائرًا أمام الطرق الثلاثة، وكيف أعانته طِيبة قلبه وقوة إيمانه على اختيار سكة السلامة، وكيف انتصر بعد ذلك على مكائد الغولة وزوجة أبيه.

هبَّت نسمة هواء خفيفة فأغلقتُ عينَي مستسلمًا لها، وبدأ النعاس يداعب جفوني وجرجس يصف كيف فاز الشاطر حسن ببنت السلطان، ولعلي غفوت لحظةً تنبَّهت بعدها على صوت جرجس يأتي نائيًا عبر طنين المحرِّك. أدركت أن الشاطر حسن أصبح هو السلطان، والناس تقيم الأفراح أربعين ليلةً وليلة، والأنوار تضيء مآذن المساجد، ومشى السلطان الجديد بين الناس يعاهدهم على أن يحكم بالعدل ويستشير رؤساءهم في كل أمر، لكن الرؤساء قالوا إن ما تجلَّى من حكمته وأمانته وإيمانه يجعله في غير حاجة إلى مشورتهم.

غفوت طويلًا فيما يبدو، ولا أعرف إذا كنت تنبَّهت قليلًا بعد ذلك أو أني كنت أحلم، لكن شيئًا مرعبًا كان يحدث في قصة الشاطر حسن؛ فقد نُصبت المشانق وسالت الدماء ولم يعد أحد يأمن على نفسه.

أردت أن أعرف كيف بدأ هذا كله، وأدركت أني لو بذلت مجهودًا لفعلت؛ فقد ذكر جرجس كل شيء في حكايته، لكني كنت عاجزًا عن التذكُّر، وبدلًا من ذلك رأيتني أقف مع سعيد الذي كان يحمل حقيبتي. كنت أعرف أنه يريد أن يفتِّشها من وراء ظهري، وجعلت أبحث عن قبعتي في منزل يجري نقل الأثاث إليه. فهمت أن صديقًا لي يتزوَّج، وتوافد بقية الأصدقاء وأنا ما زلت أبحث عن قبعتي، ورأيتني أقف في بهوٍ أمام باب يصدر من خلفه طنين مزعج. كانت بجواري مائدة صُفَّت عليها عدة قبعات متشابهة، واحترت في أيها تخصني.

أفقت على يدٍ تهزُّني بإلحاح، وسمعت فهمي يقول إننا وصلنا «أبريم».

وقفت على قدمَي بصعوبة شاعرًا بنفسي كالثمل. كان المحرِّك ما زال يطن، ورأيت الصندل يشق طريقه بين سفن شراعية كبيرة وصنادل أخرى، ثم كفَّ المحرِّك عن الطنين،

وظلَّ الصندل يتقدَّم في بطء من الشاطئ الذي تجمَّع عنده عدة رجال يحملون مصابيح من الزيت، وتناثرت خلفهم عدة خيام.

رسا الصندل أخيرًا إلى الشاطئ، وعلت أصوات التحيات المتبادلة. سمعت أحد الواقفين على الشاطئ يسأل عن أحمد وعمَّا إذا كان قد أحضر الأمانة معه. تلفَّتُّ أبحث عنه فوجدته ما زال ممدِّدًا في مكانه يتطلَّع إلى السماء بعينَين مفتوحتَين.

طلب مني ذهني سيجارةً فأعطيته واحدةً وأشعلت لنفسي أخرى، وسمعت جرجس يقول فجأة: دي وادي السبوع مش «أبريم».

قال فهمي الذي كان متربِّعًا بجواري يتفرَّج على الشاطئ: أبدًا دي «أبريم» زي ما قلت.

لكن صوته كان خاليًا من رنة الاقتناع.

قال جرجس بثقة: اسمع كلامي دي وادي السبوع. أنا اشتغلت هنا لمَّا كانوا بينقلوا المعبد وعارف الشط ده حتة حتة. «أبريم» مفيهاش معابد، والمعبد اللِّي كان هنا كان لازق في الجبل وجدامه صفين سبوعة.

لزم فهمي الصمت فقلت له مهوِّنًا: إن القرى النوبية متشابهة وكذلك المعابد.

قال جرجس: المعبد يظهر كان في يوم من الأيام كنيسة؛ لأن الصليب كان في كل حتة، وكان في رسم للأديس بطرس.

هبطت إلى قاع الصندل لأتبوَّل، وسمعت الميكانيكي يقول إنه سيعود بعد عشرة أيام.

أشعلت سيجارةً عندما صعدت إلى سطح القُمرة، وجلست أدخِّن بين ذهني وجرجس.

قلت: باين علينا حنبيت هنا.

تطلَّع إليَّ جرجس في دهشة وقال: طبعًا.

ألقيت بعقب السيجارة إلى الماء، واستلقيت على البطانية، وسرعان ما رحت في النوم. استيقظت في السادسة صباحًا على صوت المحرِّك، وشعرت بالصندل يستأنف سيره قبل أن أغفو من جديد.

استيقظت مرةً أخرى بعد ساعة، وهبطت إلى المرحاض، لكن رائحة المكان وضيقه أصابتني بإمساك، فغسلت أسناني، وتلفَّتُّ حولي بحثًا عن مكان أضع فيه نظارتي لأغسل وجهي، وسمعت صوت جرجس يقول: إديهالي.

أعطيته النظَّارة وغسلت وجهي، وعندما تحوَّلت إليه كان منهمكًا في تنظيفها بمنديل، ثم قدَّمها إليَّ فشكرته.

سألني إذا كنت أريد أن أشرب شايًا، فقلت: طبعًا، ودي عاوزه كلام؟

قال: يبقى أجيب وابور م الميكانيكي.

ذهبنا معًا إلى قُمرة المحرِّك، ووجدنا صبيَّ الميكانيكي منهمكًا في تنظيفها. سألته عن الميكانيكي فقال إنه يشرب الشاي عند الريس سرور. أخذت منه الموقد فأصرَّ جرجس أن يحمله عني، وجعلنا نبحث عن مكان في منجًى عن تيارات الهواء، ولم نجد أفضل من الرمال، فمهَّدنا له مكانًا وسطها بحيث أحاطت به من ثلاث جهات. وتولَّى جرجس إشعاله، بينما أحضرت البراد والشاي والسكر.

سألني جرجس وهو يضع البراد على النار عمَّا إذا كنت أعرف ذهني منذ وقت طويل. قلت إنِّي تعرَّفت به على الصندل.

قال: أنا مش مستريحله.

قلت: قصدك إيه؟

قال: باين عليه من رجال المباحث السرية.

قلت: يا شيخ!

قال: طب مسافر كده ليه؟ وفين عفشه؟

قلت: أصحابه ضحكوا عليه.

سكت، ثم قال بعد لحظة: إنت لازم يكون معاك شخص أمين تعتمد عليه.

لم أفهم ما يعنيه فلم أعلِّق. انتهى الشاي فحمل جرجس البرَّاد إلى مجلسنا، بينما حملت أنا الموقد إلى قُمرة الميكانيكي، وعندما عُدت كان مجرى النهر ينحني إلى اليمين انحناءةً حادة، وظهرت على الشاطئ الغربي بقايا قرية «كورسكو» التي اكتُشفت بها لوحات صخرية من نقش إنسان العصر الحجري.

كانت منازل القرية بيضاء متلاصقةً تعلو كلًّا منها فُوهةٌ سوداء مستطيلة الشكل. ظلَّت الفُوَّهات السوداء تحدِّق إلينا في صمت حتى تجاوزنا القرية، وواصل المجرى اتجاهه يمينًا.

* * *

أثاث غرفة الضيوف اختفى، ولم يعد بالمنزل كله غير فراش واحد ونملية خشبية وُضعت في الصالة تمرح الصراصير في جنباتها، ومن قبلُ كان هنا بوفيه خشبي تُصف فوق رخامته في الصيف أطباق البالوظة تعلوها قطع الثلج لنأكلها عندما تغيب الشمس، ونجلس إلى

جوار النافذة نُطل على مدرسة اليهود الساكنة، وحديقة مدرسة الراهبات التي تتوسَّطها ساحةٌ دائرية للباتيناج، وفي طرف الشارع يرش بائع الورد المياه فترقد الأتربة على الأرض، وتأتي نسمات الهواء رطبةً منعشة، وإذا مرَّ بائع التين الشوكي ناديناه، وكلُّ هذا مضى إلى غير رجعة؛ فلم يعد في المنزل غير العجوز الذي وقف بملابسه الداخلية منفرج الساقَين، وانحنى مادًّا يده ليُحكم رباط حزام الفتاق، وتقلَّص وجهه من ألم الحزام الذي يدور بوسطه وبين فخذَيه ضاغطًا على خصيتَيه.

* * *

وصلنا «عمدة» بعد ساعة، وبدا معبدها بعد نقله إلى أعلى وسط الجبال كوابور طحين صغير. لم يكن هناك أثر لمنزل واحد على هذه الناحية، ويبدو أن القرية كلها كانت تقع على الضفة الغربية. كانت أسطح بعض منازلها على شكل القارب، ورأيت منزلًا اتخذ بابه شكل السهم المصوب إلى السماء.

عُدت أتأمَّل المعبد الذي كنَّا نبتعد عنه في سرعة، وسرعان ما تلاشى خلف كتلة ضخمة من الصخور. كان للكتلة شكل غريب أقرب إلى طفل عارٍ من أطفال «ميكل أنجلو» الممتلئين، جلس فوق الجبال كاشفًا عن أجزائه الحميمة، وتمثَّلت طفلًا كبيرًا يلعب ويبني بيوتًا، ثم يزيحها بيده فتتهاوى.

اتجهت إلى مقدمة الصندل، ومررت بالبحَّارة الثلاثة الذين رقدوا على الرمال بملابسهم الكاملة. كان أحدهم نصف مضطجع وقد شبَّك يدَيه خلف رأسه، بينما تطلَّع الاثنان الآخران إلى الأفق في صمت.

حيَّيتهم، ثم مضيت إلى حيث احتمى الريس سرور من الشمس تحت قطعة من الخيش نُصبت فوق عصًى خشبية، ورحَّب بي العجوز طالبًا مني أن أجلس.

جلست على شبه وسادة صُنعت من أكياس الخيش وأنا أسأله عن الأحوال.

رفع يده إلى فمه وقبَّلها ظهرًا لبَطْن قائلًا: نحمده. البحر وسع بعد السد ببركة ريسنا جمال. الريس ده والله نبي!

سألته عن موعد وصولنا إلى «أبي سنبل» فأجاب: علم الله. إحنا في البحر ملك إيديه. فيه ملايكة شايلين البحر على سلاسل وفي إيديهم كل حاجة.

قدَّمت إليه سيجارة، فقال إن المسافة من «عمدة» إلى «أبي سنبل» لا تزيد عن عشر ساعات. سألته عن موعد العودة، فابتسم في براءةٍ وقال: لَمَّا نخلص تفريغ.

وذكرت له ما سمعته أمس عن لسان الميكانيكي، فأبدى دهشته، وسألني بعد قليل: ألا قولي، هو الأخ اللِّي معاك اسمه إيه؟

قلت: ذهني.

سأل: هو قبطي؟

كدت أقول إني لا أعرف، ثم تذكَّرت أن ذهني قال له إننا نعمل معًا، فأجبت بالنفي.

انضمَّ إلينا جرجس حاملًا كوبَين من الشاي لي وللريس سرور، وجلسنا ثلاثتنا نرتشف الشاي وندخِّن ونتأمَّل صخور الشاطئَين في انتظار ظهور بقايا القرى.

كانت القرية التالية هي «الدر»، وظهر لنا منها في البداية مجموعة من البيوت ناصعة البياض، ثم مسجد لُوِّنت جدرانه، وانتصبت إلى جواره مئذنة بيضاء كبرج حمام، ثم رأينا بقايا معبد رمسيس الثاني التي تناثرت على الشاطئ بعد تقطيعه، وإلى الداخل قليلًا استقرَّت رافعةٌ هوائية في حضن الجبل، وظهرت كلابتها الحديدية عاليةً في الهواء تتدلَّى منها قطعةٌ مربعة من الصخور حُزمت بالحبال. كانت الكلابة تقترب من مكان مرتفع على سطح الجبل توجِّهها صيحات نفر قليل من الرجال تجمَّعوا على الشاطئ.

* * *

«لا يُعرف على وجه التحديد متى سيطرت على ذهن رمسيس الثاني فكرة الألوهية، وربما كان ذلك في العام الرابع والثلاثين من حكمه عندما أوشك معبد «أبي سنبل» الكبيرة على التمام، واتبع رمسيس في التبشير بعبادته أسلوب تصويره بين الآلهة، أولًا كواحد منها، ثم عمد إلى انتحال أشخاص بعضها، ومن مناظره الطريفة كذلك أن يُصوَّر بناسوته في حضرة شخصه الآلي يتعبَّد إليه أو يتلقَّى منه البركات.»

«ومهما يكن من شيء فإن معبد «الدر» كان قمة ما وصلَت إليه عبادته من التطوُّر والاكتمال؛ فقد عُبد في هذا المعبد على صورة «رع» نفسه كأنما اتحد معه فأصبحا إلهًا واحدًا، أو أنه يمثِّله على الأرض، وهو المعبد الذي انفرد بين معابد النوبة بأن اقتصرت القاعة الثانية فيه على منظرَين متقابلَين للزورق المقدس وللملك الإله دون أن يظهر زورق الإله «رع» ذاته؛ أي إن زورق رمسيس قد تكرَّر حيث كان ينبغي أن يُصوَّر زورق الإله.»

«ومن أبرز الصور وأهمها في هذا المعبد تعبيرًا عن ألوهية رمسيس واتحاده في شخص «رع»، صورةٌ تعبِّر عن اسمه (أوسر ماعت رع) مَثَل فيها الملك من وراء زورق الإله قائمًا فوق رأسه قرص الشمس «رع»، وفي يمناه صولجان يعبِّر عن لفظ «أوسر»، وفي يسراه

ريشة تعبِّر عن لفظ «ماعت». وكان اسم الملك هذا يُكتب كثيرًا بهذا الشكل حيث يصوِّر الصولجان والريشة في يدَي «رع» في هيئة إنسان له رأس الصقر المتوَّج بقرص الشمس، وبذلك حلَّ شخص رمسيس محل «رع» الذي يكوِّن الجزء الثالث من اسم الملك.»

«وفضلًا عن ذلك ورد في نصوص المعبد أن الإله «رع حراختي» إنما يُعبد ضيفًا فيه، بمعنى أن المعبد إنما قُصد به عبادة شخص رمسيس مع تسميته باسم بيت «رع».»

«كذلك صور رمسيس وهو في الطريق إلى أبيه «رع».»

وبذلك فقدْ كان «رع» هو الأب ورمسيس هو الابن وهما إله واحد.»

* * *

كان مجرى النهر يتسع ويضيق بصفة مستمرة، وكانت انحناءاته المتكرِّرة توحي إلينا دائمًا بأننا نجتاز بحيرةً مغلقة، فإذا ما تطلَّعنا إلى الأمام أو الخلف بدت الجبال الممتدَّة على الشاطئَين كأنما تلتقي في خط واحد.

قال لي جرجس فجأةً ونحن نتمشَّى على ظهر الصندل: إيه رأيك تأخذني معاك مصر؟

قلت: تعال!

قال: كلام جد؟

قلت: جد. إنما حتسيب شغلك إزاي في «أبو سنبل»؟

هزَّ كتفَيه في غير مبالاة: أنا باشتغل غفير بتلاتاشر جنيه. دول يكفوا بإيه. أنا عندي أربع عيال.

قلت: وفاكر الحال في مصر حيكون أحسن؟

قال: على الأقل أكون معاك، أمشي معاك مطرح متروح.

أردت أن أضحك ولكني لم أفعل. تذكَّرت ما كنت أتجاهله دائمًا وهو أن أول شيء سيتعيَّن عليَّ عمله عند عودتي إلى القاهرة هو البحث عن عمل، لكن كيف أقول ذلك لجرجس؟

قلت: بس لازم تعرف إني لي طريقة يمكن ما تريحش. يعني زي ما تقول كدا رزقي من يوم ليوم، مبشتغلش ثابت في أي حتة. أزهق بسرعة.

قال بحماسة: أنا كمان أُحب يكون رزقي من يوم ليوم.

قلت: إنت عندك أولاد مسئول عنهم وأنا مش مسئول عن حد.

قال: يا سيدي لهم ربهم. إنت محتاج لحد أمين زي ما قلتلك الصبح يشوف راحتك. يوضبلك حاجتك. يكون يعني مساعد لك.

قلت: طب وعاوز تيجي معايا إمتى؟

قال على الفور: أنزل معاك وانت مروَّح مصر.

قلت: لا أنا أقولك. إديني مهلة أتدبَّر فيها. أنزل أنا الأول أشوف الجو وبعدين أبعتلك.

تطلَّع إليَّ في استياءٍ طفلٌ صغير.

مضيت قائلًا: عشان تيجي على رواقة. أكون شفتلك شغلانة كده ولا كده تشيلك شوية في الأول لغاية منشوف نعمل إيه بعد كده.

تفحَّصني بعينَيه كأنما يسبر غوري، ثم لانت ملامح وجهه وأخرج مفكرةً صغيرةً باليةً من جيبه وفتح إحدى صفحاتها مقدِّمًا إياها لي: اكتب لي اسمك وعنوانك.

استندت إلى حافَّة الصندل وكتبت له اسمي وعنوان أحد أصدقائي.

قال: أنا اسمي جرجس مدبولي، والعنوان «أبو سنبل» وبس.

قلت: حاجة سهلة.

قال: لازم تكتبه.

أخرجت مفكِّرتي وسجَّلت اسمه وعنوانه. تحوَّلت أستأنف المشي، فأمسك بذراعي ورأيته يضع يده الأخرى في صدر جلبابه ويُخرج شيئًا أطبق راحته عليه.

تطلَّعت إلى يده المقبضة، وبسط هو أصابعه فطالعتني صورة مُلوَّنةٌ في حجم راحة اليد. لم أتمكَّن من تبيُّن تفاصيل الصورة لأنه أغلق يده بسرعة وأعاد الصورة إلى مكانها في صدره قائلًا: إذا نسيتني افتكر الحاجة.

وأدركت أن الصورة للعذراء.

لحظت أننا نمر بقرية جديدة، ورأيت على الشاطئ الغربي بضعة بيوت ملوَّنة الواجهة. سألت جرجس عن القرية فقال إنها ربما كانت «توماس».

عدنا إلى مكاننا فوق القُمرة، وألفينا ذهني منهمكًا في إعداد طعام الغداء. تمدَّدت على السطح الساخن، وبدا لي صوت المحرِّك أعلى من ذي قبل.

انتهى ذهني من إعداد الطعام، واستقرَّ الإناء بيننا، وكنا في هذه اللحظة نقترب من قرية «أبريم».

* * *

«أسفل الصخر على الشاطئ نُحتت خمسة هياكل فرعونية منها واحد لرمسيس الثاني، أمَّا القلعة القائمة إلى الآن فتعود إلى العصر الروماني، وقد أقام بها النوبيون حاميةً حتى أجلاهم عنها القائد الروماني «بترونيوس» بعد أن هزمهم في الدكة.»

وفي القرن السادس عشر أقام الأتراك في «أبريم» حاميةً من الجنود، وبنَوا المدينة التي نجد الآن بقاياها، حتى أجلاهم عنها في أوائل القرن التاسع عشر المماليك الذين جاءوا إلى هذه المنطقة فرارًا من إرهاب محمد علي.»

«وفي جنوب المدينة تقع الكنيسة التي لا تزال رغم تحويلها إلى مسجدٍ على يد المماليك تحتفظ بكثير من عناصرها المعمارية، وبداخل الكنيسة يوجد سرداب يؤدِّي إلى كنيسة أخرى، ويبدو أن الكنيسة الأولى تعود إلى عهد المسيحيين الأوائل عندما كانوا يتعرَّضون للاضطهاد، وقد بنَوا الكنيسة الداخلية لتكون بمثابة مخبأ، وممَّا يؤدِّي ذلك أن «أبريم» تضم آثار مدينة كاملة من العهد المسيحي مؤلَّفة من أبراج وشوارع مقبَّبة بها منافذ للضوء.»

* * *

في الساعة الخامسة أبطأ الصندل من سرعته واقترب من الشاطئ الشرقي. نهضت واقفًا فوق سطح القُمرة فرأيتنا نزحف إلى جوار مجموعة من قِمم النخيل برزت فوق سطح الماء.

كان ثمة جرس في الصندل يدق محذِّرًا، وتحوَّل الصندل يمنة، ثم يسرة، شاقًّا طريقه في حذر وبطء بين قمم النخيل، وعلى الناحيتَين وقف عم سرور والميكانيكي ومساعداهما حاملَين المناشير، وجعلوا يهوون بها على جريد النخيل يفصلونه عن جذوعه، ثم يُلقون به وبما يُحمل من بلح في قاع الصندل.

هبطت من مكاني واقتربت منهم، وقال لي الريس سرور: بلح ضاني، أحسن م الأبريمي.

كان هناك كوم من البلح الداكن في لون البن المحروق عند قدمَيه. تناولت واحدةً فإذا بها ناضجة تمامًا، وانفصلت قشرتها بين أصابعي بسهولة.

لمحت ذهني يخلع ملابسه حتى صار في لباسه الداخلي، ثم قفز إلى الماء، وصاح به سرور محذِّرًا أن يقترب من ريش السكَّان وإلا مزَّقه إربًا.

غطس ذهني بين النخيل واختفى لحظةً عن الأنظار، ثم ظهر حاملًا حفنةً من البلح الأحمر. كرَّر هذه العملية عدة مرات، ثم صعد إلى الصندل بعد أن استحم.

شرع الصندل يتحرَّك مبتعدًا عن أشجار النخيل، وتعلَّقت جريدتان من جريد النخيل بحافة الصندل، ثم مالتا عليها، وازداد ميلهما مع حركة الصندل كما لو كانتا تتشبَّثان به.

جذبهما الصندل معه فامتدَّت كل منها إلى أقصاها وتوتَّرت، وظهرت عليهما ثلاث درجات من اللَّون تبدأ بالأخضر الذي ما يلبث أن تشوبه صُفرة جافةٌ تتحوَّل إلى لون الطين أسفل ذلك.

انتظرت أن تنفصل الجريدتان عن النخلة وتسقطان في قاع الصندل، لكن الذي حدث كان هو العكس؛ فقد تخلَّص منهما الصندل وسقطتا في الماء.

جلسنا فوق القُمرة نأكل البلح الأحمر الذي غسله جرجس. كان فهمي قد أحضر بعضًا من البلح الأسود الذي جمعه سرور ومساعده، وأقبل عليه قائلًا إنه أحسن أنواع البلح، ورفض أحمد أن يمس شيئًا منه.

قال ذهني وهو يقذف بنوى البلح إلى الماء: تعرفوا وأنا بجيب البلح اتهيألي إني حاقع من فوق النخلة.

ضحكنا أنا وجرجس، ولم يبدُ على أحمد أنه سمع شيئًا، أمَّا فهمي فقد ظهرت على شفتَيه بداية ابتسامة مؤدَّبة.

اقتربنا من مجموعة أخرى من أشجار النخيل، وتكرَّرت حملة البلح، سوى أن ذهني لم ينزل الماء هذه المرة، وبقي إلى جواري على حافة الصندل.

استأنف الصندل مسيرته، ومررنا بـ «توشكة» التي دارت فيها المعركة الفاصلة بين ثوار السودان والجيش الإنجليزي عام ١٨٨٩.

* * *

وصدر الأمر إلى النوبيين أن يُخلوا قُراهم، واقُتلعت أشجار نخيلهم من جذورها؛ فثوار السودان عرضوا افتداء عرابي وهم يقتربون ليحرِّروا مصر كلها. ومن القاهرة وصل الجيش بقيادة جنرال إنجليزي يرتدي الطربوش ويحمل لقب الباشا. ودارت الموقعة على الشاطئ الغربي، فحاقت الهزيمة بالثوار وفقدوا قائدهم. فشلت المحاولة البكر وسقط النهر كله في العبودية.

* * *

أعطيت ذهني سيجارةً وأشعلت واحدة، وتابعت الشمس تغرب حتى اختفت، وبزغ القمر في الشرق. بحثت عن النجمة الوحيدة دون جدوى، ثم رأيتها فجأةً أمامي واهنةً صغيرة.

شرع المجرى يضيق، ومررنا ببقايا قرية كانت تضم فيما يبدو بيوتًا كثيرةً ومدرسة.

تحوَّل إليَّ ذهني فجأةً وسألني عمَّا إذا كنت دخلت السجن.

فوجئت بالسؤال وأجبت بالإيجاب.

قال: أنا برضه حزَّرت. إمتى؟

ذكرت له التاريخ.

قال: أنا كمان كنت معتقل.

قلت: وبتشتغل برضه موظَّف في شركة؟

قال في خجل: إنت صدَّقت؟ أبدًا. من يوم ما خرجت من المعتقل وأنا بدور على شغل من غير فايدة.

– وقبل المعتقل؟

– اشتغلت سواق، واشتغلت كاتب عند تاجر جملة. اضطريت أسيب المدرسة لَمَّا أبويا مات عشان أصرف على أمي وخواتي.

– وكنت عايش فين؟ في القاهرة؟

– أيوة، في العباسية.

– فين في العباسية؟

– قريب من ميدان عبده باشا. جنب مدرسة ابتدائي قديمة.

* * *

الرصيف المرصَّع بالحصى الملوَّن، والسور المؤلَّف من ألواح عالية من الصفيح طُليت باللون الأسود، وبائع البطاطا المشوية عند الباب الخلفي، وحنفي الذي نبت شاربه وأودع يده في جيب بنطلونه، وعبد السلام أفندي رابض خلف مكتبه المرتفع يقرض القشور الجلدية التي تكوَّنت فوق يدَيه السمينتَين وغطَّتها آثار الطباشير، ويُشير بعصاته إلى الالتواءات والجنادل على خارطة النيل، وعندما نتعثَّر أو نختلف عن إحضار كوبونات الكيروسين ينهال بها على أيدينا التي نبسطها أمامه ظهرًا لبطن.

* * *

سألته: صحيح ناوي تعدي الحدود؟

أجاب: طبعًا.

قلت: ليه؟

قال: ليه؟ بقى مانتش فاهم إني هربان.

– من إيه؟

– فيه أمر باعتقالي.

– عملت إيه؟

– ولا حاجة. كنت أقدر أعمل ايه يعني إذا كان الكل بياخدوا أرباح ومبسوطين وبيقولوا آمين وأنا مش لاقي شغل.

– يمكن اتكلمت.

لاح نورٌ مرتعش في الأفق، وسمعت جرجس يصيح: والله وصلنا يا رجالة!

قال ذهني بهدوء: ما تيجي معايا.

قلت: السودان؟

قال: السودان دي مرحلة. المهم نعدي الحدود.

قلت: نسافر ازاي من غير لا فلوس ولا حاجة خالص.

قال: بسيطة. نتصرف. نتضيف ع الناس لغاية الخرطوم. الناس هنا لسه كرما. حاعمل شنط صفيح نقدر نعبي فيها المية ونبيعها. لغاية الخرطوم مش محتاجين مليم واحد، وبعد كده نقدر نروح أي حتة. الكنغو مثلًا.

قلت: ونعمل إيه في الكنغو؟

– نحارب.

تطلَّعت إليه لحظة، ثم هززت رأسي: لا يا عم. أنا حاربت كفاية.

– وعاوز تستريح؟

– إستنى للسنة الجاية، يمكن آجي معك.

قال: ما هو دلوقت يا بلاش.

قلت: الوقت مقدرش. فيه شوية حاجات عاوز أفكر فيها على مهلي، وشوية حاجات عاوز أشوفها. ثم ما تنساش النسوان. أنا عشت كتير من غير نسوان ومقدرش أفضل كده على طول.

قال: تعال معايا وفكِّر زي ما أنت عاوز في السكة، أمَّا النسوان فحتقابلنا في كل حتة.

وضعت يدي على ذراعه: اسمع. إنت حتعمل ايه دلوقت؟

قال: مش عارف. تقدر تاخذني معاك في الاستراحة؟ عاوز أبات الليلة والصبح أشوف سكة الحدود وبعدين أقوم بالليل.

قلت: ما ظنش أقدر آخدك معايا. أنا نفسي مش ضامن ياخدوني.

قال: إيه رأيك في جرجس؟

قلت: ما له؟ كويس.

قال: أنا قلبي مش مستريحله. أصله نضيف قوي، وعنده قميص وبنطلون.

قلت: ما تبقاش عبيط.

قال: بافكر أبات عنده في الخيمة اللي بينام فيها.

قلت: فكرة كويسة. وبعدين بكرة أشوفك بالليل عند جرجس ونبقى نكمل كلامنا. تعال دلوقت أعطيك علبة الجبنة اللِّي معايا وشوية شاي وسكر.

أعطيت ذهني كل ما تبقَّى لديَّ من الطعام وأنا أشعر بنظرات جرجس غير راضية، وجلسنا ندخِّن ونحن نتأمَّل أنوار الشاطئ تزداد وضوحًا.

توقَّفَت ضجة المحرِّك أخيرًا فشعرت بالصداع، واقترب الصندل في بطء من الشاطئ فقمت متثاقلًا لأحمل حقيبتي، وقال إنه لا بد أن يراني في الغد فوعدته بأن أمر على خيمته في المساء.

وقفنا ننتظر حتى انتهت عملية الإرساء، وامتدَّت عارضة إلى الشاطئ الرملي الذي تجمَّع عنده نفر من الرجال.

أشار جرجس إلى فجوة هائلة في الجبل على مبعدة قرابة مائة خطوة بها أنوار قوية. وقال: المعبد هناك.

انتقلنا إلى الشاطئ ومشينا بضع خطوات في شبه ظلام. بلغنا بداية طريق يتجه يمنة، وتوقَّفنا تحت أسفل مصباح كهربائي يعلو عمودًا خشبيًّا.

وضع جرجس حقيبته وسلَّته على الأرض قائلًا إنه سيذهب لإحضار سيارة، وانطلق ذهني برفقته، فوضعت حقيبتي على الأرض وجلست فوقها.

سمعت خلفي وقع أقدام، ورأيت البحاروة الثلاثة يَجِدون السير حاملين أقفاصهم وسِلالهم. مرُّوا من أمامي فحيَّوني، ثم انطلقوا صُعُدًا في الطريق المؤدِّي إلى الداخل. ذكرت أني لم ألمح كلًّا من فهمي وأحمد منذ رسا الصندل.

تابعت البحاروة الثلاثة حتى اختفَوا عن ناظري خلف منحنًى في نهاية الطريق، وأوشكت أن أتحوَّل ببصري عندما ظهر عند المنحنى شخصان آخران يسيران على مهل، وعندما اقتربا مني بعض الشيء تبيَّنت في أحدهما ضابط بوليس شابًّا، وكان الثاني في الملابس المدنية.

كانا يسيران على الجانب الآخر من الطريق وقد انهمكا في الحديث، وعندما صارا أمامي ألقى ضابط الشرطة بنظره نحوي، ثم توقَّف عن المسير وانقطع حبل الحديث

بينهما، وما لبث أن استدار ومن خلفه رفيقه، وانطلقنا متمهِّلين في الطريق الذي جاءا منه، واتصل حبل الحديث بينهما مرةً أخرى.

أشعلت سيجارةً أخذت منها نفسَين، وكان طعم الدخان مرًّا فألقيت بها جانبًا.

أقبلَت بعد لحظات شاحنةٌ مُسرعة من الطريق المنحدر، ولمحت ذهني معتليًا ظهرها، فوقفت حاملًا حقيبتي، وعندما توقَّفَت الشاحنة أمامي رأيت جرجس إلى جوار السائق، وأشار لي أن أصعد بجواره.

دُرت حول الشاحنة وصعدت إلى جوار جرجس. انطلقت بضع خطوات، ثم دارت عائدةً من حيث جاءت، وصعدت الطريق في بطء وجهد، وما لبث الطريق أن استقام فانطلقت مسرعة.

كان الظلام يغطِّي هذا الجزء من الطريق، ولم أستطِع أن أتبيَّن شيئًا من حولي سوى هياكل الجبال التي امتدَّت على مرمى البصر، وظهرت بضعة أنوار خافتة على مبعدة.

أخذ الطريق في الصعود مرةً أخرى، وأقبلنا على شِبه هَضْبة استقرَّ في طرفها مبنًى مضاء أشبه بشاليه خشبي، وقال جرجس إننا وصلنا.

توقَّفت السيارة بالقرب من الشاليه، ورأيت شخصًا في قميص وبنطلون واقفًا في مدخله الذي يعلو عن الأرض بضع درجات. حملت حقيبتي وغادرت الشاحنة وأنا أقول لجرجس: حافوت عليك بكرة بالليل.

ابتعدت عن الشاحنة وانتظرت حتى استأنفَت سيرها، وانطلقَت بسرعة مثيرة عاصفةٌ من الغبار، ولوَّحت بيدي لذهني الذي انفرد بظهرها ووقف منفرج الساقَين وقد مال بجسمه إلى الأمام واعتمد بساعدَيه على ظهر قُمرة السائق.

تابعته ببصري حتى اختفى.

* * *

الفصل الثاني

رحَّب بي الشاب الذي كان يقف أمام باب الاستراحة عندما قُلت له إني صحفي، وقادني إلى صالةٍ صغيرة بها أريكة ومائدة أحاطت بها مقاعد بعد أن عرَّفني بأنه مهندس بِناء ويُدعى رفعت. جلست على مقعد واضعًا حقيبتي على الأرض بينما بقي هو واقفًا.

شعرت أنه حائر لا يدري ماذا يفعل بي، وأدركت أنه على الأقل لن يسألني عمَّا يثبت مهنتي.

قلت إني كنت مضطرًّا للسفر بسرعة ولم يكن لديَّ وقتٌ لإخطارهم بقدومي، لكن موظفي الشركة في أسوان أكَّدوا لي أن هناك مكانًا يمكنني الإقامة فيه يومًا أو يومَين.

أسرع رفعت يقول وهو يستقرُّ أمامي على الأريكة: طبعًا، طبعًا. على الرحب والسعة.

سألته إن كان يعرف مهندس آثار يُدعى خليل فقال: أجل أعرفه.

ولحظت أنه وجم بعض الشيء.

أسرعت أقول: أنا شخصيًّا لا أعرفه، لكني أحمل له خطابًا من صديق له.

لم يُعقِّب بشيء، وتحوَّل إلى شاب بدين ولج الصالة فقدَّمنا إلى بعض، ودبَّ النشاط في الشاب البدين الذي يُدعى حلمي عندما علم بأني صحفي، وقال وهو يجلس بجوار رفعت: أنا لديَّ شكوى من الصحافة.

قلت: ما هي؟

قال: أنتم لا تحترمون الإنسان الذي يعمل في شرف وصمت.

أراد رفعت أن يخفِّف من وقع كلماته فقال: بعض الصحفيين وليس كلهم.

قلت: ممكن.

قال حلمي: هل قرأت سيادتك الموضوع الذي نشرَته المجلة المصوَّرة عن «أبي سنبل»؟

قلت: لا أذكر. أظن قرأته.

هزَّ أصبعه في وجهي: هل هذه هي «أبو سنبل»؟

سألت: ماذا كان في المقال؟

قال رفعت: صحفي مخنَّث أمضى هنا بضعة أيام وأكرمناه للآخر، وظلَّ طوال الوقت يطارد بنتًا ألمانيةً ويصوِّرها بالبكيني على الجبل وفي البحر، وعندما عاد كتب أن المهندسين المصريين هنا لا شاغل لهم غير هذه البنت.

قلت: ولم يكتب عن أحد منكم أو عن الدور البطولي الذي تقومون به في صيانة تاريخنا؟

قال: ولا كلمة.

قلت: ليس له حق، لكن ليس معنى هذا أن كل الصحفيين على شاكلته.

تراجع حلمي قائلًا: طبعًا لا. إنما حادثةٌ كهذه تجعلنا نفقد ثقتنا في الصحافة كلها.

كنت منهكًا أشعر برائحتي لا تُطاق، وأتوق إلى حمام وفراش آدمي.

قلت: لقد جئت لأعطي الصورة الحقيقية عن العاملين في هذا المكان النائي.

لم يعقِّب أحدهما، فسألت: بالمناسبة، أي مرحلة بلغها العمل في المعبد؟

قال رفعت: المعبدان انتهى فصلهما من الجبل تقريبًا، وبدءوا يقطعون أجزاءً منهما.

سألت: هل قطعوا الواجهة؟

أجاب: لا. ما زالت كما هي. لقد بدءوا يقطعون من الخلف.

قلت: لقد أردت أن أرى الواجهة قبل قطعها.

قال: ستراها غدًا.

سألت: ومتى سينتهي نقل المعبدَين؟

قال: بعد ست سنوات.

أبديت دهشتي، فقال: العمل هنا لا يقل أهميةً عن السد العالي نفسه، بل إننا أقمنا سدًّا كاملًا أمام المعبدَين ليحميهما من ارتفاع المياه، وكل العمليات الموجودة في السد موجودة عندنا. حفر وتفجير ونقل وردم وحقن.

قلت: وتنويان البقاء طول هذه المدة؟

بدا على رفعت التفكير، بينما قال حلمي: الواجب يحتِّم علينا البقاء رغم الغربة، ورغم أننا لا نستفيد ماديًّا.

ألقيت نظرةً على ساعتي فوجدتها بلغت العاشرة.

قلت إنني متشوِّق لحديثهما لكنِّي متعب وأُريد أن أحلق ذقني وأستحم. قام رفعت على الفور معتذرًا بأنه لم يلتفت إلى ذلك. حملت حقيبتي وتبعته إلى ممرٍّ صغير به عدة

أبواب مغلقة على الجانبَين، وفتح أول باب وأضاء النور، فرأيت أمامي حجرةً ذات فراشَين جديدَين يفصل بينهما جهاز تكييف.

قال: هذه غرفة الضيوف، أمَّا أنا وحلمي فننام في آخر الممر وبجوارنا مباشرةً الحمام.

أخرجت أدوات الحلاقة وملابس داخلية نظيفة وأسرعت إلى الحمام. وجدت صعوبةً في استخدام الصابون لَمَّا تجمَّد على جسدي من عرق، وعندما عُدت إلى الحجرة شعرت بأني جائع، وفكَّرت بأنه بما أنِّي قادم لإعطاء الصورة الحقيقية عن العاملين هنا، فلا شك أني أستحق عشاءً على الأقل.

ارتديت بيجامتي وخرجت إلى الردهة فألفيتها خالية. لمحت رفعت في المطبخ المتفرِّع منها. ابتدرني قائلًا إنه يعد لي عشاءً، ثم أضاف: العشاء بسيط لأننا لم نكن مستعدِّين.

جلست إلى المائدة في الصالة، وأتيت على الطعام الذي تألَّف من الجبن الرومي ومحشي ورق العنب، وعندما أويت إلى حجرتي ألفيت رفعت قد ترك لي علبة فواكه محفوظةً وطبقًا وشوكة.

كانت العلبة مُثلَّجة، فأكلت محتوياتها بعد أن أدرت جهاز التكييف، ثم أشعلت سيجارةً واضطجعت على الفِراش مستندًا برأسي إلى الحائط المجاور له. دخَّنت حتى انتهَت السيجارة، فأغلقت النور واندسست بين طيَّات الفِراش.

كانت الأغطية نظيفةً ناعمةً والمرتبة وثيرة. تمرَّغت بينها عدة مرات وأنا أستنشق هواء الغرفة البارد، ثم غفوت.

حلمت أني مع أبي الذي أعرف أنه مات. كان يتطلَّع إلى صورة تُمثِّله شابًّا ممتلئًا في ملابس عسكرية تتألَّف من سروال أبيض منتفخ الجانبَين وسترة صفراء، وكان يحمل بندقيةً إلى كتفه، ووقف إلى جواره ضابط إنجليزي. فهمت أن الصورة الْتُقطت في السودان، ويحكي أبي شيئًا عن الصورة، ولكني متأكِّد بشكل ما أنه لا يقول الحقيقة. إنه يتحدَّث عن كيتشنر، لكني لا أُريد أن أوجِّه إليه أي سؤال، فما جدوى أن أخدش ذكرى هي كل ما يحمل معه، لكني أفهم الآن حقيقة هذه الأشياء التي تُروى. تبدَّت لي الصورة مُثبتة في مصراع دولاب كبير من المعدِن يتألَّف من ثلاثة مصاريع، وكانت هناك رسوم عِدة محفورة على المصراعَين الآخرَين صنعها الضبَّاط المصريون والإنجليز الذين عملوا في السودان، ثم يظهر الدولاب محمولًا على عربة كارو، وأفكِّر بأنه لا بد وأن أحصل على أحد المصاريع الثلاثة، وبالذات الذي يحمل صورة أبي فأنا أحق به من عمتي التي أخذتها جميعًا.

استيقظت في السابعة صباحًا، وألفيت حلمي جالسًا إلى المائدة في انتظار الإفطار. جلست إلى جواره وانضمَّ إلينا رفعت بعد قليل.

سألني رفعت عمَّا أُريد أن أفعله اليوم. قلت إني أُريد أن أرى المعبدَين ولهذا يجب أن أعثر على خليل.

قال: لا بد أن تُقابل رئيسنا أولًا. تعالَ معنا إلى المكاتب، وهناك ستلتقي بخليل لأنه يمر علينا صباح كل يوم.

أفطرنا وشربنا الشاي، ثم رافقتهما إلى مكتبهما. كان في شاليه خشبي مماثل للاستراحة، وخلفه كانت تمتد مساحة شاسعة من الأرض الصخرية، وفي نهايتها المساكن المخصَّصة للأجانب. رأيت مجموعةً من الخيام على مسافة خلف الاستراحة قدَّرت أنها تلك المخصَّصة للعُمَّال.

أخذني رفعت إلى غرفةٍ واسعة بها عدة مكاتب جلس إلى أكبرها شخصٌ أصلع يضع على عينَيه نظارة طبية ذات عدستَين سوداوَين، وقدَّمني إليه على أنه رئيسهم، فمدَّ هذا يده إليَّ وهو جالس دون أن ينطق بشيء.

استأذن رفعت في الانصراف، فجلست فوق مقعدٍ بجوار مكتب الرئيس، وانتظرت أن يتحدَّث إليَّ، لكنه انهمك في قراءة إحدى الأوراق، ولم يرفع عينَيه عنها إلا مرةً واحدةً ردَّ فيها على سؤال لأحد الموظفين بوقار شديد وحسم.

مرَّت بضع دقائق، وما لبث الرئيس أن مدَّ يده ودقَّ جرسًا مثبتًا إلى الحائط القريب، وطلب من الفَرَّاش أن يُحضر لي قهوة. جاءت القهوة فارتشفتها في صمت وأنا أتطلَّع إليه منتظرًا فرصةً للحديث، ورأيته يبسط أمامي جدولًا كبيرًا من الورق المقوَّى يحمل في أعلاه ما يُشير إلى أنه تقريرٌ يومي عن العمل، فقلت: لم أكن أتصوَّر أن لديكم تقريرًا يوميًّا عن العمل مثل السد تمامًا.

ابتسم الرئيس في شيء من الزهو وتشاغل بقراءة بيانات الجدول.

قلت بعد لحظة أن رفعت وفهمي حدَّثاني بالأمس عن الأثر السيئ الذي تركه موضوع المجلة المصوَّرة، فقال على الفور: كلنا غضبنا من الصورة التي قدَّمتها المجلة عن المهندسين المصريين.

ثم أضاف: تعرف أن رختا عندما ذهبت إلى القاهرة رفضَت أن تُقابله؟

سألت: من هي رختا؟

قال: الألمانية التي نشر صورها.

ولج الغرفة شاب هادئ على شيء من الوسامة تطلَّع حوله، ثم اتجه إليَّ، وقال إنه سمع من رفعت أني أبحث عنه.

أعطيته الخطاب فجلس على المقعد المقابل بعد أن وجَّه التحية للرئيس. قرأ الخطاب على مهل، ثم وضعه في جيبه ونهض واقفًا وهو يقول: هيا بنا.

نهضت بسرعة وودَّعت الرئيس الأصلع، ثم انطلقت خلف خليل.

قال عندما أصبحنا في الطريق: طبعًا تُريد أن ترى المعبدَين الآن؟

قلت: طبعًا.

انطلقنا في الطريق الذي صعدته بالشاحنة أمس، وقال خليل: لن يفوتك الكثير من المعبد الكبير؛ فنحن لم نمسَّ الواجهة بعد. كل ما فعلناه أننا فصلنا المعبد تمامًا عن الجبل الذي شُيِّد فيه، وبدأنا نقطع أجزاءً من سطحه.

وقفنا نتطلَّع حولنا بحثًا عن سيارة، وسألني: قل لي، ماذا تعرف عن رمسيس الثاني؟

قلت: ليس كثيرًا. ما زلت أذكر من أيام المدرسة أنه خاض معركةً كبيرةً في آسيا وانتصر فيها على الحثيين.

قال: بالعكس، لقد هزموه شر هزيمة، لكنه زعم عند عودته أنه انتصر عليهم.

قلت: أذكر أيضًا أنه عاش كثيرًا.

قال: ٩٢ عامًا.

قلت: وكان زير نساء.

قال: ٢٣ زوجةً و١٧٨ من الأولاد والبنات.

قلت: وإنه بنى «أبي سنبل» وسلسلةً كبيرةً من المعابد على طول النيل.

قال: واغتصب كثيرًا من المعابد التي بناها أسلافه، بل أزال اسم أبيه من أحد المعابد ووضع اسمه مكانه.

سألت: أوديب؟

أجاب: ربما، لكنه أزال أيضًا كل أثر لشقيقه الأكبر عندما تولَّى ونقش في أبيدوس أنه أكبر أبناء أبيه.

قلت: إنه إذن فرعون الأكاذيب.

أوقفنا سيارة جيب حملَتنا إلى الشاطئ، ومضينا على أقدامنا بين رمال السد الصغير الذي أقيم لحماية العمل من مياه السد العالي. أشرفنا بعد خطوات على الجانب الأيمن للجبل الذي حُفر فيه المعبد، وتبدَّت الفجوة الضخمة التي لمحتها بالأمس وقد تناثر في أنحاء متفرِّقة منها عددٌ من الرجال والروافع وحفارتان.

أصبحنا أخيرًا أمام المعبد. مشينا قرابة العشرين مترًا بين الرمال أسفل سيقان تمثالَين ضخمَين، ثم توقَّفنا أمام الرحبة المؤدِّية إلى مدخل المعبد، ورفعت رأسي إلى أعلى.

كان هناك مستطيل محفور في جدار الواجهة على ارتفاع أكثر من ثلاثين مترًا فوقي مباشرة، واستقرَّ في المستطيل تمثال بالحجم العادي لإنسان له وجه صقر، وعلى رأسه قرص الشمس الشهير.

أوضح لي خليل أن التمثال للإله «رع حور آختي» رب المشرق الذي شُيِّد المعبد له في الأصل قبل أن تُسيطر فكرة الألوهية على رمسيس.

حوَّلت بصري إلى التمثالَين الهائلَين اللذَين استقرَّا على يميني. كان ارتفاع الواحد منهما لا يقل عن عشرين مترًا، وتناثرت بين أقدامهما مجموعةٌ من التماثيل الصغيرة أقربها لامرأة مستديرة الوجه غليظة الشفتَين في ثوب شفَّاف، وكان هناك تناسق واضح في الصورة التي استقرَّت بها أطراف شعرها فوق قمة ثدييَها.

قال لي خليل إن المرأة هي نفرتاري أقرب زوجات رمسيس إليه، والتي بنى لها المعبد الصغير، أمَّا بقية التماثيل المتناثرة بين الأقدام فكانت لأمه وأولاده.

عُدت ببصري إلى رمسيس الذي جلس في حجمه الهائل واضعًا يدَيه فوق ركبتَيه. تراجعت بضع خطوات وصعدت ببصري فوق الساق الضخمة حتى الإطار البيضاوي الذي زيَّن الساعد أسفل الكتف، كانت هناك مجموعة من الرموز محفورةً داخله. قال خليل إنها تؤلِّف اسم الملك.

استقرَّت عيناي على الوجه الذي تدلَّت من ذقنه لحية منتظمة الأضلاع، وبرزت من جبهته أفعى منتفخة العنق متحفِّزة، وعلا رأسه التاج.

كنت أرى الوجه من مكاني بزاوية جانبية، وعبر هالة الشعر المستعار التي أحاطت به وتدلَّت على جانبَي صدره استطعت أن أتبيَّن سِمات الهدوء والاطمئنان التي رانت عليه، والابتسامة الخفيفة التي امتدَّت من العينَين إلى الشفتَين الحسيتَين.

* * *

«أنصتوا إلى كلماتي. ها هي الثروات التي تملكونها. إني أنا رمسيس الذي أخلق وأهب الحياة للأجيال ... إن أمامكم الطعام والشراب وكل ما تشتهيه الأنفس ... إني أدعم مركزكم لتقولوا إن حبكم لي هو الذي يدفعكم إلى العمل من أجلي ... طالما أنتم على قيد الحياة فإنكم تعملون من أجلي رجلًا واحدًا.»

* * *

كان التمثال الواقع إلى يساري مجرَّدًا من الرأس والصدر، وبدا مكان الذراع اليسرى في التمثال الأخير فارغًا، وظهرَت على التماثيل كلها آثار الآلاف الأربعة من الأعوام التي مرَّت على نحتها.

قال خليل: وأنت تنظر من هنا تشعر أن التماثيل تحتفظ بالنِّسب العادية لجسم الإنسان، أمَّا إذا نظرتَ للتمثال مواجهةً من فوق رافعة، فستجد الرأس كبيرًا، والأكتاف ضيقة، والأرداف صغيرة.

سألت: وماذا يعني هذا؟

قال: معناه أن الذين نحتوا هذا المعبد كانوا يعرفون الأبعاد الحقيقية لجسم الإنسان؛ أي فن المنظور.

عُدت أرفع رأسي إلى قمة الواجهة فرأيت صفًّا من القرود يمتد بعضُها فوق رءوس التماثيل. كانت القرود مقتعدةً القرفصاء تتطلَّع إلى الأمام في الاتجاه نفسه الذي تتطلَّع إليه التماثيل.

قال خليل: كان رمسيس يخشى غروب الشمس لأنها تغرب في العالم السفلي؛ لهذا صُمِّم المدخل بحيث تسقط عليه أُولى أشعتها. وكانت القرود في وضعها هذا أول مَن يلمح الشمس عند شروقها، فتُهلِّل لرؤياها حتى يطمئن الملك.

جذبني خليل من ذراعي وخطَونا إلى الأمام وهو يُشير إلى قاعدة التمثال الأول على يميني.

كان هناك شريط من الرموز في أعلى القاعدة الحجرية التي ترتفع خمسة أمتار، تبيَّنتُ بينها تلك المكوِّنة لاسم رمسيس، وتحتها كان هناك نقش يمثِّل عددًا من الرجال ركعوا على ركبهم، وظهر خطٌّ من الحبال يربط بين أعناقهم، وكانت هناك حبال أخرى معقودة على أذرعتهم، ومن آذانهم تدلَّت أقراط مستديرة كبيرة الحجم. كانت وجوههم تنطق بأنهم من أهالي النوبة.

مضينا لصق الحائط حتى نهايته، ثم ولجنا المدخل وسرنا في ردهة ضيقة، وما لبث نور الشمس أن اختفى، وحلَّ محلَّه ضوء المصابيح الكهربائية الضعيف.

أشرفنا على صالة مستطيلة الشكل انتشرت بها الدعامات المعدِنية، وزُيِّن سقفها بالنسر المجنَّح تارة، وبالنجوم تارةً أخرى، فضلًا عن اسم رمسيس. وكانت هناك أربعة تماثيل متشابهة على كلٍّ من جانبَي الصالة تمثِّل رمسيس عاقدًا يدَيه على صدره في هيئة «أزوريس» إمام الشهداء ورمز الخلود وإله الحساب. وبدت ملامحه هنا مجرَّدةً من تلك الوسامة التي تميَّز بها تمثاله الضخم في الخارج.

دُرنا حول التماثيل التي أعطت ظهرها للجدار الشمالي، ووقفنا نتأمَّل النقوش التي حفل بها هذا الجدار.

قال خليل: هذه قصة معركة قادش.

وأشار إلى لوحة ضخمة تصدَّرها رمسيس الثاني في ثلاثة أضعاف حجمه الطبيعي جالسًا فوق عرشه. ووقف خلفه حامل المظلة الذي لم تبلغ قامته ارتفاع عرش فرعون، وأمامه انحنى طابور من القادة العسكريين في حجم حامل المظلة، وفوقهم شريط من راكبي العربات التي تجرُّها الجياد ويعتليها المحاربون بأقواسهم وسهامهم.

وفي منظرٍ مجاور ظهر الجيش المصري في صفوف متوازية من المشاة يليهم نافخو المزامير النحاسية والضباط، ثم عربة رمسيس يتقدَّمها اثنان من حمَلة المظلات على أقدامهما إلى جانب أسد طليق. وفي مكان آخر بدا المعسكر المصري مكتظًّا بالجند والعربات الحربية. وفي الوسط أُقيمت خيمة كبيرة للملك حولها ثلاثة خيام أخرى أصغر منها. أمَّا أسد الملك فقد ربض ناعسًا على الأرض بعد أن قُيِّدت قدمه إلى قوس، وحُلَّت أربطة الخيل لإطعامها، ورُفعت الأحمال عن ظهور الحمير التي كانت تتمرَّغ في التراب وتنهق وتجري وترفس بأرجلها.

وكان هناك بعض عُمَّال بقيادة جندي انهمكوا في إزالة الأتربة بمكانيس صغيرة ورش المياه، وسار آخرون خلف عربات تجرُّها الثيران، وإلى جانب أكواخ استقرَّت سقوفها على أعمدة جواد أدخل رأسه في مخلاة، بينما كان أحد السياس يُعنى بأمر جوادَين، وجلس قائد عربة داخل صندوقها غارقًا في النوم.، ووقف جندي يرتوي.

قال خليل: لم يكن هؤلاء المساكين يشعرون بالخطر المحدق بهم. وأشار إلى منظر مجاور ضمَّ فرعون جالسًا على عرشه وتحت قدمَيه اثنان من أسرى الأعداء يجري جلدُهما.

أضاف: اعترف الأسيران بالمكان الذي عسكر فيه ملك الحثيين، لكن اعترافهما كان خدعة، واندفع الجيش المصري إلى الكمين الذي نُصب له.

* * *

أخذ جلالته يُطمئن ياوره، وكان جلالته لا يخشى شيئًا، وقد تركه جنده بحثًا عن الغنائم بدلًا من أن يأخذوا أماكنهم في المعركة. لم يكن هناك أمير ولا ياور ولا دليل ولا ضابط … وقد سُمعت استغاثة الملك في كل مكان حتى وصلت «طيبة»، واستجاب لها حليفٌ عظيم يفوق الملايين. فأخذ رمسيس يُطلق سهامه على ميمنته ويحصِّن ميسرته. عندئذٍ انقلبت

عربات الأعداء البالغ عددها ٢٥٠٠ عربة بخيولها، وكان الجند المفزوعون خوفًا عاجزين عن استعمال أيديهم في القتال وقد خفقت قلوبهم في صدورهم فكانوا لا يعرفون كيف يُصوِّبون ولا كيف يقبضون على السيف، وقد ألقى بهم الملك في الماء كالتماسيح، والجند الذين كانوا يزحفون على بطونهم لم تقم لهم قائمة ... وارتدُّوا مهزومين مبهورين من فرط شجاعة فرعون، وكانوا يصيحون: «لينجُ بنفسه من يستطيع ...» وجرى جلالته وراءهم مثل العُقاب.

* * *

عيَّن لي خليل مكان رمسيس على الجدار. كان يقف فوق عربته باسطًا ساعده الأيمن الذي يحمل القوس إلى نهايته، بينما انثنى الآخر خلف رأسه ممسكًا بالسهم، وشبَّ الجواد بقدمَيه الأماميتَين، وأحاط به جنود العدو من كل جانب، وظهرت جيادهم التي اخترقتها سهام الملك وقد تعثَّرت وسقطت وهوى رُكَّابها إلى الأرض، ثم ظهرت العربة الملكية في طريق العودة بعد النصر وخلفها الأسرى الذين تجلَّى الهلع على وجوههم.

قال: لقد نجا رمسيس من الموت في هذه المعركة بفضل حرسه الخاص من الجنود الذين أحاطوا به من كل جانب، لكن النقوش لا تشير إليهم بحرف، أما هو فقد صبَّ اللوم كله فيما حدث على جنوده ووصفهم بأنهم جبناء، مع أن المسئولية كلها تقع عليه.

– كيف؟

– هو الذي اتخذ قرار الحرب، وأسرع بجيشه دون أن ينتظر حتى تلحق به بقية قُوَّاته، وهو الذي صدَّق رواية الأسيرَين ولم يعبأ بأن يتحقَّق من صدقها.

* * *

«لم يكن أحدٌ منكم هناك. لم يكن معي قائد أو ضابط مركبة أو ضابطه من المشاة ولا حامل درع؛ فقد تركني مُشاتي وفرساني فريسةً أمام العدو ... لم يقف أحدٌ بجانبي ويضع يده في يدي وأنا أحارب العدو ... إن الأجانب الذين شاهدوني سوف يخلِّدون اسمي حتى في البلاد النائية التي لم يسمع بها أحد.»

* * *

استدار خليل إلى الجدار المقابل قائلًا: وهذه كذبة أخرى.

اقتربنا من الجدار بعد أن مرقنا من خلال تماثيل رمسيس المتقابلة. كانت هناك عدة مناظر تمثِّل رمسيس وهو يحرق البخور أو يتعبَّد أمام الآلهة، كما ظهر في عجلته الحربية يُطلق سهامه على إحدى القلاع التي يتساقط منها الأعداء، بينما يطلب آخرون الرحمة، ويحاول أحد الرعاة إخفاء ماشيته.

كان النقش الذي عناه خليل يمثِّل فرعون وقد وطئ بإحدى قدمَيه رأس جندي من الأعداء استلقى على الأرض بينما أمسك بذراع جندي آخر أمامه وطعنه بالرمح في صدره، وأشار خليل إلى رأس الجندي الذي ارتمى على الأرض. كان وجهه إلى أسفل بينما استقرَّت قدم رمسيس في الصندل فوقها.

قال: هل ترى الأنف واللحية؟

استطعت أن أتبيَّن لحيةً صغيرةً مُدبَّبة، وأنفًا مُحدَودبًا، وكانت اللحية نفسها والأنف واضحةً في وجه الرجل الذي تلقَّى طعنة فرعون.

قال: هذه سِمات الليبيين المميَّزة، والثابت أن رمسيس لم يلتقِ بهم في موقعة واحدة.

ابتعدنا عن الحائط وغادرنا القاعة إلى أخرى تصغرها حجمًا وتحتوي على أربعة أعمدة مربعة، عليها نقوش تمثِّل رمسيس مع الآلهة.

كان رمسيس فوق أحدها يحرق البخور في حضرة المعبودة «إيزيس»، وعلى عمود آخر كانت المعبودة «موت» تقرِّبه منها وتمد يدها اليمنى فتمسك بساعده الأيسر، بينما اختفى ساعدها الآخر خلف ظهره، وهمَّت باحتضانه.

جذبني خليل إلى نقشٍ ظهر فيه رسمان متماثلان لرمسيس يواجه أحدهما الآخر.

قال: رمسيس الملك يتعبَّد لرمسيس الإله.

انتقلنا إلى نقشٍ غير واضح التفاصيل بسبب ازدحامه بالأشكال والرموز، لكني سرعان ما تبيَّنت جسم «إيزيس» الرشيق وبجوارها ملتصقًا بها جسم رمسيس المألوف، ثم شخص آخر له تاج مرتفع يتألَّف من مخروطَين متجاورَين، وامتدَّ عضوه التناسلي أمامه على الحائط.

أوضح لي خليل أن الإله الآخر هو المختص بالنسل، وجذب انتباهي إلى أن جسم رمسيس يغطِّي مساحةً كبيرةً من النقوش، ثم قال: عندما سيطرَت على رمسيس فكرة الألوهية، كان بناء المعبد قد أوشك أن يتم، وصدرت الأوامر للرسَّامين بأن يحشروا الإله الجديد حشرًا بين الآلهة الأخرى، فكان هذا النقش وأيضًا ذاك.

كان يعني نقشًا وضع فيه الإله الجديد في مساحة ضيقة بين «آمون» و«موت». كانت الأخيرة جالسةً على مقعد خلف زوجها فجعلت واقفةً لإفساح مكان لرمسيس، وظهرت

آثار أقدامها عندما كانت تجلس، بينما أصبحت أقدامها الجديدة منخفضةً عن المستوى الذي استقرَّت عنده أقدام الآلهة الآخرين.

قال خليل ونحن نُغادر القاعة إلى غرفة صغيرة تليها: هذا هو قدس الأقداس، أهم مكان في المعبد وآخر أجزائه.

كانت هناك أربعة تماثيل متجاورة تجلس في كبرياء فوق منصة حجرية تواجه الداخل، وكان بوسع الآلهة الأربعة من مكانها هذا أن ترى مدخل المعبد الذي يبعد عنها أكثر من ستين مترًا.

كانت التماثيل التي نُحتت مباشرةً من حائط الجبل تمثِّل صاحب الدار إله المشرق واثنَين من ضيوفه هما «رع» و«بتاح»، بالإضافة إلى رمسيس الذي قرَّر أن ينضم إليهم، وكانت ثمة بقية ملحوظة من الألوان الأصلية للأحجار، وهي الأزرق والبرتقالي والأحمر والأخضر.

عدنا أدراجنا على مهل وقد بدأت أشعر بشيء من الدوار، فلم تُفلح محطة التهوية التي أُقيمت داخل المعبد في تبديد ما تراكم فيه من عفونة على مرِّ الزمن.

نقلت بصري بين الجدران والأعمدة والسقوف التي ما زال الصخر يحملها كما نحتها الفنَّانون القدامى. كانت كل نقطة في سطح الصخر محفورةً وأغلب الحفر ملوَّنًا.

سألت خليل: كم عدد الذين اشتغلوا في بناء هذا المعبد؟

أجاب: لا أقل من عشرين ألفًا عملوا ثلاثين سنةً بلا انقطاع.

– كلهم نحَّاتون؟

– أبدًا. كانت هناك أعداد غفيرة من رجال الجيش والشرطة وخدم المعابد والكهنة والأسرى والعبيد، وبين هؤلاء كلهم قرابة المائة من الحجَّارين والنحَّاتين وعدد محدود من الرسَّامين والحفَّارين بعدد أصابع اليدَين.

* * *

«كانوا يعملون في ضوء مصابيح زيت الخروع، بعضهم بالمطارق، والآخرون بالأزاميل، بينما يشتغل غيرهم بأدوات الصقل. ويقبض الرسَّامون على أقلام من الغاب في يد، والمحبرة في اليد الأخرى، ويبدءون تخطيط الكتابة الهيروغليفية التي ستُنقش على الحجر وتُلوَّن فيما بعد بالأزرق والأخضر، وفي الوقت نفسه يغمس النقَّاش فرشاته استعدادًا للتلوين، وكانوا يعملون جميعًا وهم وقوف أو جلوس على مقاعد بلا مساند. على أن أكثر العمليات

صعوبةً كانت هي النحت مباشرةً من صخور الجبل؛ فقد كان على النحَّات أن يرى خلال الصخر ما يحتوي عليه من أشكال، ولم تكن الضربة الحية تسمح بترف الخطأ والتصحيح؛ فلم يكن بوسعه أن يُعيد لصق أجزاء محطَّمة.»

* * *

قادني خليل إلى درج حديدي ضيِّقٍ أشبه بسلالم الحرائق ارتقيناه إلى سطح المعبد، ووقفنا في الشمس فوق صف القرود التي تزيَّن أعلى الواجهة. كان السطح يمتدُّ أمامنا حوالي ستين مترًا، ثم ينتهي فجأةً في الفراغ، إذ تخلَّص المعبد نهائيًّا من الجبل المنحوت فيه، وظهر سفح الجبل عموديًّا أملس كأنه جزء من طورطة هائلة قُطعت بعناية شديدة.

قال خليل إن نسف الجبل المحيط بالمعبد كان معقَّدًا للغاية ودقيقًا؛ فقد كان الخوف دائمًا أن يحدث صدع في المعبد؛ ولهذا كان الخبراء يدخلون بالديناميت إلى أعماقٍ بعيدة في بطن الجبل، وعندما تمَّ فصل المعبد تمامًا جرت عملية إزالة القشرة الرقيقة التي تبقَّت على جدرانه من آثار الجبل، ثم بدأ تقطيع أحجار المبنى بواسطة منشار كهربائي.

تطلَّع خليل إلى ساعته وقال: لا أظن أننا نستطيع زيارة المعبد الآخر الآن؛ فهناك تفجير سيجري بعد قليل.

قلت ونحن نهبط الدرج الحديدي: نذهب غدًا إذن.

أصبحنا خارج المعبد فمضينا ببطء أسفل أقدام رمسيس الضخمة، واشتدَّ بي الصداع فشكوت لخليل، واقترح أن نذهب إلى غرفته في العوامة ليعطيني مُسكِّنًا.

مضينا إلى الشاطئ وصعدنا العوَّامة المخصَّصة لموظَّفي مصلحة الآثار، وعندما بلغنا سطحها تناهى إلى سمعنا صوتُ انفجارٍ عنيف على الشاطئ. تطلَّع خليل إلى نقطةٍ على يسارنا تبعد مائتَي متر، وينتهي عندها مدى الرؤية على الشاطئ. ورأيت سحابةً من الأتربة الناجمة عن الانفجار تتجمَّع فوقها وترتفع عاليًا في السماء، ثم تتلاشى.

قال ونحن ننطلق في ممرٍّ ضيِّق تناثرت القُمرات على جانبَيه: ربما كان هذا آخر تفجير في جدار المعبد الصغير.

كانت حُجرته أنيقةً تنم عن ذوق أوروبي، وكانت هناك عدة صور على الحائط لفتاة أوروبية بالبكيني، وقد ظهرت واجهة «أبي سنبل» في مؤخِّرة إحداها.

سألته وأنا أبتلع قرصَين قدَّمهما لي: سويدية؟

ابتسم في شيء من الزهو: أجل. كانت هنا في إجازة لدى والدها الخبير، وأصبحنا صديقَين.

قلت: يبدو أنك لا تضيع وقتك هنا.

قال: السويديون عندهم حرية. الواحدة منهم تمشي وتنام معك وكل شيء بعلم زوجها.

قلت: هل تعمل كثيرات منهن هنا؟

أجاب: أبدًا. في كل «أبي سنبل» ثلاث فتيات عاملات؛ واحدة لبنانية، وأخرى فرنسية، وثالثة ألمانية هي أحلاهن.

قلت: رختا؟

قال: أجل كيف عرفت؟

حكيت له.

قال: سآخذك إليهن في المساء.

سألت: والسويديات؟

قال: الموجودات هنا زوجات فقط. وأنا أقضي معهن كل وقتي لأني أعرف اللغة.

– تعلَّمتها هنا؟

– أبدًا. في السويد. قضيت هناك عدة أشهر تعلَّمت خلالها مبادئ اللغة.

– هذا رائع. لا بد أن تحكي لي مرةً عن حياتك هناك.

– خسارة أنك لم تأتِ منذ شهر؛ كانت هنا شلة سويديات، وكنا نخرج في لنشات، وعندما نبتعد عن «أبي سنبل» كن يخلعن البكيني نفسه.

أشعلت سيجارةً وأنا أتصوَّر المنظر، وسألني ونحن نتأهَّب لمغادرة الغرفة: ألم تشعر بالجوع بعد؟

أومأت برأسي، وقال عندما هبطنا إلى الشاطئ إنه سيذهب معي لأنهم يتناولون طعامهم في النادي القريب من استراحة الشركة.

رأيت مجموعةً من الرجال الذين غطَّوا رءوسهم بقُبَّعات من الفلين وقد تجمَّعوا على مستوًى مرتفع قليلًا من الصخور.

وقال خليل: تعالَ أعرِّفك بالدكتور شوقي رئيسنا.

صعدنا إليهم وسط الصخور. كانوا يقفون إلى جوار فتحة أشبه بالكهف متحلِّقين حول رجل ضخم متقدِّم في السن أبيض شعر الرأس، وكان هذا يفحص بضعة نقوش على الصخور بدت لي أشبه بعبث الأطفال.

قال ذو الشعر الأبيض إن بعض النقوش ترمز إلى الثيران، وبعضها الآخر إلى الغزال. وانحنى فوق نقش غير واضح، ثم أضاف: آه ... هنا أسد مرتفع الذيل. هذه الرسوم من قبل التاريخ.

سرَت هَمْهمة في المجموعة، وقال خليل: معنا هنا صحفي ليسجِّل هذا الاكتشاف.

قال ذو الشعر الأبيض في استهانة: ليست لهذه الرسوم أية قيمة؛ فقد عثرنا على الآلاف منها في كل مكان. هل تعرفون لماذا ينتمي رسم الأسد هذا إلى عصر ما قبل التاريخ؟ لأن الفراعنة رسموه وذيله دائر على كِفله في الاتجاه إلى أسفل علامة الوداعة.

تحوَّل الدكتور شوقي عن الكهف وبدأ يهبط الصخور ونحن في أعقابه، وجذبني خليل من ذراعي مقتربًا منه، ثم قدَّمني إليه في زهو كما لو كان يعرض عليه اكتشافًا أثريًّا.

سألته عمَّا إذا كان قد تمَّ إنقاذ كل الآثار القديمة في النوبة، أم إن بعضها سيتعرَّض للغرق.

أجاب في حِدة: لن يغرق شيء.

قلت: ولكني سمعت أن بعض الآثار لن يمكن إنقاذها؛ ومنها كنيسة تضم صورًا للتعذيب الذي كان يتعرَّض له المسيحيون الأوائل.

قال: لقد اخترنا أهم النقوش الصخرية التي يمكن قطعها وعرضها في معارض وإهداؤها، وكل المعابد تمَّ إنقاذها.

قلت: ومعبد «جرف حسين»؟

تردَّد قليلًا، ثم قال: معبد «جرف حسين» ليست له قيمة، لكننا أخذنا منه كل ما هو مهم. اسمع، هذا المعبد يستحيل رفعه، ولم يكن من الممكن رفع كل النقوش الموجودة على الجدران، لكننا اكتفينا بالأهم وتصوير الباقي.

لحظت في صوته رنة غَضَب، ولمحت خليل يغمز لي بعينه فشكرته. تركته يواصل طريقه بين الصخور نحو الشاطئ، وتبعت خليل إلى حيث وقفَت سيارة جيب عند أول الطريق المؤدِّي إلى الجبل، وجاء في أعقابنا بعض من كانوا يقفون حول الدكتور شوقي وفي مقدِّمتهم بَدِين بارز البطن يرتدي شورتًا أصفر.

جلست بين السائق وخليل، بينما تزاحم الآخرون على المقعد الخلفي، وعندما شرع البَدِين في الصعود صاحوا فيه أنه يأخذ مكان ثلاثة، فتراجع وظلَّ خارج السيارة حتى جلسوا جميعًا، ولم يعد ثمة مكان له فاستند على حافَّة المقعد بجانبٍ من فخذه الأيمن، وتعلَّق في سقف العربة بيده اليمنى تاركًا بقية جسمه في الهواء.

كان له شارب صغير للغاية على الطراز الهتلري أضفى على وجهه السمين طابعًا غربيًّا، وكانت حدقتاه صفراوَين لهما نظرة ثابتة، ولحظت أن حافة الشورت الذي يرتديه بالية، وقدَّرت أنه في الخامسة والأربعين أو الخمسين.

تحرَّكت العربة فسمعنا صوتًا يصيح بنا أن نقف، والتفتُّ إلى الوراء فرأيت عم مهدي مساعد الريس سرور يجري محاولًا اللحاق بنا، وما لبث أن تعلَّق بالسيارة واحتلَّ منها على الناحية اليمنى المكان نفسه الذي احتلَّه ذو الشورت الأصفر على الناحية اليسرى.

سأله السائق إلى أين يريد الذهاب، فقال لاهثًا إنه يريد الصعود إلى أعلى لشراء رطل لحم من الجمعية التعاونية.

واصلت السيارة مسيرها، ومضت تصعد الطريق الصخري في صعوبة، وارتفع صوتٌ من خلفي قائلًا: لو شاءت الحكومة لكانت وفَّرت المبالغ التي أنفقت على رصف هذا الطريق.

سأل آخر: كيف؟

أجاب: كان بوسع مصلحة الآثار أن تتولَّى العملية بتكاليف لا تُذكر.

تطلَّع الجميع إلى ذي الشورت الأصفر وانفجروا ضاحكين.

أتت السيارة بعد عدة خطوات، فقال الصوت الأول: يا الله حسن الختام!

تحوَّل إليه خليل قائلًا: يجب أن نتحمَّل مصائبنا. ثم وجَّه حديثه لذي الشورت الأصفر في صوت جاد: لا تفقد ثقتك في العالم. المؤكَّد أنهم سيخترعون في المستقبل العربة المتينة التي تحملك دون أن تشكو.

قال آخر: لكنه على ضخامته يتمتَّع برشاقة الغزلان. انظر كيف يجلس بنصف فخذ.

قال الصوت الأول على الفور: لن يحسبوا قوة السيارة الجديدة بالحصان. سيجعلونها قوة عشرين فخذ ومائة وألف، وهلم جرًّا.

لم ينبِس ذو الشورت الأصفر بشيء، وظلَّ يتطلَّع أمامه بنظرة ثابتة كأنه ليس معنا، وعندما أصبحنا على مسافة ثلاثين مترًا من استراحة الشركة انفجر أحد إطارات السيارة، وغادرنا السيارة فاكتشفنا أن الإطار الذي انفجر كان في الناحية التي اعتمد عليها ذو الشورت الأصفر.

قال عم مهدي ضاحكًا: الحمد الله أنا مش السبب. أنا كنت في الناحية التانية.

مشينا حتى الاستراحة، وسألت عم مهدي عن موعد قيام الصندل في رحلة العودة، فقال: بعد أسبوع.

اتفقت مع خليل على أن يمر بعد الظهر، ثم ولجت الاستراحة وتابعوا هم المسير. تناولت طعام الغداء بمفردي من يد عجوز نوبي، وأويت إلى غرفتي فاستغرقت في نوم عميق أفقت منه وقد أوشكت الشمس على الغروب.

خرجت إلى الردهة الخارجية فوجدتها خالية، ولمحت العجوز النوبي في المطبخ فطلبت منه أن يُعِد لي شايًا. جلست في الردهة أتصفَّح مجموعةً من صحف الأيام الماضية وأنا أرتشف الشاي. عثرت على عددٍ من المجلة التي يعمل بها سعيد، فقرأت التاريخ وقلَّبت صفحاتها بسرعة دون أن أعثر على مقال له.

وصل خليل بعد أن ساد الظلام. غادرنا الاستراحة، ثم درنا من حولها ومضينا مسافةً في أرض فضاء، وبعد قليل أصبحنا نسير بين فيلات صغيرة أشبه بشاليهات المصايف. قال خليل: إنها مُخصَّصة للأجانب.

لم أستطِع أن أتبيَّن شيئًا من خلال نوافذ الشاليهات التي لم تكن تعلو عن الأرض كثيرًا؛ فقد كان أغلبها مظلمًا أو مسدل الستائر.

تذكَّرت رد فعل رفعت أمس عندما ذكرت اسم خليل أمامه، فسألته عمَّا إذا كان هناك شيء بينهما. ظلَّ صامتًا بعض الوقت، ثم قال: تشاجرنا مرةً بسبب فتاة سويدية، ثم سَوَّينا الأمر.

قلت: على فكرة. هل تأخذ مرتَّبًا جيدًا هنا؟

قال: طبعًا. كلنا هنا نأخذ مرتباتنا بزيادة مائة وخمسين في المائة.

سألت: وموظفو الشركة أيضًا مثل رفعت وحلمي؟

أجاب: وهم أيضًا.

مررنا بمنزل أُسدلت على نافذته المضاءة ستارة حمراء، ثم عبرنا شارعًا ومضينا وسط مجموعة أخرى من الشاليهات حتى وصلنا الشاليه المخصَّص للبنات.

دقَّ خليل جرس الباب الخارجي مسافةً دون نتيجة. درنا حول الشاليه فرأينا إحدى النوافذ مضاءةً وقد أُسدلت ستارتها، وقال خليل إنها غرفة الفتاة الفرنسية، وإنها ليست جميلة، لكنها مُتعلِّقة بملاحظٍ إيطالي لا تدعه يفارقها.

عدنا إلى الشارع واقترح خليل أن نذهب إلى النادي الإفرنجي لعلنا نعثر فيه على الفتاتَين الأخريَين، وألفينا النادي مغلقًا، ورأينا من خلال نوافذه عجوزًا إيطاليةً منهمكةً في إعداد مجموعة كبيرة من الستائر.

عرض عليَّ خليل أن نزور صديقًا له هو طبيب المستشفى فوافقت. كان المستشفى بجوار الاستراحة الأخرى المخصَّصة لموظَّفي مصلحة الآثار وقد أُلحق به مسكن الطبيب، ووجدنا هذا مُضاءً وبابه مفتوحًا على مصراعَيه. اجتزنا صالةً خاويةً إلا من ثلاجة، وولجنا غرفةً تسودها الفوضى جلس في وسطها إلى مائدة صغيرة شاب أصلع قصير القامة محتقن الوجه وأمامه زجاجة من الخمر.

قام الشاب مُرحِّبًا بنا، وأصرَّ على أن أجلس فوق المقعد الوحيد بالغرفة، بينما استقرَّ خليل على الفِراش الذي تناثرت فوقه الملابس وتدلَّت أغطيته على الأرض.

غادر الطبيب الغرفة وعاد يحمل كوبَين من الزجاج وإناءً به قطع الثلج، ووضع قطعتَين من الثلج في كل كوب أضاف إليهما مقدارًا من سائل الزبيب الذي احتوت عليه الزجاجة، ثم أضاف قليلًا من الماء فاتخذ السائلُ على الفور لون اللبن.

قدَّم إلى كلٍّ منا كوبًا وحمل كوبه فانضمَّ إلى خليل على الفراش، ورآني أتأمَّل عددًا وفيرًا من زجاجات الخمر الفارغة صُفَّت إلى جوار الحائط، فقال: ليس هنا مرضى ولا نساء، ولم يبقَّ غير القمار والخمر، وأنا لا أحب القمار.

قلت: فهمت أن خليلًا احتكر لعبة النساء.

ضحك وقال: هو الذي أفهمك هذا؟ ضحك عليك. خليل لا همَّ له إلا تحويش راتبه.

قال خليل: في عُرفك من لا يشرب كل ليلة مُتَّهم بأنه يحوِّش نقوده.

قلت: ألم يبلغكم الوباء الذي انتشر في السد في الأسبوعَين الماضيَين؟

قال: أبدًا. المستوى الصحي هنا مرتفع. تعرف لماذا؟

قلت: لماذا؟

قال: هنا عدد كبير من الأوروبيين، وهؤلاء صحتهم ممتازة لأنهم تربَّوا على الزبدة.

قدَّمت إليه سيجارةً وأشعلت واحدة. استطرد بعد أن جذب عدة أنفاس عميقة: أقول لك الحق ... أنا لم أُخلق للشراب ولا للطب ... أنا خُلقت للسياسة.

قلت: وماذا يمنعك من الاشتغال بها؟

تطلَّع إليَّ باستغراب، ثم ضحك: كيف؟ أليست أمور البلد في أيدٍ أمينة ولا مجال لغيرها؟

سألت: أليس هنا اتحاد اشتراكي؟

قال: طبعًا، توجد لجنة رئيسها هو المقاول الذي يأتي بالأنفار.

وتناول كأسه وهو يقول: نشرب في صحة المقاولين ... حُكَّام المستقبل.

كان مذاق الزبيب المثلَّج لطيفًا فأفرغت كأسي كله.

قال خليل: رأيي أن السياسة نصب.

تجاهله الطبيب ومال برأسه ناحيتي: عندما كنت في الجامعة كانت هموم البلد تعنينا أكثر من الآن. كنا نفكِّر بكل شيء ونتابع كل شيء، ونحلم بيوم التخرُّج لنذهب إلى الريف ونُداوي الفلَّاحين الذين يعيشون كالحيوانات.

وضع كأسه على المائدة، ثم أضاف: أنا هنا الآن لأني أُريد أن أجمع شيئًا من المال أفتح به عيادةً خاصة؛ فهذه هي اللغة الوحيدة التي تتكلَّمها البلد كلها الآن.

* * *

لحظات الغروب على العشب الأخضر تحت الساعة العالية التي يردِّد الراديو دقَّاتها الرصينة طول اليوم. رعشة القلب لابتسامة فتاة. الكتب التي تظل مغلقة الصفحات حتى ليلة الامتحان، وفي البداية كان هناك من يحملون على الأعناق وتشق أيديهم الهواء من اليمين إلى اليسار مع الشعارات المنغَّمة؛ فما زالت الجدران تُسمِع صدى أول هتاف بسقوط الملك، عندما كانت الصحف تتخاطفها الأيدي من الباعة. رعاياك يا مولاي. الثورة الثورة الثورة. ولم تنقطع حلقات النقاش وجرائد الحائط، لكن سيارات الشرطة وصلت إلى أبواب المدرَّجات، وساد الساحة هدوء الموت الأصفر.

* * *

قال لي الطبيب: يُهيَّأ لي أني رأيتك من قبل.

قلت: أين؟

قال: ربما أيام العدوان الثلاثي، في معسكرات الجامعة ... كنت هناك؟

قلت: أجل. بقينا ثلاثة أيام نُطالب بأن يُعطونا أسلحةً دون جدوى.

قال: وبعد ذلك؟

قلت: لا شيء. انضممنا إلى فرقة للمقاومة الشعبية في الحي.

* * *

وصدَّقنا حقًّا أننا سنقاتل. وعلى باب المدرسة القديمة وقف شاب يحمل بندقيةً يسألك عن كلمة السر بصوت متوتِّر، وفي الداخل جلس الضابط السابق في ملابسه العسكرية يأكل

الكباب، وحوله الحواريون من أعضاء الهيئة التي تضم كل الشعب، وتولَّى التدريب عريف قال إنه من رجال الثورة، ثم أعطونا البنادق الجديدة التي لم تلمسها أصبع من قبل، وطُفنا بشوارع الحي يتقدَّمنا ضابط آخر أصبح فيما بعدُ من نجوم السينما، وتجمَّع السكَّان في النوافذ والشرفات يُصفِّقون لنا، وزغردت النسوة، بعد ذلك تحدَّثت الصحف عن الانتصار الشعبي الرائع.

* * *

ملأ الطبيب كئوسنا من جديد وهو يقول: فكِّروا لنا في نخب.

قال خليل: نشرب نخب أنفسنا.

قال الطبيب: نُريد شيئًا آخر أكثر أهمية؛ رمسيس الثاني مثلًا.

قلت: أو الفنانين الذين نحتوا تماثيله.

قال الطبيب: ولكننا لا نعرفهم. ما رأي الآثار؟

قال خليل: ليست عندي أية فكرة.

* * *

«أنا العليم بسر الكلمات المقدسة ... أنا سيد الأسرار ... أعرف تمامًا الأوضاع الدقيقة لتمثال الرجل ووقفة المرأة ... وكيف يتهيَّأ الرجل ليطعن بالحربة. أنا عليم بنظرة العين الخاطفة، بالدهشة الطارئة التي تعتري الشخص الذي يستيقظ من نومه، بحركة ذراع رامي الرمح وهو يرفع ذراعه بمدى ميل جسم إنسان يجري. أعرف سر تركيبات لا تقوى النيران على حرقها ... ولا تستطيع المياه إذابتها.»

* * *

سألني الطبيب: لماذا لا يعجبك رمسيس الثاني؟ إنه أكثر شخصية تتمثَّل فيها عبرة التاريخ.

تساءلت: كيف؟

قال: ألم يحكِ لك خليل عن تاريخه؟ سبعون سنة من السلطة؛ أي الكذب والفجور والقتل والادعاء والغرور والاستعباد، وها هو ما زال يعيش حتى أيامنا، ونحن الآن نعمل ليل نهار ليخلد اسمه، تمامًا كما أراد.

قلت: ولماذا لا نقول إننا نخلِّد الفنان المجهول الذي نحت هذه التماثيل؟

انفجر ضاحكًا: الفنان المجهول، كالجندي المجهول. الضحية التي ينساها الإنسان بسرعة البرق.

قال خليل: نشرب نُخب الحكيم الفرعوني الذي قال: لا أحد سيأخذ بضائعه معه، ولا أحد ذهب سيعود ثانية.

قال الطبيب: واحد آخر مجهول. لا. أنا مُصِر على رمسيس الثاني.

قلت: نشرب.

شربنا في صحة رمسيس الثاني، ووقف خليل قائلًا إن الوقت متأخِّر ولا بد له من الذهاب إلى عوَّامته، ونهضت بدوري.

تمسَّك الطبيب ببقائنا وقال إنه ما زالت هناك عدة أنخاب أُخرى لنفرتاري، وبقية الزوجات الخمس اللاتي كن مُفضَّلات من بين حريم رمسيس، لكن خليل أصرَّ على الانصراف قائلًا إنه مُضطر لأن يمشي حتى العوَّامة.

تحوَّل إليَّ الطبيب: إذن تبقى أنت لنُفرغ الزجاجة معًا.

قلت إني أُفضِّل الانصراف لأستيقظ مبكِّرًا.

سألني: إلى متى ستبقى معنا؟

قلت: الصندل الذي جئت عليه سيعود بعد أسبوع.

قال: إذن سنلتقي مرةً أخرى.

انطلقنا إلى الخارج، ورافقت خليل مرحلةً من الطريق، ثم ودَّعته بعد أن تواعدنا على اللقاء في الصباح. عُدت أدراجي إلى الاستراحة، وما إن بلغتها حتى تجاوزتها وواصلت السير إلى الخِيَم.

كانت أغلب الخيم مظلمةً تكشف فُتحاتها عن الرجال الذين رقدوا على الأرض وغطوا في النوم، وعثرت على واحدة مضاءة تَحلَّق فيها عددٌ من الرجال حول مصباحٍ زيتي. سألتهم عن جرجس فأشاروا إلى خيمة مجاورة.

ألفيت الخيمة مظلمة، ووقفت في مدخلها أتأمَّل شخصًا ممدِّدًا بداخلها يَصدر عنه غطيط منتظم.

ناديت على جرجس بصوت مرتفع عدة مرات، ثم ردَّدت اسم ذهني، لكن النائم لم يتحرَّك، فاستدرت وكرَّرت عائدًا إلى الاستراحة.

* * *

الفصل الأول

عندما ولجت الردهة في الصباح فوجئت بفهمي يُحيِّيني قائلًا: صباح الخير يا بيه. الفطار جاهز.

تمتمت ردًّا مبهمًا على تحيته وجلست إلى المائدة. جعلت أرقبه وهو يضع الفول والجبن والمربَّى، ثم يجلب الماء الساخن والشاي. اختلست نظرةً إلى وجهه فرأيته جامدًا لا يُعبِّر عن شيء ولا يحمل سوى تلك النظرة المؤدَّبة المعهودة في مطاعم الدرجة الأولى، واحترت في السبب الذي جعله يُخفي عني مهنته الحقيقية.

سألته عن أحمد بعد لحظة فأجاب: بخير.

قلت: هو فين؟

قال: في الورشة.

لعل أحمد ميكانيكي حقًّا كما قال.

انضمَّ إليَّ رفعت وأقبل على الطعام بحماسة. سألني عمَّا فعلت بالأمس فحكيت له، وظهر عليه الاستياء عندما سمع بذهابنا إلى مسكن البنات.

قال: ولماذا أخذك إليهن؟

قلت: أنا الذي طلبت. فكَّرت في عمل حديث معهن. ثلاث بنات يعملن في «أبي سنبل». هذا موضوع جذَّاب.

قال: هو يريد أن يستغلَّك ليتقرب إليهن.

لم أعلِّق بشيء ولزم هو الصمت.

قلت بعد لحظة إني ذاهب إلى المعبد الصغير، فسألني إن كانت لدي سيارة، وعندما علم أني أنوي الذهاب إلى الشاطئ سيرًا على الأقدام عرض أن يضعني في سيارة تابعة للشركة ستذهب إلى الشاطئ بعد قليل.

أقلَّتني السيارة حتى عوَّامة خليل، وكان ينتظرني أمام مدخلها، فانطلقنا على أقدامنا بحِذاء الشاطئ. مررنا من أسفل أقدام رمسيس الذي يتصدَّر واجهة المعبد الكبير، وواصلنا السير مائتَي متر أخرى حتى بلغنا المعبد الآخر.

كانت أطراف أعمدة التخريم ترتفع فوق الجبل الذي يحتضن المعبد، ولمحت عاملًا انحنى بكل جسده خلف مثقاب كهربائي كان يرتجف بشدة وهو يزحف داخل الصخر في بطء.

لاحظت أن واجهة المعبد أكثر اتساقًا من واجهة المعبد الكبير، وربما كان السبب هو صِغر كلٍّ من حجمها وحجم التماثيل المكوِّنة لها. كانت مُزيَّنةً بستة تماثيل؛ منها أربعة لرمسيس الثاني تمثِّله واقفًا عاري الصدر وقد التفَّ الإزار الشهير حول وسطه وفخذَيه، وبدا وجهه أقرب إلى صورته في التماثيل الداخلية للمعبد الكبير، لكن الابتسامة ذاتها كانت هناك.

كان التمثالان الآخران لنفرتاري في ثوب شفَّاف كشف عن ثديَيها، بينما أحاط شعرها بوجهها وتدلَّى على كتفَيها، واستقرَّ فوق رأسها تاج على هيئة قرص الشمس بين ريشتَين، وحول سيقان التماثيل الضخمة وقف أطفال صغار في ارتفاع الركبة.

علَّق خليل على تماثيل الواجهة ونحن نجتاز المدخل الذي انتصب رمسيس على جانبَيه: إنها أول مرة يسمح فيها رمسيس لامرأة أن تقف إلى جواره في نفس حجمه، ويقال إنها كانت أحبَّ زوجاته إليه، ولعلها كانت ذات نفوذ سياسي.

ولجنا قاعةً تحف بها ثلاثة أعمدة على كل جانب، وكانت قمة كلِّ عمود يزيِّنها في الناحية التي تُطل على الصالة رأس امرأة بأذنَي بقرة وشعر غزير انسدل في دوائر فوق كتفَيها. ظننت الرأس لنفرتاري، لكن خليل قال إنها للإلهة «حتحور» التي خُصِّص المعبد لعبادتها.

كانت جوانب الأعمدة تمثِّل الملك والملكة بصحبة الآلهة المختلفة، وعلى الجدار الشرقي ظهر رمسيس على يمين المدخل ويساره يضرب أعداءه أمام الإله «رع حور آختي» تارة، وأمام «آمون رع» تارةً أخرى.

وكان هناك منظر يمثِّل اثنتَين من الآلهة تضعان على رأس نفرتاري التي توسَّطتهما في ثوبٍ شفاف التاج المؤلَّف من قرص الشمس بين ريشتَين، وبدا وجه الملكة رائع الجمال بأنف مستقيم، وكانت هناك بقية من الألوان القديمة التي غطَّته في يومٍ من الأيام ميَّزتُ بينها الذهبي والأحمر والأسود والكحلي.

اكتشفت أن العديد من السياح الأجانب الذين زاروا المعبد قد سجَّلوا أسماءهم في أماكن مختلفة من الجدران ابتغاءً للخلود ولا ريب، فغطَّوا بذلك أجزاء من النقوش الأصلية.

غادرنا القاعة من باب زُيِّنت جبهته بقرص الشمس تبرز منه حيتان وينتشر من جانبَيه جناحا صقر، واجتزنا صالةً عرضيةً إلى المكان المعهود في أقصى كل معبد: قدس الأقداس.

كانت جدران هذه الغرفة محلَّاةً بمناظر تمثِّل رمسيس يحرق البخور في حضرة المعبود وزوجته إلى جانبه تهز في يدٍ آلةً موسيقية، وتحمل في الأخرى بعضًا من زهر اللوتس. وظهرت خطوط فخذَيها واضحةً تحت الثوب الشفاف.

استقرَّ تمثال الإلهة «حتحور» في مركز الصدارة من قدس الأقداس، وبدت في صورة امرأة فاتنة دقيقة الجسم يرتفع فوق رأسها قرنا بقرة يحيطان بقرص الشمس.

استفسرت من خليل عن تخصُّص «حتحور» بين الآلهة فأجاب: لم أقُل لك؟ إنها إلهة المتعة الجنسية.

قلت: لا أستطيع أن أتصوَّر هؤلاء الناس يمارسون الغرام.

قال ونحن نتجه إلى الخارج: أنت مخطئ؛ فقد كان بينهم عُشَّاق مشهورون، وعلى ما أذكر توجد بردية تحدَّث فيها صاحبها عن سواد شعر حبيبته وحمرة شفتَيها التي طغت على حمرة البلح الناضج، رغم أنهم لم يكونوا يعرفون التقبيل بالشفاه.

– كيف كان التقبيل لديهم إذن؟

قال: كانوا يكتفون بحك الأنف.

أصبحنا في الخارج وسقطت علينا أشعة الشمس حارةً ملتهبة. أسرعت أضع قُبعتي على رأسي واستأنف خليل حديثه ونحن نسير على الشاطئ: فيما عدا هذا كانوا مثلنا تمامًا؛ فهناك حكايةٌ عن زوجة كاهن من كهنة «رع» كانت تخونه وأنجبت من عشيقها ثلاثة أولاد، وعندما اكتشف زوجها الحقيقة قالت له إن الإله «رع» هو نفسه والد الأطفال الثلاثة. وحكاية أخرى عن واحدة أغوت شقيق زوجها لكنه رفض الاستسلام لها، فانتقمت منه بأن زعمت لزوجها أنه راودها عن نفسها.

كُنا قد بلغنا منتصف المسافة بين المعبدَين، وتحوَّلت أتأمَّل الصخور التي تصل بينهما. كانت قمتها تبدو متجهِّمةً غير متناسقة، وفي عدد من الأماكن على السفح تجلَّى فِعل الرياح على مرِّ الأعوام في خطوط طولية متعاقبة على هيئة طبقات.

سألت خليل: بأي المعبدَين كان الناس يبدءون زيارتهم؟

أجاب: كان لكل معبد عيده الخاص الذي يأتيه فيه الناس من الضفة الأخرى.

* * *

«وكانوا يحتشدون من البقاع كافةً لهذا الغرض ليتقرَّبوا إلى المعبود ويسألوه العون في مشاكلهم. ويقبل الملك فوق محفة تتألَّف من مقعد كبير ذي مساند جانبية، وعلى قفاه يتدلَّى شَعر مستعار يحوطه إكليل معقود من الخلف يلتفُّ فوقه ثعبان من الذهب انتفخ عنقه فانتصب وسط الجبين. ويتربَّع تاج الوجهَين فوق رأسه الذي تحميه من أشعة الشمس مظلات من ريش النعام يحملها أبناء الملك وكبار رجال الدولة. وعند باب المعبد ينتظر الكهنة عُراة الصدور حليقي شعر الرأس واللحية والشارب. هؤلاء وحدهم الذين يتمتَّعون بحق دخول قدس الأقداس ورؤية الآلهة. ويدخل الملك وصحبه إلى حضرة المعبود، بينما ينتظر أفراد الشعب في الخارج؛ النسوة تحرِّك الصاجات، والمغنيات ينشدن، والرجال يعزفون على الناي، والآخرون يرقصون ويصفِّقون بأيديهم. وعندما ينتهي الاحتفال الديني ويخرج الملك إلى الموكب المقدس الذي ينتظره في النيل يبدأ العيد الحقيقي، فيستسلم الآلاف للملذَّات، ويتناولون كميات وفيرةً من النبيذ.»

* * *

صحبت خليل إلى مكتبه بالعوَّامة بعد أن وعدني بفنجان من القهوة. جلست إلى جوار المكتب في غرفة واسعة صُفَّت فيها عدة مكاتب بحذاء جدرانها، وتركني خليل بعض الوقت ليتبادل الحديث مع أوروبي مَرِح لوَّحت الشمس وجهه كان يجلس إلى المكتب المقابل.

أحضر فرَّاش نوبي فنجان القهوة وكوبًا من الماء المثلَّج. أشعلت سيجارة، وما لبث خليل أن انضمَّ إليَّ.

قال وهو يجلس إلى مكتبه: خبير سويدي. كان يقيم هو وزوجته تحت، وكنت أراهما كل ليلة من الشاطئ قبل النوم وهي عارية تمامًا.

تطلَّعت إليه متسائلًا، فاستطرد باسمًا: السويديون ينامون دائمًا عرايا. أتعرف ماذا كان يحدث كل ليلة؟ كان الرجل يقبِّل زوجته عدة دقائق ثم يتركها وينصرف إلى غرفته.

سألت: دون أن ينام معها؟

قال: الرجل السويدي لا ينام مع زوجته إلا مرةً واحدة في الشهر ليحافظ على طاقته في العمل.

– وماذا تفعل النساء؟

– لك أن تتخيل. في أول أسبوع لي في السويد كنت أقيم عند رجل له بنتان، وفي الليل طرقت بابي إحداهما، وبعد ربع ساعة دخلت الثانية عارية.

أشعلت سيجارةً ثانية وأنا أقول: وقضيتم الليلة ثلاثتكم معًا؟

ضحك: طبعًا.

– والأب؟

– لا شيء. البنت السويدية تأخذك في حجرتها بعلم أبيها وبرضاه.

قلت وأنا أنهض واقفًا وأتناول قبعتي: في المرة القادمة عندما تذهب إلى هناك يجب أن تأخذني معك.

قال: إلى أين أنت ذاهب الآن؟

قلت: أريد أن أشتري سيجارًا وصابونًا.

قال: عليك إذن أن تذهب إلى المستعمرة. انتظر حتى أجد لك سيارة.

غادرنا العوامة إلى الشاطئ، وكانت هناك سيارة جيب بلا سائق، فوقفنا في ظلها ننتظر.

قال: لو رأيت عمالنا الصعايدة عندما كانت شلة السويديات هنا لمت من الضحك. كانت السويديات يستلقين خارج الشاليهات بالبكيني، ويقف الصعايدة الذين لم يروا شيئًا مثل هذا من قبل ... يقفون أمامهن ساعات بلا حراك أو عمل.

قلت: سنذهب بعد الظهر إلى منزل البنات؟

قال: لا مانع. سأمر عليك.

تركني ومضى إلى العوامة بحثًا عن السائق، ولمحت أمامها ذا الشورت الكاكي والقبعة الفلين يتبادل الحديث مع شاب صغير وقد أمسك بذراعه. كان يشير بإصبعه ناحية المعبد والشاب يهز رأسه نفيًا، ثم صعد الشاب إلى العوامة بينما انطلق البدين بمفرده، وظهر خليل وبرفقته السائق.

أقلَّني السائق إلى مستعمرة الأجانب وأنزلني أمام الجمعية التعاونية، وألفيت في الداخل عددًا كبيرًا من المصريين أغلبهم من العُمَّال وبينهم بعض الأجانب.

تعلَّقَت عيناي بفتاة أجنبية رائعة البشرة. كان جسدها نحيفًا وشعرها أشقر قصيرًا، وبدت شفتاها رقيقتَين للغاية، وعلا بشرة ساعدَيها وساقَيها زغَب أشقر خفيف، وكانت حركاتها تنم عن اعتداد شديد بالنفس.

كانت تُحاول التحدُّث إلى البائع الذي انهمك في شجار حادٍّ مع أحد العُمَّال، وفجأةً انفجرَت فيه صائحة بالإنجليزية: أنا أكلِّمك يا حيوان ويجب أن ترد عليَّ!

أجاب لها البائع طلباتها وانصرفت، واشتريت أنا سجائر وصابونًا، ثم انطلقت في الطريق المؤدِّي إلى الاستراحة وأنا أتطلَّع حولي يمنةً ويسرة، لكني لم ألمح شيئًا من تلك المخلوقات التي زعم خليل أنها تظهر للرائي في البكيني.

وضعت السجائر والصابون في حجرتي وعُدت إلى الخارج. مشيت حتى الخيم، وبحثت عن جرجس، فقال لي أحد العُمَّال إنه في الورشة التي تقع خلف الخيم.

وجدت جرجس يُعاون أحمد في تشحيم محرِّك سيارة، وكان الاثنان يرتديان سروالَين إفرنجيَّين. رحَّبا بي ومضى أحمد ليعد لنا الشاي، فانتهزت الفرصة لأسأل جرجس عن ذهني.

قال في صوت خافت: سافر امبارح.

قلت: سافر خلاص؟

قال: تلاجيه الوجت عدَّا الحدود.

قلت: كنت عاوز أشوفه قبل ما يسافر.

قال: إحنا استنظرناك امبارح بالليل.

قلت: أنا جيت لكن ما لقيتش حد.

قال: لازم جيت متأخر. كان لازم تجوم بدري.

قلت: إنت رحت معاه؟

قال: وصَّلته حبة.

عاد أحمد بالشاي وقدَّمت إليهما السجائر.

قال أحمد: عرفت انك شفت فهمي النهارده الصبح.

قلت: أيوة.

انتهينا من الشاي فغادرتهما واعدًا بزيارتهما مرةً أخرى، وعدت إلى الاستراحة فأخذت حمَّامًا، ثم تناولت طعام الغداء بمفردي، وكان فهمي هو الذي قدَّمه إلي.

غفوت ساعةً بعد الغداء، وحلمت أني على ظهر مركب أمام «وادي السبوع». كان الشاطئ حافلًا بتماثيل ملوَّنة زاهية لإناث جميلات، وعلى ظهر المركب استلقت عدة نساء قبيحات عرضن أجزاءً من أجسادهن للشمس. كانت إحداهن تشاركني الغطاء، وشعرت بها تداعب قدمي بأصبع قدمها فداعبتها بدوري، ثم رأيت ثديًا عاريًا لواحدة أخرى فحوَّلت وجهي أدبًا، وكنت أعرف أنهن يتقرَّبن إليَّ كي أنشر صورهن في الصحيفة.

أخذت حمَّامًا عندما استيقظت، ولم أجد أحدًا في الصالة أو المطبخ، فأعددت لنفسي كوبًا من الشاي حملته إلى الخارج وجلست أحتسيه على درج الاستراحة.

كانت حرارة الشمس ما تزال قوية، لكن مساحة الظل كانت كبيرة، وقدَّرت أن الشمس ستختفي بعد ساعة.

أعادتني سخونة الجو إلى الداخل. ذهبت إلى حجرتي وفتحت كلًّا من مصراعَي النافذة الخشبي والزجاجي. تركت المصراع الخشبي مفتوحًا وأعدت إغلاق الزجاجي، ومرَّت من أمامي شاحنة تمدَّد ثلاثة من الصعايدة فوق ظهرها وراحوا في سبات عميق.

وقفت خلف النافذة أدخِّن وأتأمَّل الطريق، بينما جهاز التكييف يطنُّ في أذني. لم يكن هناك أثر لأحد من الأحياء فيما حولي، ولم أرَ أية مبانٍ على الناحية المقابلة، وكانت الرمال والصخور تُغطِّيانها وتتدرَّجان ارتفاعًا حتى مدى البصر.

وأدركت أني بلغت نهاية رحلتي.

* * *

قلت لخليل ونحن نبتعد عن الاستراحة في اتجاه بيوت الأجانب: ألَا تعرف طريقةً للسفر؟ الصندل لا يقوم قبل أسبوع، وأنا أريد العودة إلى القاهرة بأسرع وقت.

قال: الباخرة مسافرة غدًا. لماذا لم تقل لي قبل الآن؟

سألت: ليس هناك مكان؟

قال: غالبًا، لكني سأدبِّر لك واحدًا من تحت الأرض.

وضع يده في جيب قميصه الأعلى، وأخرج صورةً فوتوغرافيةً قدَّمها لي وهو يقول: هذه صورتي فربما احتجتَها إذا كنت ستكتب شيئًا.

أخذتها منه باهتمام قائلًا: كنت سأطلبها منك. طبعًا سأحتاجها.

بلغنا منزل البنات وقرعنا الجرس دون أن يُجيبنا أحدٌ كما حدث بالأمس.

قال: آه. نسيت أن فيلمًا يُعرض اليوم. لعلهم هناك الآن. تُحب أن تذهب؟

قلت: إني لا أُمانع.

انطلقنا إلى النادي الإفرنجي الذي يُعرض به الفيلم، وكان مُلوَّنًا يقوم ببطولته جيمس ماسون في دور الأمير الشجاع سير براك. ألفينا العرض قد بدأ، فأخذنا مقاعدنا في الظلام، وعندما انتهى العرض وأُضيئت الأنوار تحوَّلت أتأمَّل جمهور المتفرِّجين. كان معظمهم من

الأجانب، وبينهم عددٌ ضئيل من النساء، وأشار خليل إلى فتاة طويلة ممشوقة القوام وقال: هذه هي ريختا.

كانت ريختا جديرةً حقًّا بالضجة التي أُثيرت حولها، ورأيتها تغادر الصالة معتمدةً على ذراع شاب رياضي في مثل قامتها ذي ملامح إيطالية. سألني خليل إذا كنت أُريد أن أتحدَّث إليها أو إلى غيرها، فأجبت بأني فقدت اهتمامي وأني أُريد أن أتمشَّى في الهواء الطلق.

مضينا في اتجاه الاستراحة، ومررنا بحانوت حلاق، ثم شاليه جلس في مدخله المُضاء رجل وامرأة متقابلَين، واقتعدَت الأرضَ بجوارهما امرأة ترتدي شورتًا. كانت قد مدَّت ساقَيها العاريتَين أمامها، فانعكس الضوء عليهما، وقال خليل إنهم إيطاليون.

سألته إن كان قد جرَّب الإيطاليات، فأجاب: كلا. اليونانيات فقط.

– هل توجد هنا يونانيات؟

– أبدًا. هذا كان في الإسكندرية.

قلت: احكِ لي.

قال: كنا في الصيف وأخذت شقةً في عمارة مزدحمة، ثم اكتشفت أن هناك يونانيةً رائعة الجمال تسكن تحتي بمفردها، والتقينا عدة مرات في المصعد فتبادلنا التحية بالفرنسية، وفي يوم عُدت بالليل مبكِّرًا وشربت زجاجة نبيذ «تليماك»، ثم لبست أشيك ملابسي ونزلت إليها. ضربت الجرس وكانت الساعة عشرة، ففتحت لي الباب. كانت ترتدي قميص نوم شفافًا من النايلون.

قاطعتُه: وفتحَت الباب هكذا دون أن ترتدي روبًا أو تغطِّي نفسها؟

قال: هذا ما حدث. اعتذرتُ عن دقِّ الجرس وقلت لها إني فقدت مفتاحي وكنت في حفلة وإني متعب. سألتها إن كان بوسعي أن أستريح عندها قليلًا، فقالت تفضَّل. جلست في الصالة وسألتني إذا كنت أُحب أن أشرب شايًا أو قهوة، فقلت إني لا أريد شيئًا، وجلسَت أمامي فقمت وجلست إلى جوارها. أخذت أتأمَّل ساقَيها وكانتا أروع ساقَين رأيتهما في حياتي، وقالت لي إنها رأت سيارتي وإنها تُريد أن أُعلِّمها القيادة …

قاطعته مرةً أخرى: لم تقل لي إن عندك سيارة.

قال: هذه كانت سيارة أحد أصدقائي.

قلت: وبعدين؟

قال: سألتها عن زوجها فقالت إنه في اليونان. وجدت نفسي دون أن أشعر أضع يدي على ساقها وأتحسَّسها وأنا أقول لها: ساقاك رائعتان. فقالت بهدوء: لقد شربتَ كثيرًا يا مسيو خليل. انطلقَت يدي رغمًا عني تتحسَّس فخذها، فأمسكَت بها وجعلَت تضغط عليها. المرأة عندما تفعل ذلك تكون قد انتهت. انحنيت فوقها وأملتها على الأريكة، وصرت كل يوم معها عندي وعندها وفي السيارة، وجُن الضبَّاط الذين كانوا يسكنون في العمارة.

كنا قد توقَّفنا أسفل أحد مصابيح الطريق، وتأملت ملامح خليل في الضوء لم يكن يخلو من جاذبية، لكن شيئًا في قصته مع اليونانية جعلني أرتاب في صحتها.

سألني: وأنت، ألم تجرِّب الأجنبيات؟

قلت: يعني.

* * *

وانحنينا على خارطة مدينتها وقد تلامست أكتافنا، وحوَّلنا الدائرة الزجاجية التي تتألَّف منها قمة البرج، وخلفها كتلة من الظلام تفصلها عن أنوار القاهرة، وعندما حاولنا أن نرى المدينة من خلف الزجاج لم نُطالع سوى وجهَينا، وتمدَّدت فوق رمال الشاطئ، ثم انحنت وأبعدت حافة القطعة السفلى من المايوه عن جسمها وتطلَّعت هناك، وفي ظلام السيارة شعَّت عيناها بالضوء، وكان الآخر يجلس إلى جوارها من الناحية الأخرى واضعًا ذراعه على حافة المقعد خلف رأسها، وقال بيتًا من الشعر، فضحكَت ساخرةً وقالت: ها هو شاعر جديد.

* * *

توقَّفت أمام الاستراحة، وعرض عليَّ خليل أن نذهب إلى صديقه الطبيب، فاعتذرت بأني أُريد أن أنام مبكِّرًا.

قال: سأبعث إليك في الصباح بسيارة تأتي بك، وسأكون قد أعددت كل شيء.

شكرته وانتظرت حتى سار بضع خطوات فولجت الاستراحة.

كان حلمي جالسًا في الصالة وفي حجره بعض الأوراق، وبدا منهمكًا فيما يشبه الحسابات. جلست أمامه بعد أن قدَّمت إليه سيجارةً وأشعلت واحدة. جعلت أرقبه وهو يُلصق طوابع دمغه على أوراقه.

قلت بعد لحظة: سأُسافر في الصباح.

قال: لا شك أنك مَلِلت هذا المكان، ولك حق.

قلت: كان بودي أن أواصل السفر حتى حدود السودان لأرى بقية المعابد، لكن الوقت لا يكفي.

أتى رفعت من الخارج فحيَّانا وجلس. سأله حلمي عن الأخبار فقال إن السُّلطات أعادت اليوم وراء الحدود بعض اللاجئين الأفريقيين.

استفسرت عن الموضوع فذكر لي حلمي أن اللاجئين القادمين من تشاد يعبرون الحدود خلسةً كل يوم، ويسلِّمون أنفسهم إلى أقرب نقطة شرطة فترحِّلهم إلى أسوان.

سألت: ولماذا إذن أعادوهم اليوم؟

هزَّ كتفَيه وقال: لا أعلم. ربما كانوا خطرين.

قال رفعت: لا أفهم لماذا يهجرون بلادهم أصلًا.

نهضت واقفًا وأنا أتمطَّى، وقال حلمي لرفعت إني راحل في الصباح.

قال رفعت: لكنك لم تُجرِ معنا أية أحاديث.

قلت: لقد كتبت كل شيء ولا تنقصني سوى صوركما.

أخرج رفعت من محفظة نقوده صورةً فوتوغرافيةً له وناولها لي، وقام حلمي إلى الداخل فأحضر صورةً له.

تبادلنا تحية المساء وأويت إلى غرفتي. أعددت حقيبتي، ثم أشعلت سيجارةً واستلقيت على الفراش.

تناولت رواية «كيرواك» وبدأت أقرأ، لكني وضعتها جانبًا بعد فترة، واسترجعت مغامرة خليل مع اليونانية. كانت حكايته جذَّابةً رغم شكي في صحتها، ومضيت أتذكَّر حكايات مماثلةً سمعتها أو قرأتها.

تحسست ساقي بيدي، ثم أشعلت سيجارةً أخرى بعد أن أطفأت النور، ودخَّنت في الظلام حتى انتهت السيجارة فوضعتها في المطفأة.

نمت على وجهي حتى الصباح، وحلمت أني وذهني محاصران في مكان ما ونريد أن نتسلَّل منه، وأسير أنا في المقدِّمة ولكني أُفاجأ باثنَين من الزنوج يرتديان جلبابَين أبيضَين يحرسان المكان، وأقف أمامهما في الظلام واضحًا وأنا في رعب من أن يرياني وهما يرياني أخيرًا ويجريان ورائي فأستسلم لهما شاعرًا بعجزي عن المقاومة، لكني أبذل محاولةً يائسةً فأُمسك برقبة أحدهما، وأرى ذهني ممسكًا برقبة الثاني، وإذا بالرقبة التي في يدي تلين كأنبوبة من المطَّاط وأفعصها فتندفع منها الدماء وتتحوَّل إلى شيء كقربة من الجلد أُفرِّغ

ما بها، وأُطوِّح بها بعيدًا، ويتغيَّر الليل فجأةً إلى نهار، وأَجري في طريق حاشد بالمارة وأنا أنظر إلى يدَي الملوَّثتَين بالدماء، وأفكِّر بأن التخلُّص منها صعب، وأن أمري لا بد سينكشف، وأَجري نحو ذهني الذي دلَّى يدَيه في مكان ما وغسلهما، وننطلق معًا جريًا ونحن واثقَين من أننا قد أفلتنا، ونهنِّئ أنفسنا بالنجاة، وإذا بالسيارات تُحاصرنا ويقبضون علينا، وأقول لذهني إنها غلطته فقد استنجد بالشرطة في الصباح لأمر ما وأعطاهم أسماءنا وأوصافنا، فأتاح لهم فرصة اصطيادنا.

أيقظني فهمي في الصباح قائلًا إن هناك سيارةً تنتظرني. اغتسلت بسرعة بينما حمل حقيبتي إلى السيارة. أردت أن أمضي بغير إفطار، لكنه أصرَّ أن أتناول كوبًا من الشاي وقطعةً من الجبن، وأخيرًا صافحته مودِّعًا وودَّعت كلًّا من حلمي ورفعت، وأخذت مكاني إلى جوار السائق.

أدار السائق المحرِّك وسار بضع خطوات إلى الأمام، ثم قام بنصف دورة إلى اليسار وضعته في الاتجاه المعاكس على الجانب الآخر من الطريق، وضغط مفتاح السرعة فانطلقَت السيارة بأقصى سرعتها.

أخذ الجبل الصخري يتراجع من ورائنا، وأحاطت بنا الصخور والرمال المستوية من كل جانب، وما لبث النهر أن تجلَّى لأعيننا، وامتدَّ الشاطئ الرملي الضيق تحت أقدامنا وفي أقصاه ناحية اليسار كانت الباخرة تستعد للإقلاع.

* * *

موسكو، ٢٤ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٣

هنداوي